محمد عبد المنعم خفاجي

الإسلام

رسالة الإصلاح والحرية

طبع ونشر

مكتبة القاهرة

لصاحبها : علي يوسف سليمان

شارع الصنادقية بالأزهر الشريف بمصر

الطبعة الأولى بالقاهرة
١٣٧٢ هـ — ١٩٥٢ م

مطبعة عاطف وولده
بميدان الخازندار بمصر

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمـــة الكتاب

قضايا الحرية والإصلاح وتوزيع العدالة الاجتماعية بين الناس هى هى الشغل الشاغل اليوم للشباب فى مصر والعالم العربى ، لاتصالها الوثيق بحياة الشرق وآماله ومشكلاته ، وبالتفكير العالمى الراهن . والحديث عنها جميل محبوب ، لأنه ينبع من النزعات الانسانية المتأصلة فى قلوبنا وأرواحنا ، ولأنه مقدمة للاصلاح الذى لا يمكن أن ينهض مجتمع لا يؤمن به ، وديننا الكريم الذى نسعى بدوافعه الروحية العميقة فى نفوسنا هو أحفل الشرائع بمبادىء الاصلاح والخير والحرية والعدالة والتعاون بين الناس .

وبين مواكب الشباب الساعية لخير الحياة ومجدها ، نرى البعض قد انحرف عن الجماعة ، وترك التفكير فى أهداف الدين ومراميه وأصوله ، وآمن بمبادىء أخرى تخالف ديننا وتقاليدنا الموروثة .

والذين يؤمنون منا بهذه المذاهب الغريبة عنا ينسون أنها مذاهب مادية استعمارية ، وأن الدول التى تدعو اليها تقصر خيرها على نفسها وتوزع شرورها بين الناس .

أما الاسلام فقد سبق المذاهب عامة إلى تقرير كل ماهو حق وعدل وخير وجميل ، وإلى تطبيقه تطبيقاً عاما على الناس كافة ، دون نظر إلى أجناسهم وعناصرهم وأديانهم . . لقد سبق فلاسفة الاجتماع المحدثين إلى

وضع أصوله ، وسبق بيكون إلى المذهب العلمى ، وديكارت إلى تقديم الشك أمام كل بحث وترك التقليد والايمان بما يؤدى اليه الدليل .ووضع أصول السياسة والتشريع والأخلاق والبحث والتفكير ،ولم يجعل للمعرفة الانسانية حداً ، وكفل حقوق المرأة والعامل والزارع والخادم ، وأقام مبادئه على سمو الغاية الأدبية والانسانية فحسب،دون النظر إلى التفسيرات الاقتصادية المادية التى هى أساس الحياة الراهنة .

ولقد سبق الاسلام الحضارة الغربية إلى توطيد دعائم العدالة والمساواة بين الناس ، وإلى النظم الديمقراطية الشورية ، وتقرير مسئولية الحاكم ، والغاء الفوارق والامتيازات بين الطبقات والعناصر والألوان . وسبق إلى محو الأمية ومجانية التعليم والعلاج ، وتقرير مبدأ الضمان الاجتماعى للعاجزين عن الكسب مسلمين وغير مسلمين،وإلى محاربة الجشع الاقتصادى والاحتكار والربا والاستغلال ، ولقد فكر بعض المسلمين على عهد الرسول صلوات الله عليه فى تأجير أراضيهم الواسعة التى لا يزرعونها للفقراء فنهاهم قائلا : من كانت له أرض فليزرعها أو يمنحها أخاه ولا يؤاجرها إياه ، وحجر عمر على الاشراف أن يهاجروا إلى البلاد المفتوحة لاحتلال أراضيها حتى لا يضيقوا على الناس قائلا : « ألا فإن قريشاً يريدون أن يتخذوا مال الله معونات دون عباده ، ألا فأما وابن الخطاب حى فلا » .

إن حقوق الانسان لم تعلنها الثورة الفرنسية ولا هيئة الأمم المتحدة وإنما أعلنها الاسلام منذ أربعة عشر قرنا من الزمان . وما بالكم بدين حمى حق الانسان فى الأمن والحياة وفى الكرامة الانسانية وفى تكوين الأسرة وفى السعى فى الحياة والمعيشة المطمئنة ، وفى مساواته بغيره مساواة كاملة شاملة أساسها العدل والاخاء ،وجعل الفرد للمجتمع والمجتمع

فى خدمة الفرد ، ووضع أصول التقدم الأدبى والروحى والاجتماعى ؛ وأيقظ الروح الانسانى العام ،ودعا إلى أخوة الانسانية كافة ،وحمى الفقير وجعله أخا للغنى ، وأوجب له من الحقوق ما لم توجبه له شتى المذاهب الحديثة التى يرنو الشباب ببصره اليوم اليها ؛ ولم يطلق للغنى الحرية يفعل ما يشاء بل طالبه بشتى الالتزامات المفروضة عليه يقدمها طواعية واختياراً تلبية لنداء ضميره ودينه ؛ وحذره أشد التحذير من الضن بالمال وعدم انفاقه فى المصالح العامة ، « والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم ، هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون » .

إن المعجبين بالحضارة الراهنة إنما يعنون بها عادة السكك الحديدية والكهرباء والبرق والمذياع والطائرة كما يقول برنارد شو ، أما المعجبون بالحضارة الاسلامية فيعنون مبادئها الانسانية ، ويعنون بها العلم والعدل والأخاء والمساواة والحرية وبسط سلطان العقل ومحاربة الأوهام والوثنية ومحو الفوارق الطائفية والعنصرية والمذهبية ؛إلى غير ذلك من جلائل المبادىء :

* * *

وهـذه فصول كتبتها عن الاســـلام ورسالته ودعواته القوية إلى إلى الحرية والاصلاح ، أقدمها إلى القراء فى كل مكان وكل جيل ليتفهموا حقائق دينهم . وتعاليم شريعتهم ؛ وليعلموا أن لهم تاريخاً خالداً وماضيا مجيدا ، فى كل ما هو حق وخير وجميل ، من مثل الحياة العليا وأهدافها الكريمة . . وما توفيقى إلا بالله ؟

المؤلف

رسالة الاسلام الخالدة

الاسلام دين المدنية

الاســلام اليوم مجهول من جماهير المسلمين ، غريب بينهم لا يألفهم ولا يألفونه . يرددون اسمه فى المحافل ترديداً ، وهم أبعد الناس عن روحه وجوهره ، بل وأبعدهم عن فهم مبادئه وأصوله وأهدافه .

الاسلام الذى أحدث أعظم انقلاب عالمى ، وأكبر ثورة بشرية ، والذى بلغت دعوته من الحيوية والسمو والطهر ، ومن المواءمة لروح الانسانية ، ونظريات الاجتماع ، ومذاهب التفكير الحديث ، ما شهد به الفلاسفة والمفكرون والمشرعون فى كل جيل ومكان. هذا الدين السماوى الخالد ، هو الذى ينبذه المؤمنون به اليوم وراءهم ظهرياً ، ويحرمون أنفسهم من الافادة بتعاليمه ، بل ويجاهر بعضهم أحيانا بأنه دين الرجعية والجمود . كذبوا وأيم الله ، فالاسلام لم يكن فى يوم من الأيام إلا دين التقدم والمدنية والتحرير الانسانى والعزة والكرامة والمجد . وإن أوربا لم تنهض نهضتها الحديثة الا بعد أن فهمت أصول الاسـلام ، واقتبست من شريعته فى الاصلاح ، بل لقد وقف فلاسفة الغرب حياله مذهولين حائرين ، يتأملون نوره كما يتأمل الأعشى نور الشمس المشرقة ، يقول اللورد استانلى : « أنا مسلم رأيت عظم أثر الاسلام وقدرته فى نفسى حق قدره ، نعم أنا مسلم ، أهزأ بكل ما يحيط بى من مظاهر المدنية ، فصحيحها الحق من كتاب الله وقرآنه ، وباطلها المذاع لا يلبث أن تبرهن الأيام على بطلانه » ، وقال اللورد هدلى : « شرحت لكثير من الأفراد فى انجلترا ماهية الاسلام . فكانوا يجيبوننى اذا كان هذا هو دينك فنحن اذن مسلمون .

لأن هـــذا هو ما نعتقده وما نفكر فيه » ، وقال برناردشو : « لابد أن تعتنق الأمبراطورية البريطانية النظم الإسلامية قبل نهاية هـذا القرن ، ولو أن محمداً بعث فى هـذا العصر لنجح تماماً فى حل جميع المشكلات العالمية ، ولقاد العالم إلى السلام والسعادة المنشودة » .

وما بالكم بدين وضع أصول السياسة والتشريع والاخلاق وأصول البحث والتفكير ، وسبق « الديكارتيين » إلى تقديم الشك أمام كل بحث ، وترك التقليد ، وإلى الايمان بما يؤدى اليه الدليل . كما سبق « بيكون » إلى المذهب العلمى ، وسبق فلاسفة الاجتماع إلى وضع أصوله ، ولم يجعل للمعرفة الإنسانية حداً ، من حيث وضع بعض المفكرين الغربيين حـداً لمـا يمكن أن يصل اليه الانسان من معارف ، وأقام مبادئه على سمو الغاية الأدبية والإنسانية فحسب دون النظر إلى التعليلات الاقتصادية والمادية للأشياء ، التى هى الآن أساس المدنية الغربية .

إن المعجبين بالحضارة الراهنة انمـا يعنون بها عادة السكك الحديدية والكهرباء والبرق والمذياع والطائرة كما يقول برناردشو ، أما المعجبون بالحضارة الإسلامية فيعنون بها مبادئها الروحية ، وأهدافها الأدبية ، وغاياتها الانسانية السامية ، يعنون بها العلم والعدل والاخاء والمساواة والحرية وبسط سلطان العقل ومحاربة الأوهام والاساطير والخرافات والوثنية ، وإزالة الفوارق الطائفية والعنصرية ، إلى غير ذلك من جلائل المبادىء التى دعا اليها الإسلام ، والتى تعلم منهـا الغرب كيف يرفع بصره إلى السماء .

يبنى « أمانول كانت » مذهبه الخلقى على أن حسن النية هو الأساس

الأول فى الاخلاق ، ونحن لم ننس بعد قول الرسول صلوات الله عليه : « إنما الأعمال بالنيات وانما لكل امرىء مانوى » .

ويفاخر العالم الغربى بمجانية التعليم التى سبق إلى تعميمها منذ عهد بعيد ، ونحن نعلم أن المدارس والجامعات الاسلامية كانت تطبق نظام مجانية التعليم فيها ، بل تزيد على ذلك فتصرف لطلابها الغذاء والكساء ، وتهيء لهم السكنى فى مساكن مدرسية خاصة .

ويفاخرنا بمجانية العلاج ، وهو نظام سبق اليه المسلمون فى العصور القديمـــة .

ويفاخرنا بنظام الضمان الاجتماعى الذى عمموه فى بلادهم ، مع أن المسلمين هم أول من طبقوه ونفذوه ، فقدكان يصرف من بيت المال نصيب معلوم للفقراء والمساكين واليتامى والأرامل وأبناء السبيل ، كما كان لهم نصيب فى الغنائم ، ونصيب فى الزكاة . وكان عمر يفرض لجميع المسلمين عطاء من بيت المال ، ويقول : « والله ما أحد أحق بهذا المال من أحد » . هذا كله غير تشريع الإسلام للزكاة والهبة والوصية والوقف والارث ، ودعوته إلى الاحسان ، وفرضه حقا معلوما للفقراء فى أموال الأغنياء .

ويفاخرنا بنظامه الشورى ، مع أن الغرب يعلم أن الإسلام هو أول من وضع نظام الحكومة الشورية التى كان دستورها القرآن ، والتى اختفت فيها الفروق والامتيازات ، ووضعت الحقوق والواجبات على الأفراد على السواء ، وصار الحاكم والمحكوم جميعاً على قدم المساواة فى المسئوليات والالتزامات ، بعد أن كان الناس يؤمنون بأن الحاكم

فوق القانون والمسئوليات ، ولعلنا على ذكر من قول محمد صلوات الله عليه : « الإمام راع ومسئول عن رعيته » ، وقوله : « أيها الناس من كنت جلدت له ظهراً فهذا ظهرى فليستقد منه ، ومن كنت شتمت له عرضاً فهذا عرضى فليستقد منه ، ومن أخذت له مالا فهذا مالى فيأخذ منه ، ولا يخش الشحناء فهى ليست من شأنى » ، ولعلكم قرأتم بإمعان قول عمر : « إن رأيتمونى على حق فأطيعونى ، وأن رأيتمونى على باطل فقومونى » ، وقوله لعمرو بن العاص : « متى تستعبدون الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا؟ » ، وقوله : « أصابت امرأة وأخطأ عمر » ، وغير ذلك مما يعد دستوراً خالدا فى تقرير مسئولية الحاكم .

ولقد بدأ المفكرون فى القرن العشرين يدعون إلى حكومة عالمية ، فأين هم من الإسلام ورسوله الكريم الذى دعا إلى أخوة المسلمين فى الدين ، وأخوة الناس جميعاً فى الإنسانية ، ولم يجعل لعربى على أعجمى فضلا إلا بالتقوى والعمل الصالح ، وألغى الفروق بين الأفراد والطبقات والعناصر والأجناس والألوان والشعوب ، وجعل أساس الحكم الإسلامى المحافظة على الكرامة الإنسانية ونشر كلمة الله والهدى والنور والحق والخير والمعرفة ، الدين واحد ، والناس جميعاً إخوة ، يحكمهم حاكم واحد بما أنزل الله ؟

ولا يزال الغرب يدعى أنه أول من أعلن حق الإنسان فى الحرية والإخاء والمساواة ، وأنه واضع حقوق الإنسان ، وما أشد جرأة هؤلاء وهؤلاء على الحقائق ، فلقد سبقهم الإسلام بأجيال قرون إلى اعلان حقوق الإنسان وتأييدها وحمايتها . وما بالكم بدين حرر المرأة من جور الرجال ، وحرر العامل من ظلم صاحب العمل ، وحرر الرقيق والخدم

من العبودية والهوان ، وحافظ على حق الإنسان فى الحياة والأمن ، وحقه فى الملكية ، وفى الكرامة الإنسانية . وفى تكوين الأسرة ، وفى الاشتراك فى إدارة شئون الدولة ، ودعا إلى العدالة بأجلى معانيها ، وإلى الاخاء بأصدق مدلولاته ، وإلى الحرية الكاملة ، والمساواة الشاملة ، والاشتراكية العادلة ، وحمى أتباع الأديان الأخرى ، وجعل لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم من واجبات وحقوق ، شعاره فى ذلك الآية الكريمة: « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم » .

لقد كان أفلاطون وأرسطو من فلاسفة اليونان يقرران حرمان العمال والصناع والموالى من الحقوق المدنية ، لانحطاط ما يمارسونه من من المهن ، وكان غيرهما يضع الرقيق والحيوانات فى منزلة سواء . فأين هذا من سماحة الإسلام وسمو مبادئه ، التى سوت بين الناس جميعاً ؟

وأوربا المتمدينة اليوم لاترى بأسا من فرض الرق البشرى على الشعوب عن طريق الاستعمار ، وتسوغ لنفسها إزهاق الأرواح ، وانتهاك الحرمات ، والحجر على الحريات فى سبيل بسط نفوذها وسلطانها على الأرض . فأين هـذا من عدالة الاسلام التى حرمت الاستعباد والطغيان والاستغلال فى شتى صوره ، وجعلت للشعوب المتأخرة المحكومة مثل ما للحاكمين ؟ .

والشعوب التى تتزعم مدنية اليوم لاترى أيضاً ضيرا فى تدمير المدن وقتل النساء والأطفال والكهول والمرضى ، وإزهاق أرواح المدنيين بلا حساب ، فى حروب منظمة، يعجز العقل عن تصورهولها وفظاعتها .

فأين هــذا من شريعة الاسلام التى فرضت على المسلمين احترام حقوق الانسان حتى فى الحروب ، وأوصت بالمدنيين المسالمين خيرا ، ونهت عن الاعتداء والسفك والنهب والحرق والتمثيل والتدمير والتخريب ؟ حتى لقد أوصى رسول الله صلى الله عليه وسلم جنده فقال لهم : « أوصيكم بتقوى الله ، وبمن معكم من المسلمين خيرا ، اغزوا باسم الله فى سبيل الله من كفر بالله ، لاتغدروا ولاتغلوا ولاتقتلوا وليداً ولا امرأة ولا كبيراً فانيا ولا منعزلا بصومعته ، ولا تحرقوا نخلا ، ولاتقطعوا شجراً ، ولاتهدموا بناء . »

وبعد فلقد بلغت المساواة فى الاسلام المدى الذى يصوره الرسول الكريم بقوله : « أيها الناس إن ربكم واحد وإن أباكم واحد ، كلكم لآدم ،وآدم من تراب ، أكرمكم عند الله أتقاكم . ليس لعربى على عجمى، ولا لعجمى على عربى ، ولا لأحمر على أبيض ، ولا لأبيض على أحمر ، فضل إلا بالتقوى . الا هل بلغت ؟ اللهم فاشهد ؟

ولقد ولى رسول الله بلالا على المدينة ، وفيها سادة العرب والمسلمين من الأنصار والمهاجرين ، وأسند إلى « مهران » الفارسى ولاية اليمن وهو من صميم الفرس ، وأذن عمر ـ وهو خليفة ـ لصهيب وبلال وسواهما من عامة الموالى بالدخول عليه قبل أشراف قريش وسادة العرب .

وبلغت العدالة فيه المدى الذى يصوره قول محمد بن عبدالله : « والله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها » ، وأن يغضب « على » لأن الخليفة عمر كناه بأبى الحسن فى خصومة بينه وبين يهودى ، وأن يقو

عمر فى وصيته للخليفة من بعده :«اجعل الناس عندك سواء ، لاتبال على من وجب الحق ؛ ثم لاتأخذك فى الله لومة لائم .. وإياك والأثرة والمحاباة فيما ولاك الله » . . وانظروا إلى مافعله عمر حين ضربه مجوسى أثيم ضربة غادرة قاتلة ، أوصى به خيراً ، فقال : « أطيبوا طعامه وأحسنوا معاملته فإن أنا أفقت كان لى حق القصاص ؛ فأما قصصت وأما عفوت. وإن أنا مت فاضربوه ضربة بضربة ، ولا تمثلوا به ، فإن النبى صـــلى الله عليه وسلم نهى عن المثلة ولو فى الكلب العقور » .

بل لقد أمر المسلمون أن يعدلوا حتى مع خصومهم « ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا ، اعدلوا هو أقرب للتقوى ، واتقوا الله ، ان الله خبير بما تعملون » .

وبلغت اشتراكية الاسلام مبلغاً كبيراً ، مما يصوره لك قول الرسول الأكرم : « من كان له فضل ظهر فليعد به على من لا ظهر له ، ومن كان له فضل زاد فليعد به على من لازاد له » . وفى حديث جابر بن عبد الله ، قال : كان لرجال منا فضل أرض، فقالوا نؤاجرها بالثلث أو الربع أو النصف فقال الرسول صلى الله عليه وسلم « من كانت له أرض فليزرعها أو يمنحها أخاه » . وحجر عمر على قريش أن يهاجروا الى البلاد المفتوحة حرصاً على امتلاك أراضيها حتى لايضيقوا على عباد الله فقال : « ألا فإن قريشاً يريدون أن يتخذوا مال الله معونات دون عباده ، ألا فأما وابن الخطاب حى فلا » . فضلا عن تحريم الاسلام للنظم الاقتصادية الجائرة : من ربا واحتكار وأكل لاموال الناس بالباطل . وقاعدة الاقتصاد فيه ، « فلكم رؤوس أموالكم لاتظلمون ولاتظلمون » ، كما أن قاعدة الاجتماع فيه قوله

صلى الله عليه وسلم : « لايؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه »

ان مفاخر الاسلام فى احترامه لحقوق الانسان وتأييده وحمايته لها وفى وضعه لأصول التقدم الأدبى والروحى والاجتماعى ، وفى ايقاظه الروح الانسانى العام ، لهى مفاخر جديرة بالاشادة والتقدير . حرية بأن نفهمها ونتدبر معانيها ، ونقتبس من أصولها ما يحيى الروح، ويوقظ العزيمة وينبه راقد الفكر فى شتى أرجاء العالم الاسلامى ، وان الخير كل الخير فى أن ينتبه الشرق الراقد الى أصول دعوة الاسلام التى جهلها وتناساها وتركها . وإنه لحرى بالمسلمين جميعاً أن يأخذوا بتعاليم محمد بغير تنقيح أو تعديل ، وأن تطبق تطبيقاً صحيحا ، ليسعد الناس ، وتستقر الجماعات وتهدأ الفتن ، وتصحح الأوضاع ؛ فالعالم لن يحيا من موته الروحى الا اذا اخذ بتعاليم الاسلام ، التى لابد أن ينتهى اليها فى يوم من الأيام: «سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم ، حتى يتبين لهم أنه الحق ،أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد ؟ »

وصدق الله العظيم حين يقول : « وكذلك أوحينا اليك روحاً من أمرنا ، ماكنت تدرى ما الكتاب ولا الايمان ، ولكن جعلناه نوراً نهدى به من نشاء من عبادنا ، وانك لتهدى الى صراط مستقيم ، صراط الله الذى له مافى السموات وما فى الأرض ، ألا الى الله تصير الأمور »

الاسلام ودعوات الاصلاح

الاسلام لايمنع قيام دعوات اصلاحية جديدة مادامت تهتدى بهداه وتترسم خطاه ، وتستضىء بنوره ، وتعمل على النهوض بالانسانية والسمو بها الى آفاق الحق والخير والنور والسلام .

فالدعوة التى تسود العالم الآن وترمى الى نشر السلام فى أرجائه والقضاء على الحروب التى تهدده كل حين ، والتى قامت على أسسها أخيرا هيئة الأمم المتحدة ، هى - اذا أصحت النيات فيها وأخلصوا لها القلوب - دعوة نبيلة تتلاقى وأهداف الاسلام العالية. وكذلك الشأن فى كثير من الدعوات الاجتماعية والسياسية والخلقية والفكرية والاقتصادية التى قامت فى العصر الحديث .

انما يجب — كما أشرنا - أن تقوم الدعوة على سلامة المبادىء ، وموامتها لأصول الخير والعدالة والحق ، وعلى سمو الغاية والوسيلة ، والادراك الصحيح لحاجات البشرية الرفيعة .. على أن شخصية الداعى وقوة ايمانه بدعوته واخلاصه لوجه الله والانسانية فيها وبعد ادراكه لآداب الدعوة وأصولها أهم عامل فى نجاح الدعوة وانتشارها .

ان الاســلام — وهو العقيدة الرفيعة الكاملة ، وفيه خير البشرية وسعادتها وآمالها - ليس فى حاجة الى كثير من الدعاة . بل هو فى حاجة الى داعية واحد يجدد للأمة روحها ، ويبعث من عزيمتها ، ويسير بها الى الآمال العظيمة والغايات المرتجاة .

قد تقول : وماذا يضير لو وجد بدل الواحد عشرون أو مائة؟ واقول ان العبقريات العظيمة التى خلقت لتؤدى رسالتها فى الحياة ولتنشر هدى الله بين الناس ، ولتوقظ روح الإيمان فى نفوس المؤمنين ، ولترث النبوة فى أعلى درجاتها وأكرم غاياتها ، هذه العبقريات أندر من الكبريت الأحمر - كما يقولون - . وقل أن يجود بها الزمان ، وفى الأثر المروى ان الله يبعث على رأس كل مائة سنة لهذه الأمة من يجدد لها دينها . ولقد

كسب الإسلام بعد حياة النبوة خيرا كثيرا على يد هؤلاء المجددين : فعمر بن الخطاب فى جلال شخصيته . وعمر بن عبد العزيز فى ورعه وزهده ، والحسن البصرى فى عظمة نفسه وإيمانه ودعوته لله . والشافعى فى فقهه ودينه ، وأمثال هؤلاء ،لهم فى تاريخ الاسلام أثر مشهور .وللغزالى من الآثار فى حياة الاسلام ومجد الدين ماليس لاحد بعده .. وفى العصر الحديث كان الأفغانى ومحمد عبده مثلا عالية فى خدمة الدعوة الإسلامية وبعث النهضة وتجديد إيمان المسلمين ، وايقاظ الروح الاسلامية فى الشرق.

وبعد فنحن نريد أن يكون حملة الدعوة ودعاتها والقائمون بأمرها فى مصر والشرق الاسلامى نجوم هداية ومصابيح رشاد وفضيلة ، وأن يخلصوا فى الدعوة إلى الله حق الاخلاص ، ويكونوا قدوة كريمة للمسلمين: عظمة نفس ، ونبل خلق ، وقوة عقيدة ، وسمو دين ، وأن يصبح كل واحد منهم الحسن البصرى فى إيمانه وخشيته ومالك بن دينار فى إسلامه ودعوته والثورى فى شجاعته وقوته وابن حنبل فى صراحته وعزيمته والغزالى فى جلال أثره على الاسلام والمسلمين ..وما ذلك على الله بعزيز

رسالة الاســـلام فى الحياة

رسالة الدين فى الحياة هى السمو بالعواطف والمشاعر ، وتهذيب الأخلاق والضمائر ، وتطهير النفوس والعقائد ، ورعاية كرامة الإنسان خليفة الله فى أرضه ، والدفاع عن حقوق الأفراد والجماعات والشعوب . هى النهوض بالمجتمع البشرى ، والسير به قدما نحو النور والهدى ، والطهر والخير ، .والعزة والحرية ، والأمان والسلام .

الدين هو شريعـــة الأصلاح بنظمها قانون سماوى له فى النفوس الحب والتقديس ، وهو الناموس الخالد لدعوة التجديد والبناء والنهضة والحضارة ، والنبع الأزلى للحقيقة والأيمان والعدالة ، فليس هو مخدراً للشعوب كما زعم كارل ماركس وأنصاره من دعاة المادية والألحاد ومحاربة الدين باسم المدنية ، ومن الذين يغالون فى إنكار الروحيات ووجود الله ومعاداة كل ما يمت بصلة إلى الدين ، ويزعمون أنه يجافى العقل والعلم والتقدم

إن الأديان السماوية عامة ، والاسلام من بينها خاصة ، لا تعترف بأية وصاية أو حجر على العقل . ولا تقر ظلما أو عدوانا ، ولا تلبس الأهواء والشهوات مسوح الدين ، ولا تشرع ما ينافى ناموس الارتقاء

ولقد جاء الاسلام ، فأيقظ الشعوب ، وعزز فكرة الأصلاح ، وحمى الحرمات والحريات وكرامة الأنسان . لم يترك حقاً إلا شرعه ، ولا عدلا إلا فرضه ، ولا فضيلة إلا أوجبها ، ولا خيرا إلا دعا إليه . حارب الاستغلال فى شتى صوره ، واعترف بشخصية الأنسان المعنوية ومكانته الأدبية فى الحياة ، فجعل له حقوقاً كفلها ورعاها ، وحذر من يعتدى عليها من سخط الله وغضبه وعذابه الأليم . لم يقاوم الأسلام رغبة جماعة فى الأصلاح ، بل أنكرته الجماعات المتأخرة لما تدعو إليه مبادئه من تجديد وتنظيم وإصلاح . وهذه المبادىء المثلى هى التى كانت تدعو بنفسها إلى الأسلام فى شتى الأقطار والأمصار ، وهى التى مهدت لقيام حضارات زاهية مشرقة ، كانت نواة الحضارة الحديثة . ولا عجب فللإسلام مآثره الرائعة فى تحرير الشعوب ، والذياد عن الحقوق ، وتنظيم الواجبات ، وفرض العـــدالة والمساواة والأخاء ، وحماية الفكر ورعاية الثقافة .

ولا ريب أن فى اتباع مبادىء الدين والسير على منهاجه ، والايمان بمـا يدعو إليه من مثل : عصمة من الزلل ، ومنجاة من العثار .فالمبادىء القوية لا تخلق الجماعات القوية إلا إذا آمنت بها ، واتبعتها ، واتخذت منها ناموساً كريماً ونظاما قويماً ، يقيها عواصف الأهواء . وزيغ العبث والعدوان والشهوات .

وإذا كان هناك من يتجر بالدين فى عصور التأخر الفكرى والاجتماعى ، فليس ذلك ذنب الدين نفسه ، انما هو ذنب من يريد أن يحيل النور ناراً ، والهدى ظلاما ، ويعلم الحق ويكتمه ، ويحامل فيه ، ويحاول أن يطفىء نور الله : ولقد حذر الله تعالى من هولاء ، وأنذرهم بعذاب شديد .

وبعد فليس أدل على ضلال خصوم الدين من انكار كثير من الفلاسفة والمفكرين لآرائهم المـادية الالحادية ، وجهرهم بأن الدين شىء مقدس لاتستغنى عنه الانسانية ولا الحياة .. ففكرة الدين ، وعقيدة الله الذى ليس له نهاية ، وقدسية الروح ، وتنظيم العلاقة بين الله وعباده ، كلها أفكار صيغت فى الضمير البشرى الخفى الذى ليس له نهاية ، وان الانسان لايستطيع أن يعيش على الأرض اذا فقد الايمان بالدين والعقيدة فى وجود الله ، ومن آمن بالمادية فقد كفر بالخالق الأعظم ، وأسلم نفسه للحيرة والضلال : « أفغير دين الله يبغون ، وله أسلم من فى السموات والأرض : طوعا وكرها ، واليه يرجعون .

الاسلام شريعة الخير فى المجتمع

الإشراق الروحى ، والفرح النفسى ، والتفاؤل والثقة ، والأمل الواسع فى الحياة ، والاطمئنان والاستقرار الداخلى فى نفوسنا . . كل هذه أمور وأشياء تنقصنا أفرادا وجماعات وأمة .

فالقلق والإضطراب والكآبة النفسية كلها ظواهر عامة واضحة فى حياتنا ، غالبة علينا ، ذائعة بيننا .

العامل والتاجر والصانع والموظف ورب الأسرة ورئيس المصلحة ووزير الدولة ، لاتهدأ لهم نفس ، ولا تستقر لهم حياة ، وينشدون الرضا النفسى فلا يجدونه .

والشاب والفتاة والتلميذ والطفل : يبحثون عما يشيع الفرح والبهجة والسرور فى قلوبهم فلا يعثرون عليه .

والزوج والسيدة والأم والابن والأب : يطلبون فى المنزل والأسرة الاطمئنان والوداعة والسعادة فلا يعثرون لها على ظل .

هـذه الظاهرة العامة فى حياتنا تؤلمنا وتقض مضجع الغيورين على حاضر هـذا البلد ومستقبله ، وينشدون لها العلاج فلا يواتيهم العلاج ، ولا يسعفهم الدواء .

يقول البعض إن مرد ذلك إلى الاستعمار ، وآثاره الأليمة ، وأياديه الخفية ، فى كل ناحية من نواحى حياتنا الاجتماعية العامة والخاصة . . . ونحن نقول : وما أثر الاستعمار فى نفوسنا ، وكيف أمكن أن يتغلب على منعتنا وقوتنا الداخلية ، ونحن لم نكن فى وضع أسوأ من بولندا فى

تاريخها القديم ، ولا من المانيا فى تاريخها الحديث ؟ . بل إن الرجل العادى ينطق فى سخرية هازئة ويقول : إننا لم نفقد فى عصر الاحتلال إلا حرياتنا العامة ، وقدرتنا على التصرف فى مواردنا الاقتصادية ، ولكننا فيما تلا ذلك من عهود فقدنا ماهو أكثر من ذلك وهو ثقتنا بأنفسنا ، وإيماننا بقوميتنا ومستقبلنا .

ويقول البعض : إن سبب ذلك هو كثرة الفقر والمرض والجهل فى مصر ، أثراً للاستعمار وللعهود الماضية التى عشنا فيها خاملين بعيدين عن منابع التقدم والقوة . . ولكن كيف تركنا الفقر والمرض والجهل كل هذا الزمن الطويل دون علاج ؟ ولم ضعفنا أمام هذه الأعداء ولم نجابهها بقوة المدافع المتحمس المؤمن بقضية الاصلاح ؟ . . وها نحن أولاء نحارب هذه الأعداء ، فلا نتقدم خطوة واحدة ، ولانوفق فى استئصال هذه الأمراض الخبيثة من محيطنا العام .

ويقول آخرون إن سبب ذلك هو ضعف إيماننا بأنفسنا وبحقنا فى الحياة...إلى غير تلك التعليلات التى نقرؤها ونسمعها من أفواه الساخرين والمفكرين .

ولكنى أؤمن ، وأكرر ما أؤمن به فى كل مناسبة ، وسأظل أكتبه وأسجله فى كل وقت ليتدبره الشعب عامة ، أومن بأن هذه الكآبة النفسية العميقة التى تأصلت فينا اليوم إنما مردها إلى أننا صرنا نعيش بلا دين

الدين وحده بماله من قدرة ساحرة فى القلوب، وسلطان على الأرواح، هو الذى يستطيع أن يملأ حياتنا سعادة ورضى وطمأنينة ، وأملا وبهجة

وسروراً ، وإيماناً قوياً لا تزعزعه الجبال بحقوقنا القومية والوطنية ، وبحقنا فى الحياة والعيش والكرامة والحرية والاخاء والمساواة والديمقراطية

والدين هو الذى يستطيع أن يدافع عن حق الشعب فى الحرية والعدالة الاجتماعية ، ويحمى حقوق العامل والصانع والزراع والتاجر والمرأة . وهو الذى يدعو إلى تقديس حرية الرأى والفكر ، وهو الذى يهذب الضمير ، ويثقف الوجـــدان ، ويرقق المشاعر . ليشعر الناس بالمسئوليـة ، ويحـافظوا على العـدل ، وعلى إقامة شرائع المحبـة والتعاون والشورى والمساواة الحقة بين الجماهير ، حتى يتألم الرجـل لألم أخيه فى الوطن ، وصاحبة فى الانسانية ، ويبكى لهموم المحزونين وآلام البؤساء والمساكين ، ويقدس الخدمة الاجتماعية والايثار ، وينبذ الأثرة والعصبية والمحاباة وراءه ظهريا ، ويجعل شعاره : « الوطنية عدل وكرامة ، والحياة حب وتعاون ، والعيش رضا وقناعة ، والسعادة فى محبة الناس وعمل الخير ما استطاع الانسان إلى ذلك سبيلا »

من هذا الذى يبكى اليوم لبكاء أخيه . ويفى بحقوق الصداقة لصديقه ويواسى زميله فى محنته . ويسعى لخير غيره وإن شقى هو ؟ وأين الرجل الذى يضحى اليوم بنفسه فى سبيل وطنه ، ويؤثر غيره على روحه ، ويجاهد فى إنقاذ المكروبين . وتفريج هموم المحزونين .

مثل عليا فى الخلق والفضيلة والايمان نفتقدها فلا نجدها . وننشدها فلا نراها . من يوم أن انتهى إيماننا القوى بالله .

لقد كان تشرشل خلال الأزمات العالمية الخطيرة يدعو شعبه إلى الصلاة ، وكان « بيتان » ينادى فى مواطنيه الفرنسيين فى أيام المحنة : أن عودوا إلى الدين لأنه خير طبيب روحانى وخاصة فى الأزمات .

ونحن اليوم لا نجد من يصبح فى الجماهير : أن آمنوا بالله ، ليزرع الله فى قلوبنا المحبة والتعاون والعدل ، وليزرع فى نفوسنا الرضاء والسعادة والفرح ؛ وليلبت فى أرضنا الطيبة الخير والقوة والكرامة

المادية حرب على الأديان

المادية أخطر المذاهب الحديثة ، وأشدها حربا لفكرة التدين فى الانسان ، ولفطرة العقيدة التى فطر الله البشر عليها . وقد شن دعاتها فى الغرب الحرب على الأديان ، وأقاموا حكومات تؤيد مذهبهم الالحادى ، وتحمل الناس عليه بقوة القانون . وتطارد دعاة الأديان والمؤمنين بها أينما كانوا .

والمادية فى جملتها تذهب إلى أن المادة فى كافة صورها هى المؤثرة فى كل شىء ،وإلى أنها فى الوجود أسبق، وأن لها — لا للمعنويات — القدح المعلى فى مصائر الشعوب والانسانية .

وكان للمادية دعاتها فى القديم ، وممن آمن بها الفلاسفة « هير قليطس » وليوسيس . وديمقريطس . وممن دعا إليها فى الحديث : بيكون ، وهوبز وقد ذهب الأخير إلى أن المادة والحركة هما وحدهما الحقيقتان المطلقتان وأن المعرفة الانسانية تأتى عن طريق الاحساس . وقد أيده فى ذلك تولاند الذى رأى أن المادة هى القوة ، والحركة والحياة والعقل بعض خواصها ، وأن التفكير هو وظيفة العقل . وكذلك نهج بريستلى وهارتلى ، ودارون ، وبلا ما ترى ، وسواهم ممن استغنوا عن الروح واطرحوها وفسروا الحياة تفسيراً ميكانيكياً مادياً محضا . وألف « بخنر » كتابه « القوة والمادة » . الذى ظل حينا دعامة قوية من دعائم المذهب

المادى[١] وأعظم الماديين هو كارل ماركس اليهودى المادى المتطرف، وقد ورث الروح المادى عن أستاذه انجلز الذى كان يقول : « إن العالم المادى الذى تدركه بحواسنا ، والذى نحن جزء منه ، هو الحقيقة الوحيدة ، وليس الادراك والتفكير إلا نتاجا لعضو من أعضاء جسمنا ، وهو المخ ، فليست المادة من إنتاج العقل . بل إن العقل نفسه ما هو إلا أسمى إنتاج للمادة . وتفسير ماركس للمادية هو الأساس الأول الذى يبنى عليه الشيوعيون مذهبهم ، فنجد لينين وستالين يقرران أن المادة والطبيعة والوجود حقائق موضوعية ، خارج نطاق عقلنا ، ومستقلة عنه ، والمادة تأتى فى الصدارة ، ويتلوها العقل ، ومن ثم فالحياة المادية للمجتمع والوجود المادى له ، لها السيادة على الحياة الروحية التى هى انعكاس للمادة ، كما يقرران أن العالم بطبيعته مادى ، وأن الظواهر المتضاعفة للعالم تشتمل على أشكال مختلفة من المادة فى تحرك ، وأن ارتباط الظواهر واعتماد بعضها على بعض هو قانون ارتقاء المادة ، وليس من حاجة إلى الروح الشاملة[٢] .. وكذلك تؤمن الشيوعية الحديثة بنظرية النشوء والارتقاء التى قال بها دارون ، ومن ثم تصرف على إنكار وجود الله ، وكان إنجلز يرجع كل شىء حتى الدين ، والأخلاق والفكر والثقافة إلى انعكاسات للأحوال الاقتصادية والمصالح الطبقية[٣] . ويفسر هو

---

(١) راجع ص ٢٦ وما بعدها من كتاب نقد النظرية الماركسية لأحمد جمال الدين طبعة ١٩٤٨

(٢) راجع ٨٣ المذاهب السياسية المعاصرة ، ١٤٢ الدستور السوفيتى ، ٥٣ الشيوعية فى الميزان .

(٣) راجع ٣٠ و ٣١ الدستور السوفيتى — طبع النهضة ١٩٤٩ .

وتلاميذه الأحداث التاريخية تفسيرا ماديا ، وهـذا التفسير الاقتصادى للتاريخ ينكر الدين . وكان ماركس شيخ المـاديين لايؤمن بالمثل ، ولايدين بالمحسوسات ، ويؤثر عنه قوله : « لا إله والحياة مادة » وقوله « رسالة الطبقة العاملة هى القضاء على الدين والداعين إليه » ; وكان « هوبز » يقول : « إن الأشياء المادية وحدها هى المحسوسة بالنسبة لنا . فأنا لا أستطيع أن أعلم شيئاً عن وجود الله ، ووجودى الخاص هو وحده الأمر المؤكد ، أما ما عداه فخيـال لا أصـدقه » . وكان إنجلز يقول : « لا محل مطلقا لوجود خالق » [1] .

كل هـذا قطرة من بحر من آراء المـاديين فى إنكار الروحيات ، وجحد وجود الله ، ونبذ فـكرة الدين ، وحربهم الخطرة على الأديان .

ولا شك أن هذا المذهب الإلحادى على ضلال مبين ، وهو لايحارب بآرائه الإسلام وحده ، وإنما يشرك معه جميع الأديان . والذين يؤمنون بهذا الإلحاد هم فى رأى الإسلام مرتدون ، يقاتلون حتى يفيئوا إلى دين الله وإلى الحق .

إن الدين عنصر من العناصر التى لاتتم الحياة بدونها ، وهو رسالة الله إلى الانسانية ، حملها الأنبياء والمرسلون ، وأدوها إلى الناس لخيرهم وسعادتهم فى الدنيا والآخرة . والفلاسفة والمفـكرون الذين لهم خطرهم فى الحياة الفـكرية فى العالم القديم والحديث كانوا من خير الدعاة إلى فـكرة الدين والإيمـان بالله ورسله ، وكان تولستوى يقول : « إن الدين وحده هو الذى يجعل الحياة ممكنة » ، ويقول : « إننى لا أعيش إذا

---

(١) ١٧ الاشتراكية العلمية والاشتراكية الخيالية لفردريك إنجلز .

فقدت العقيــدة فى وجود الله ، ولولا انى كنت أتعلق بأمل غامض فى وجود الله لقتلت نفسى من زمان بعيد ،عش باحثا عن الله وإذاً فلن تعيش بدونه ؛ وعندما اعتقدت فى وجود الله اعتقدت فى الكمال الخلق وفى التقاليد التى تحمل معنى الحياة »

ويقول شوبنهور : إن فكرة الاله الذى ليس له نهاية وقدسية الروح ، والعلاقة بين الله وعباده ، كلها افكار صيغت فى الضمير البشرى الخفى الذى ليس له نهاية ، وهى تلك الأفكار التى لا يمكن لى ولا للحياة البقاء بغيرها . ويقول رينان : . من الممكن أن يتلاشى كل شىء نحبه إلا التدين فسيبقى أبد الآبدين حجة ناطقة على بطلان المذهب المادى. ويثبت ، كريسى موريسون ، الرئيس السابق لأكاديمية العلوم فى نيويورك فى كتابه ، الانسان ليس وحيدا ، وجود الله بأدلة علمية لاتقبل الجدل وينتهى إلى أن الله فى كل مكان وكل شىء ولكنه أدنى ما يكون إلى قلوبنا، وأن قول صاحب المزامير : « السموات تحدث بمجد الله والفلك يخبر بعمل يديه » هو قول صحيح من ناحية العلم والتخيل جميعا [1] ، وأكد عدد كبير من علماء الذرة والفلك وعلم الحياة والرياضة أن لديهم أدلة كثيرة تثبت وجود كائن أعظم ينظم هذا الوجود ويرعاه بعنايته ورحمته وعلمه الذى لاحد له ، ويقول الدكتور راين : إنه ثبت من أبحاثه فى المعامل أن فى الجسم البشرى روحا أو جسما آخر غير منظور . وقال عالم آخر : إنه لايشك فى أن الكائن الأعظم وهو ماتسميه الأديان السماوية الله هو الذى يسيطر على الطاقة الذرية وغيرها من الظواهر والقوانين الخارقة فى هذا الوجود [2]

(١) راجع مجلة المختار عدد فبراير ١٩٤٧ ـ مقالة عنوانها : سبعة أسباب لايمان عالم بالله

(٢) راجع عدد ٢٣ ـ ٨ ـ ١٩٥١ من جريدة المصرى .

وإذا ثبت وجود الله ثبتت الرسالة وفكرة الدين ، وثبت أن محمداً والرسل قبله صادقون فيما يحدثون به عن الله من عقائد وشرائع وأديان وأن علينا واجب الايمان بها وبخاتمة هذه الرسالات وهى ، دين الاسلام ، وبالكتاب الخالد « القرآن » معجزة هذه الرسالة .

وصدق الله العظيم فى قوله : « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أو لم يكف بربك أنه على كل شهيد ؟ »

منهج الاسلام فى الحياة

رويدك أيها العابس فى وجه الحياة ، الثائر على فطرة البشرية ، الساخر بشريعة الوجود ، فقد ذويت فى نضرة الشباب . وضللت عن محجة الصواب ، وحرمك جدك المتصل معانى السعادة ومتع العيش

إنما تحسن الحياة إذا ما   هصرتها يداك لهوا وجدا

ومهلا أيها السائم فى فتنة الهوى ، والرابض فى ليل اللهو ، والنائم عن حياة العمل والكفاح ولذة الجهاد والانتصار فى معارك الحياة ، فقد ألهاك الأمل وأسكرتك طفولة الرأى ، وغرة الحداثة ، فأخلدت إلى الأرض وقعدت عن مصال المجد ، ومجال الحمد وركنت إلى الكسل والخمول ، والفت النوم واللعب ، وأصبح العمل شاقا على نفسك . ولولا ما ورثته عن أبيك وجدك لانقطعت بك سبل الحياة وضاق بك العيش ، وغمرك تيار الدنيا الجارف .

ورويدكما أيها الرجلان ، فالحياة جد ولهو ، تعبس الطبيعة وتبتسم ، ويظلم الكون ويضىء ، ويورق الغصن ويذبل ، ويغيض النهر ويفيض .

وهل تريان جمال الحياة فى غير هذا التنوع الساحر ، وتلك الأضداد الجميلة المتعاقبة ؟

ضدان لما استجمعا حسنا والضد يظهر حسنه الضد

فلم لاتكون الحياة ياصاحبى شوبا من الجد الحازم واللهو الطاهر ، ومزيجا من يقظة العمل ومرح العاطفة ، وأطرافا من العمل المتصل واللعب المباح ،وفنونا من الصرامة والابتسام .

لوما تقتديان بالطبيعة والفطرة ، فتكون فى أخلاقكما رقة النسيم وشدة الأعاصير وهدوء البحر وعنفوانه وزرقة السماء الحالمة وصخب الرعد المدوى . فأما العبوس دائما ، أو اللهو دائما ،ففيهما الشقاء والنصب :

أما أخو الجد الدائم فحسبه ما قدم من تزمت وانقباض ، وليفتح عينيه على الجمال ، وليأخذ بقسط من المرح ، من هزله لجده ، ومن لهوه لنشاطه ،ومن الأطراق والكآبة إلى الضحك والتفاؤل : وليبسم كما تبسم الزهور النضرة ، ويضحك كما تضحك الأقحوانة الندية وليغرد كما يغرد الطائر الشادى ، ففى تنوع حياته ما يحفزه على العمل ، ويحول بينه وبين السآمة والملل ، ويحفظ عليه صحته وشبابه، وعزيمته وقوته. وهل الكآبة والحزن إلا يأس من روح الله ، يئدان الشعور فى النفس ، ويعكسان الأوضاع فى العقل . ويقلبان المعانى فى الروح . . بحسبه ما مضى ، فان المنبت لا أرضا قطع ولاظهرآ أبقى ،

وأما الآخر حليف اللهو وفتى اللعب ، فليعلم أن الحياة شائكة ، تقبل ثم تدبر ،وتبشر ثم تنذر : وفى إقبالها خديعة ، وفى إدبارها فجيعة ، ليأخذ من نفسه لنفسه ، وليتزود من يومه لغده . وليندب نفسه لعظائم ومحامد الأخلاق ومكارم المثل ، وليترك لهوه ومجونه ، وعبثه وفتونه ،

قبل أن يقع فريسة فى يد الأحداث والغير ، فيخر صريعاً بين ناب الليث والظفر

إن النفس المترفة إذاوقعت فى ريب النكبات كانت كالطفل الغرير فى فم أسد شديد ، لاعاصم منه ولا نجاة . والمترف الممعن فى ترفه ، يرقص على حافة بئر سحيق يوشك أن يهوى فى غيابته ، ويتردى فى ظلمته ، فلا يجد من ينقذه أبداً

لم تخلق الحياة ليعيش فيها المترفهون المتبطلون ، بل ليكدح فيها العاملون المجدون الساعون فى منا كبها

إن الترف من غرائز الأنوثة وسمات العجز والخور ، وداء شديد الوبال ، يدع صاحبه عاجزاً عن مقاومة الشدائد ، ومجاهدة الأهوال ، يائساً من روح الله ورحمته ، يعمه فى سكرته ، أو ينتحر من محنته ، أو يتدلى إلى حمأة الشر والرذيلة ، فيكون جرثومة فساد فى المجتمع ، ورسول شقاء إلى الأسرة وجناية سوء على الأبناء ولايزال الترف مهلكة للحضارة ، ونذير الشقاء للامم والجماعات والأفراد ، ولايزال الناس فى رحمة الله حتى يترفوا ، فيسقطوا فى هوة الرذائل، ويفقدواعنصر القدرة على الكفاح فى الحياة ، فيأخذهم الله بعذاب شديد ، ويصبحوا آية للمتوسمين ، وعظة للاجيال وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها ، فحق عليها القول ، فدمرناها تدميراً .

رويدك يا أخا الترف ، أقصر من عنانك ، وتبصر فى أمرك ، ودع هذه الحياة اللاهية ، وأقبل على الجد ، وانشط للعمل ، ففى ذلك يا أخى لك حياة ورضى وطمأنينة وخير

إن الاسلام ليحارب الترف والكسول والخمول ، ويحث على العمل والكفاح فى الحياة ، ويطالب بأن يعمل الانسان لدنياه كأنه يعيش أبداً ، وبأن يمشى فى مناكب الأرض ويأكل من رزقها وبأن ينتشر الناس فى الأرض ساعين مجدين عاملين ، ويوصى عمر بأن لا يقعد أحدعن طلب الرزق وهو يقول : اللهم ارزقنى وقد علم أن السماء لا تمطر ذهبا ولا فضة

ومع ذلك فانه يكره التشدد فى العمل ويوصى بالرفق والأناةوالقصد فى كل الأمور . . .

الاسلام والسلام

إن السلام ـ فى رأى الإسلام ـ ضرورى للانسانية ، وتلك قضية لاريب فيها ، فالسلام هو أنشودة البشر ، وأمل الإنسانية ، لأنه ضرورى لتقدمها .

هو الذى يساعد على الإنتاج ، وعلى رفاهية الناس وتقدم التجارة والصناعة والزراعة ، وعلى نشر العلوم والفنون والآداب ، وعلى سير الحضارة والمدنية والرقى .

أما الحرب فتهدم ولا تنى ، وهى وسيلة للتدمير والتخريب ، تبعث على الذعر والخوف والاضطراب ، وتدع الملايين من بنى البشر فى شقاء وظلام ،وتحط من مستوى التفكير والعمل والنشاط بما تنشره من فزع وأحزان ، وتوقف سير المدنية وتعوق تقدم بنى الانسان .

وأنت ترى المفكرين ينادون بتحريم الحروب، وتوطيددعائم السلام.

بنزع السلاح ، وتحريم شن الحروب ، وبالعمل على توثيق الروابط الفكرية والاقتصادية بين أمم العالم ، وعلى إيجاد أخوة عالمية وزمالة إنسانية ، بل بإيجاد حكومة عالمية .

السلام هو المدنية والحضارة ، والحرب هى الدمار والخراب والسلام هو أهم عامل يساعد الانسان فى الحياة على التقدم ، والحرب أفظع ما شهده الانسان وخاصة فى العصر الحديث الذى كشف القنبلة الذرية الصاروخية وسواها من وسائل الافناء .

ولقد دعا الاسلام إلى السلام ، وحث عليه ، أوجب السلام فى المجتمع ، كما أوجبه بين الأمم والشعوب ، وحمل المسلمون رسالة السلام إلى الأمم والشعوب وبشروا بها الانسانية داعين إلى الرحمة والمحبة والتعاون والخير العام .

دين السلام والحرية

المؤمنون بالحرية هم أكثر الناس إيمانا بالسلام ، لأنه سبيل الطمأنينة والكرامة الانسانية . وليس يقدره إلا من قدر الحرية وأحبها وعرف أنها سبب العزة والحياة ، والتجديد والأمل .

وما أروع مواقف محمد فى الدفاع عن هذه المبادىء الكريمة ، وما أبقى على وجه الزمن دعوته إلى الأمن والوئام والشمم والإباء .

ومع أنه ولد فى أرض خضبتها الدماء ، فقد كان بطل السلام ، وداعيته الكريم ، حتى رأيناه يشترك صغيراً فى حلف الفضول ، الذى قام لنصرة المظلوم ، ورد الحقوق إلى أصحابها .. ورأيناه يقف حكما بين

قبائل قريش ، حاسما للنزاع الذى نشب حول بناء الكعبة، وأيها يكون له شرف وضع الحجر الأسود فى مكانه، فيسود السلام مكة برأيه وحكمته

كانت سياسته صلوات الله عليه اللين والشفقة والتواضع ، وتحيته : «السلام عليكم ورحمة الله» .. ولقد عاش مؤمنا بالرحمة والمحبة والتعاون والآخاء، فآخى بين المسلمين فى المدينة ، وقرر أن المؤمنين أخوة فى الدين وأن البشر جميعاً إخوان فى الانسانية ، والغى الحواجز والفواصل بين الأمم ونزل القرآن يؤكد أن هدفه تعارف الشعوب « وجعلنا كم شعوبا وقبائل لتعارفوا » . وكان السلام النفسى شعاره فى أحرج الأزمات ، أرأيته حين طارده المشركون فى « الطائف » ، كيف يلجأ الى ظل يستظل به ويتوجه إلى ربه : اللهم اليك أشكو ضعف قوتى ، وقلة حيلتى ، وهوانى على الناس يا أرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين ، وأنت ربى . إلى من تكلنى ؟ إلى بعيد يتجهمنى ؟ أم إلى عدو ملكته أمرى ، إن لم يكن بك على غضب فلا أبالى .

لم يمش محمــد إلى الحرب إلا دفعا للعدوان ودفاعا عن المظلومين ، وتأكيداً للسلام والحرية حتى وقف وهو حدث السن يذود عن حرية قومه فى حرب الفجار . . وحرم شن الحرب للسيطرة وبسط السلطان ، أو للفساد والاستغلال والطغيان ، ولم يجعلها وسيلة لنشر الدين ، بل تخذ سبيله الاقناع والبرهان « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ، وجادلهم بالتى هى أحسن »

وشريعة محمد التى نزلت عليه . وهى الاسلام ، اشتق اسمها من السلام، وغايتها اليسر والسهولة والتخفيف على الناس ، ويلخصها لقومه فى كلمة واحدة ، حين مشى أشراف قريش إلى عمه أبى طالب ، يشكون

ويضجون ، فقال له : « ياعم ، كلمة واحدة يعطونيها ، تملكون بها العرب وتدين لكم بها العجم » فقال أبو جهل : نعم وأبيك وعشر كلمات ، فقال: « تقولون لا إله إلا الله ، وتخلعون ما تعبدون من دونه » فسخروا منه وقالوا : أتريد أن تجعل الآلهة إلها واحدا ، إن هذا لشيء عجاب .

هذا هو محمد المبشر بالسلام ، والمشرع لمبادئه : فى الأسرة والمجتمع والأمة والانسانية وبين الانسان ونفسه . . أما محمد المدافع عن الحريات فان أمره لعجب ، أحب الحرية منذ طفولته ، ورثها عن قومه وبيئته ، ورباه الله عليها ونماها فى نفسه طبيعة الحياة فى وطنه ، فولد ونشأ كريما أبيا ، وفتى حرا عربيا ، ويتجلى تقديسه لها فى إبائه للضيم ، وغضبه للحق وإسراعه لنصفة الضعيف ، وفرضه الدفاع عن الوطن ، ومقاومة المعتدين والغاصبين ، وزياده عن شخصية الإنسان ، وحقوق المستضعفين الذين كان الناس فى عصره ينكرون أن يكون لهم حق فى الحياة ، كان إذا جلس فى المسجد فجلس اليه خباب وعمار وبلال ويسار وصهيب وأشباههم هزأت بهم قريش ، وقالوا : هؤلاء أصحابه كما ترون ، أهؤلاء من الله عليهم من بيننا بالهدى والحق ؟ لو كان ما جاء به خيرا ما سبقونا اليه ، ولو طردهم عنه لجلسنا اليه ، فأنزل الله تعالى ، « ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى ، يريدون وجهه »

وقرر محمد ، وحمى الحرية الشخصية ، وحرية الملك والمسكن والعمل والقول والاجتماع والفكر والعقيدة ، ووصاياه فى رعاية حريات الناس والجماعات والأمم وتهذيبه للضمير الإنسانى ليراقب سلوك صاحبه حتى لا يظلم أو يعتدى على أحد مضرب الأمثال . وجاءت معاهدته الأولى

مع يهود يثرب المخالفين له خير تقرير لحرية العقيدة والرأى وحرمة المدينة والمال ، كما يقرر الباحثون .

حمى محمد حرية المرأة والرجل والعامل والخادم والرقيق ، وألغى الرق البشرى ، وأبقى أسرى الحروب المشروعة فى نطاق واسع من الشرف والكرامة ، وحرر هو وخلفاؤه الأمم من العبودية والاستكانة ، وطالب الطغاة بأن يطلقوا لرعاياهم المروعين حريتهم، كما طالب المستضعفين بأن ينفروا من الذلة والهوان فقال : « من أعطى الذلة من نفسه طائعاً غير مكره فليس منى » ، وحرم الاستبداد والاستعمار واستغلال الشعوب، وهدم العصبيات والامتيازات الطائفية والعنصرية ، «فالناس سواء كأسنان المشط ، لا فضل لعربى على عجمى ولا لعجمى على عربى ، ولا لأحمر على أبيض ، ولا لأبيض على أحمر ، إلا بالتقوى والعمل الصالح» . وليس هناك شعب له حقوق فى السيادة أو الوصاية على غيره من الناس .

هذا هو محمد الداعى إلى السلم والحرية ، والذى لم يلبس مسوح السلام ليخدع الناس أو ليغرر بالشعوب ، والذى حطم الشرك والوثنية، وهدم عرش الطغيان والجبروت ، والذى دعا إلى عالم واحد ، وحكومة واحدة تؤمن بأكرم الأهداف ، وتخضع لأسمى المبادىء وتطبقها ، والذى نفخ فى أرواح المستعبدين : أن هبوا ، فهذا عصر جديد من الحرية والكرامة ليس هناك سيد ومسود ، إنما السيادة لله ولرسوله ولمبادىء الحق والعدالة والمساواة.

العلاقات الاجتماعية بين الناس

ورأى الإسلام فيها

عاشت الشعوب والجماعات من قديم الأجيال مغدى ومراحا لأولى

الآمال ، وذوى الطماح والثراء والسلطان .

ولقد جرت الحياة وجارت على هؤلاء القانعين فى مهد الضعة، والزاهدين فى نعيم المجد والسعة ، فأذلتهم لسورة القوة ، وذللتهم لشماس المال ، وراضتهم بأخذ السحر ، ونفثات البيان .

وهكذا تبسم الحياة لقوم ، وتعبس فى وجه آخرين : فلهؤلاء سطوة الجاه ، وروعة الأمل ، ونشوة الظفر والنصر ، ولأولئك شقوة العيش ولوعة الألم ، وجذوة الأسى والشقاء . وبين هذين حكمة القدر ، وعظة العبر ، وشرعة الحق ، وعدالة السماء .

لقد فطر الناس على إجلال القوة فى جميع مظاهرها وصورها : عبدوا الله لأنه القوى القهار ، وآمنوا بالرسالات والشرائع ، لأنها صوت ذلك القادر العظيم ، وقدسوا الفضائل لأنها وسيلة القوة التى يظهرون بها على عوادى الشر ، وعوامل الفناء ، وعظموا الأمراء ووقروا العظماء ، لأنهم ألوا المنعة والأيد ، وذوو الجاه والسلطان .

وربى الناس على هذه الفطرة ، فاستقرت فى روحهم هذه المعانى البعيدة ، وتخيلوها فى الأمور الروحية ، كما تمثلوها فى الأشياء المعنوية والمادية ؛ فأحبوا المال لأنه معنى من معانى القوة ، وفتنوا بالجاه والمنصب لأنهما مظهران من مظاهرها ، وسحروا بالجمال الأدبى لأنه لسانها الناطق ، وآيتها المبصرة .

أخذت الجماعات والشعوب هذه المعانى عن فطرة ، وعاش الناس بها فى الحياة رغباً ورهباً ، وكانوا لها من الخاشعين ، فأصبحوا مسخرين فى أيدى الأقوياء ، ولثروة الأثرياء .

فذو السلطان يستمد منهم قوته ، ويشيد بهم دولتـه ، ويظهر عليهم بصولته ، وبما فطرت عليـه نفوسهم من رهبته . والزعيم يرفع بالشعب زعامته ، فيحمله لغوب الجهاد ليجنى بهم لنفسه ثمرته . والأمير والحاكم والوزير : أبغير الشعب يمجدون ويسودون ؟ . وهذا الثرى المرح المختال، من ذا الذى كد ونصب فى جمع ثروته ، وإنماء ذهبه وفضته ، غير هؤلاء العمال والمساكين ؟

ضحايا بريئة ، ومستعبدون معذبون . وهكذا تظل الجماعات مركب الطامحين ، ومراد الطامعين ، وسلم المجد المرموق ، ومعراج الأمل المنشود، ومجاز العابرين من تيه الأمانى إلى أرض الحقائق .

ومتى أشعر الحاكم أو الأمير نفسه معنى العدل الاجتماعى ، وطبقه فى كل تصرف وكل حالة ،وشعر بأن السوقة والجماهير نفوس آدمية فى مستواه، وأنه مسئول عنهم ، وأنهم وهو سواء أمام الله والقانون والناس . كان فى ذلك سعادة وأمن ،وقوة وسلام ، فلن يقوم شعب أمر أمر زعمائه بالطمع والحرص والأثرة، وشقيت نفوس طوائفـه وجماعاته بالظلم والعسف والقسوة والاستبداد .

إن الديمقراطية الحديثة جعلت العبيد أحراراً ، فما بالهم يريدون أن يهبطوا بالأحرار إلى منزلة العبيد ، وقد سوى الإسلام بين الناس جميعاً، لا فرق بين غنيهم وفقيرهم وأميرهم وصغيرهم ، وعربيهم وأعجميهم . وفى ذلك الأخاء الصـادق ، والمودة الشاملة ، والتعاون الوطيد بين طبقات المجتمع ، حتى تجتمع على خـدمة الوطن والانسانيـة ، ورفع لواء الحق والسلام والحضارة .

الاسلام يحمى حريات الأمم والأفراد

— ١ —

كانت الإنسانية قبل بزوغ فجر الإسلام تتعثر بين وحشية ضارية ، وهمجية ضالة ، واستبداد مروع ، ومذاهب وعقائد باطلة ، وتقاليد وعادات بالية ، وكان الجهل والجمود والاضطهاد والاستعباد واستغلال الإنسان لأخيه الإنسان سنة الحياة، فحيثما وليت وجهك فثم الطغاة المستبدون ، والرؤساء الذين لا يؤمنون بحق الشعوب فى الأمن والحرية والحياة ، والأباطرة الذين يعيشون فى الأرض فساداً بالغزو والنهب والاستعمار .

فى جانب امبراطورية الفرس بعقائدها الوثنية ، ونظمها الإستعمارية، وسياستها المتعسفة ، وحكامها المتجبرين . وفى الجانب الآخر امبراطورية الروم الشرقية تثير الرعب والفزع فى الأرض ، وتنشر الفساد بين الناس والحرب مستمرة مستعرة بين الجانبين، يصطلى بجحيمها الرعايا الحائرون المفزعون . . فإذا تنقلت فى الأرض وجدت فى كل مكان وقطر الشقاء والخوف والفقر والظلم والطغيان . . ولم تجد حكمة الحكماء ولا فلسفة الفلاسفة شيئاً ، لأن الحكم كان للشهوة ، والسيادة كانت للضلال ، والحق كان للقوة ، والرأى لم يكن يستمع إلا من رئيس أو حاكم .

ولقد كان أرسطو وأفلاطون يقرران حرمان العمال والصناع من حقوقهم المدنية ، وكان الساسة والمفكرون فى روما يؤمنون بسيادة أمتهم ، وأن من الواجب عليهم إخضاع الدول لجبروتهم وحكمهم بالعنف

والقسوة ، وكان المشرعون فى أثينا ينظرون إلى الرقيق نظرتهم إلى الحيوانات العجماء ، وكانت المرأة تعيش مسلوبة الإرادة والحرية والإختيار فى كل مكان .

ورغم انتقال الإنسانية من مرحلة الوحشية إلى مرحلة البربرية ، ثم إلى مرحلة الحضارة ثم إلى عصور الرق فالإقطاع ، ورغم الديانات والشرائع السماوية والكتب الإلهية المنزلة ، فإن الحياة ظلت كما هى لا تتبدل ، والظلام ظل كثيفاً كما كان ؛ والذى بدل وغير وحرف إنما هو الحق وشرائع السماء .

فى هذا الجو الخانق ، والغيوم المكفهرة ، والضلالات والأباطيل والوثنيات، أرسل محمد صلوات الله عليه ، وأمر أن يبشر الناس كافة بالإسلام، وأنزل عليه القرآن الكريم هدى ونوراً ورحمة ، فأخذ يذيع الدعوة ويتلو الكتاب ويدعو إلى الحرية والسلام والمساواة ، ويسفه آراء الوثنية والشرك والبهتان، ويحارب الإستعباد والاستعمار واستغلال الإنسان لأخيه الإنسان، ويأمر بكل ما هو حق وخير وعدل ، ويناهض الأقيال المتجبرين والسادة المتكبرين ، والرؤساء المستبدين ، وينادى بحق العامل والفقير والمحروم والرقيق والمرأة ، ويحرم السلب والنهب واللصوصية والربا وأكل مال الناس بالباطل والفساد ، ويؤاخى بين الناس ، ويحبب فى التعاون والمحبة ،ويحطم العصبيات وحمية الجاهلية الأولى، ويلغى الفوارق بين الشعوب والجماعات.. وتألب دعاة الوثنية والباطل على الدعوة الجديدة، يحاولون وأدها بقوة السلاح، فانتصر عليهم محمد وأنصاره فى بدر. وفتحت مكة فدان العرب للإسلام ، وعرفوا أن لاطاقة لهم بحرب الرسول وعداوته ، وكثرت الوفود فى السنة التاسعة للهجرة ، وبعث محمد صلوات الله عليه رسله إلى ملوك الأرض

يدعونهم لدين الله ، فسار دحية الكلبي بكتاب إلى عظيم بصرى ليسلمه إلى هرقل فقيصر، وسار عبد الله بن حذاقة السهمى إلى كسرى ؛ وعمرو بن أمية إلى النجاشى ، وحاطب بن أبى بلتعة إلى المقوقس حاكم الإسكندرية ، والعلاء بن الحضرمى إلى المنذر بن ساوى ملك البحرين . وشجاع بن وهب الأسدى إلى الحارث بن أبى شمر الغسانى ، والمهاجر بن أبى أمية إلى الحارث ملك اليمن .

ثم مات محمد بعد أن أدى رسالة الله ، ورفع راية الإسلام فى الأرض وبلغ القرآن الكريم إلى الدنيا ، وبذر غرس الحرية والسلام والأخاء والمساواة بين الناس ،وأقام حكما صالحاً لا يمحى من الأرض،وجمع الأجناس والعناصر والألوان والشعوب فى ظل دولة ائتمرت بأمرها الحياة والوجود .

وكان خلفاء محمد مثلا عالياً فى احترام الحقوق والحريات وحمايتها والدفاع عنها ، أذاعوا كلمة الله والحق والهدى بين الأمم كافة ، ووضعوا أصون حضارة زاهرة باهرة عاش العالم فى ظلالها أجيالا مديدة .

— ٢ —

وفى القرآن الكريم دعوات عالية ، وأحكام مثلى لتخليص الإنسانية من الظلم والإستبداد والطغيان، إذ يقول الله تعالى فى كتابه الحكيم : «قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ، ألا نعبد إلا الله ، ولا نشرك به شيئا ، ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله ، فإن تولوا فقولوا شهدوا بأنا مسلمون » ، ويصور السادة الطغاة المفسدين فى الأرض تصويراً صادقاً فيقول : « ومن الناس من يعجبك قوله فى الحياة الدنيا ، ويشهد الله على مافى قلبه ، وهو ألد الخصام ، وإذا تولى سعى فى الأرض

ليفسد فيها ، ويهلك الحرث والنسل ، والله لا يحب الفساد ، «وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم ، فحسبه جهنم ولبئس المهاد » ، ويدعو إلى أخوة الجماعات الإنسانية لتعيش فى ظلال السلام والوئام ، فيقول : « يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ،وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا، إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، إن الله عليم خبير » ، ويؤكد أخوة المؤمنين فيقول : « إنما المؤمنون إخوة » ، ويطالب بالوفاء بالعهد واحترام الحقوق والجنوح إلى السلام ، إلا إذا نكث غير المسلمين فى عهدهم فيقاتلون ويشردون فى الأرض : « وإن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا فى دينكم فقاتلوا أئمة الكفر ، إنهم لا أيمان لهم ، لعلهم ينتهون » . . ولم يحارب الرسول اليهود فى خيبر وغيرها إلا لأنهم خانوا عهده ، وأرادوا قتله ، وحزبوا الأحزاب عليه .

وكان الرسول صلوات الله عليه مثلا أعلى فى المحافظة على حريات الناس وحمايتها ، وكان يأمر عماله باحترام حقوق الناس فى الحياة والأمن والكرامة ، ولو كانوا مخالفين لهم فى الدين ، حتى قال صلوات الله عليه : « من ظلم معاهداً أو انتقصه أو كلفه فوق طاقته أو أخذ منه شيئا بغير طيب نفسه فأنا حجيجه يوم القيامة » .

وكان عمر بن الخطاب يأمر عماله أن يوافوه بالموسم ، فإذا اجتمعوا قال : أيها الناس إنى لم أبعث عمالى عليكم ليصيبوا من أبشاركم ولا من أموالكم ، إنما بعثتهم ليحجزوا بينكم ، وليقسموا فيئكم بينهم ، فمن فعل به غير ذلك فليقم .

وكان يقول : من ظلمه عامله بمظلمة فلا إذن له على إلا أن يرفعها إلى حتى أقصه منه .

وقال لعمرو بن العاص واليه على مصر : « متى تستعبدون الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا » .

وكان يوصى ولاته على الأمم بالعدل بين الناس ، واحترام حقوقهم وحرياتهم .

وخطب مرة فقال : « اعطوا الحق من أنفسكم ، ولا يحمل بعضكم بعضاً على أن تحاكموا إلى ، فإنه ليس بينى وبين أحد من الناس هوادة » .

ولطم جبلة بن الأيهم ملك غسان رجلا من المسلمين فى الحج لأنه داس على إزاره . فشكا الرجل إلى عمر ، فطلب عمر القصاص من جبلة ، فقال جبلة : كيف ذاك وأنا ملك وهو سوقة ؟ فقال : إن الإسلام جمعكما وسوى بين الملك والسوقة ، ففر جبلة والتحق بالروم .

وكان عمر بن عبدالعزيز يبطل أحكام ولاته إذا رأى فيها ظلما للشعوب المحكومة ؛ خاصم عجم أهل دمشق إليه فى كنيسة كانت أخذت منهم ، فأخرجها عن المسلمين ، وردها إلى النصارى .

وشكا نصارى دمشق أن الوليد هدم كنيسة يوحنا وأدخلها فى المسجد فهم أن يعيدها إليهم لولا أن المسلمين صالحوهم .

وكتب إليه عامله على العراق : إن الناس قد كثروا فى الإسلام حتى خفت أن يقل الخراج ، فكتب إليه : والله لوددت أن الناس كلهم أسلموا حتى نكون وأنت حراثين نأكل من كسب أيدينا .

وكان ينوى أن يستدعى المسلمين من أرض الروم ، وأن يجلى العرب من الأندلس ؛ وكتب إلى عامله يأمره بإعادة من وراء النهر من المسلمين فأبوا ؛ وكتب إلى ملوك الهند يدعوهم إلى الإسلام على أن يظلوا ملوكا ،

ولهم ما للمسلمين ، وعليهم ما عليهم ، فأسلموا ؛ وكتب إلى ملوك ما وراء النهر يدعوهم إلى دين الله فأسلم بعضهم .

ووفد عليه قوم من سمرقند فشكوا إليه أن ابن قتيبة دخل مدينتهم وأسكنها المسلمين ، على غدر ، فحكم عمر قاضياً . فحكم القاضي بإخراج المسلمين . . . إلى غير ذلك من احترام الحرية ، وحب العدل ، والعمل بشريعة الله .

— ٣ —

إن المسلمين لم يفتحوا البلاد للاستعمار والسيادة ، والغزو والنهب ، فقد رأيتم كيف كانوا يعاملون غيرهم ، ويحترمون حقوقهم . ويحافظون على حرياتهم . وإنما دخلوا هذه البلاد هادين ، ودعاة مرشدين ، يقيمون العدل ، ويضعون الموازين القسط بين الناس ، ويحاربون الوثنية ، ويحطمون الضلال . . وكانت أمم كثيرة ترسل إلى قواد المسلمين ، ليدخلوا بلادهم ، وينقذوهم من الظلم والاستعباد والشقاء .

وكتب عامل لعمر بن عبد العزيز على خراسان : إنه لا يصلح لهذه البلاد إلا السيف ، فأنكر عمر عليه ذلك وعزله .

وكانت البلاد التي يحكمها المسلمون مثلا في النظام والأمن وانتشار العدالة والرخاء والرفاهية وحرية الفكر والعقيدة والرأي . . . ولم يكن المسلمون يمسون مرافقها الاقتصادية أدنى مس . . فأين هذا من استعمار اليوم ؛ الذي يحجر على الحريات ، ويعصف بالحقوق ، ويضيع الحرمات وينهب أموال الأمة بطرق مباشرة وغير مباشرة ، ويحاربها في قوميتها ودينها وأخلاقها ؟

— ٤ —

الإسلام هو حامى الحريات فى كل مكان ، وشرائعه أعظم ضمان لحق الناس فى الطمأنينة والإنصاف والمساواة والحياة .

وهو يحرم الحرب ولا يبيحها إلا دفاعاً عن دين الله ، بل إنه ينهى عنها ولو كانت بقصد نشر الدين ، ويحبب فى السلام والمحبة والتعاون والوئام .

وهذا الاستعمار الغربى الحديث إن هو إلا لصوصية ونهب وفساد ، وقتل للشعوب ، وإفناء للجماعات ، وحرب على السلام ، وإجاعة للناس ، وبسط للنفوذ والسلطان على حساب الضعفاء . . وهذا كله هو ما لا يعرفه الإسلام ، بل إنه ليحاربه ، ويطالب بتحطيم كل من يعمل له أو يساعد على نشره .

والمسلمون لهم العزة والكرامة والسيادة فى الأرض ، وهم الذين نصبهم الله حماة لشريعته ، وأهلا لخلافته ، وأحقاء بكرامته ، ولم يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا ، فهم أجدر الناس بحياة الحرية والكرامة .

وكل قضية من قضايا الحرية فى الأرض ، هى قضية الإسلام ، الذى يدافع عنها ، ويؤيد حقها ، ويذود الباطل عن حياضها ، فما بالنا إذا كانت هذه القضية هى قضية المسلمين .

إن المستعمرين خارجون على القانون السماوى فى نظر الإسلام ، وهم أولى الناس بحرب المسلمين لهم ، وصدهم إياهم ، مادام هؤلاء المستعمرون يحملون السلاح لتأييد باطلهم ، ونشر سلطانهم . . أما الذين يقيمون بيننا فى ظل حمايتنا من الشعوب ، فلهم الأمن والسلام والرحمة .

لقد أنهى الإسلام عهد الاستعمار البغيض من الدنيا ، ولم يعد هذا الاستعمار إلى الحياة ، إلا بعد أن خالف المسلمون شريعة الله ، وتركوا سنته .

فليزل الاستعمار من الوجود ، وليذهب إلى غير رجعة ، وليترك الشعوب حرة آمنة . . فذلك حكم الله والعدالة ، وهو ما يدعو إليه الإسلام الكريم .

الإسلام يوجه العقل البشرى

دعا الإســـلام العقل البشرى إلى حب المعرفة ، وغذى ضمير الإنسان بحب الخير والرحمة والبر والسعادة والرفاهية لبنى الإنسان جميعا ، ووجهه إلى ما فيه تقدم الإنسانية جمعاء .

دعا الإسلام إلى العلم ، لأنه منذ أقدم عصور التاريخ ولا يزال رافع منار المدنية ومشيد مجد الشعوب ، وغذاء العقول والأرواح ، والدواء الناجع لأمراض النفوس والجماعات ، إن حرصت على استخدامه فى سبيل الخير ولتأييد نواميس الله فى الكون والحياة .. وهو الداء المبيد ، والسم القاتل ، إن استخدم أداة للفتك والدمار .

لا عجب فالعلم كاشف أسرار الحياة ، ومغاليق الكون ، وأسباب الثروة ، وبه تسعد الإنسانية ، ويبسم الأمل للناس.. وما هذه المبتكرات فى الصناعة والتجارة والزراعة والعلوم والفنون إلا ثمرة من ثمار العلم .. الذى قد يصبح وبالا على الإنسانية والشعوب ، حين يكون وسيلة لاختراع المفرقعات والمدمرات والقنابل والمدافع ، وما إليها مما يعم شره وهلاكه ولا يخص أحدا من الناس . ومهما كان فإن العلم اليوم ـ فوق استخدامه

وسيلة لكسب الحرب وإشاعة التدمير والهلاك — يوفر الأدوات فى شتى مرافق الزراعة والصناعة والاقتصاد ، وهى تقوم مقام عـــدد كبير من العمال .. وبذلك يتسبب فى خلق مشكلة البطالة ، وحرمان كثير من العمال من الرزق .

والعلم على أى حال محمود لا يذم ، محبوب لا يكره ، لأنه خير فى ذاته ، وآثاره الخيرة الجميلة لا تعد ولا تحصى ، ولن يغض من شأنه ما يقوم به العلماء من ابتكار آلات الشر والتدمير والإهلاك .

وإن الإسلام ليقف حارسا للعقل البشرى ، يوجهه ويهديه ، يوجهه إلى الخير ، ويبعده عن الشر ، ويدفعه إلى أن يفكر فى كل ما يعود على الإنسان والإنسانية بالسعادة والرفاهية ، ويحول بينه وبين أن يكون أداة لشقاء بنى الإنسان .. إن النور يضىء ، فإذا انقلب نارا أحرق ودمر ، وإن العقل يبتكر ويفكر ، فإذا اندفع إلى التفكير فى الشر أهلك وأفسد . وإن الله هو صانع الحياة ولا يحب أن يدمرها إنسان . .

ولقد كان المسلمون فى جميع العصور يخضعون العقل للضمير ، ويوجهون العلم للخير ، ولنفع بنى الانسان ، ولخدمة الجماهير ، ولأسعاد البشر .. وكانت حروبهم لا تعتمد على السلاح الفاتك ، ولكن على الأيمان العميق .. وبذلك لم يسعوا يوماً فى التدمير والفساد فى الأرض ؛ بوازع من دينهم الكريم .

الإســــلام والمجتمع

الدين علاج هذا المجتمع المريض

تؤمن الأمم الراقية بماضيها فتجعل مفاخره أنشودة يرددها الكهول والأطفال ، وجلاله حمى يحافظ عليه الساسة والأبطال .

ثم توثق الصلة بين ماضيها وحاضرها فتنسج حول تقاليدها وعاداتها سياجا من التقدير والإجلال ، وتمهد لها بين أحضانها سبل الحياة والبقاء، محافظة على ترات السلف، وآثار الأقدمين

أما مصر فلا تلمح فيها إلا حربا شعواء على القديم، وتمردا عنيفا على الماضى المجيد،وإيثارا للتجديد بالتقليد .. رأت الغرب فأكبرته، وأبصرت مجده وقوته فشايعته ،وخالطت الغربيين فقلدتهم ، وقالت : مالى وللقومية والقوميين والماضى والماضين ؟

أرأيتها وقد تنكرت لقديمها فنسيته ، وخرجت على دينها فهجرته . وعبثت بقوميتها فحطمتها . وتهاونت بتقاليدها فتركتها ؟

ماذا جنى الماضى حتى ننسى أيامه . وما وزر القومية حتى تضيع بين الجحود والاهمال ؟

تلك هى الفتاة السافرة ! أودى بها السفور إلى مهاوى الشقاء.. وهذه هى الشبيبة الناضرة أمات ضميرها إغراقها فى الأهواء .

وهذه الأمـــة تريد أن تطير إلى العلاء ، فيأبى عليها جناحها المقصوص ما تشاء

هذا هو المجتمع المصرى يئن من ذوق مريض ، وخلق مهيض ، وقومية محطمة ، لا تقوى على البقاء .

دعونا لتعزيز الشباب بالدين ، ودعم الشعب بالخلق ..فثار المضللون وقالوا : دون ما تطلبون السماء .

وقلنا : امزجوا التشريع المصرى بمفاخر التشريع الاسلامى ، وبددوا هذه الظلمات بمصباح الهدى والرشاد، فقالوا : هذر وهراء .... فسبحانك يارب الأرض والسماء .

هذا وحى الاسلام ما زال يا قوم يخفق فى قلوب المسلمين ، وصوت الايمان ما زال يرن فى أذن المصريين ... فاتركوا هذه الضلالات .

ألم يروا موسولينى من قبل وهو يدعو شعبه باسم الامبراطورية الرومانية إلى المجد ، وينفخ فى أمته ببوق الماضى روح الجد والعلاء .

ثم ألم يسمعوا رئيس أساقفة كنتربرى وهو يحذر صاحب الجلالة ادورد من أن يخرج على الدين ؟ فنزل عن العرش إجابة لداعى التقاليد والعادات .

تلك وسواها مثل عليا لتمجيد القومية، فهل من مذكر ياطلاب العلياء ؟

ما التجديد العصرى الذى نعيش فيه ويدعون إليه؟ إنه تقليد للغرب، وفناء للطابع المصرى الموروث عن الأجداد والآباء .

المجتمع مريض فأين الاساة ؟ هذه قوميتنا وذلك ديننا فيهما الدواء ومنهما ينبثق الشفاء .. يا باعث النهضة شيد النهضة على دعامة وطيدة من الأخلاق . . ويا قائد الوطن هذب الشباب بتعاليم الدين . ففيها الحياة .. وهذا الوطن وديعة فى يديك ، وتلك النهضة أمانة فى عنقك

إن الدين كما يقرر « بيير جانيه » كان الوسيلة للمحافظة على الروابط الاجتماعية فى الأمة ، وإن أكبر خدمة قدمتها فكرة الوحدانية هى

توحيد القضاء بين قبائل كانت تتطاحن فصارت تتضامن ، وجاء الدين بفكرة الأخوة ، وقال برابطة أوسع من رابطة الدم

ويعتقد جانيه أيضاً أن الدين جاء ليعوض نقصاً فى الحب ، وقال: إن الحب عند رجل الدين هو شيء فى أعمق أعماق أنفسنا، وهو أساس الكائن، والصوفية تنادى باستمرار : أحب ثم أحب ثم أحب .

إنه إذا كان الدين كما يقرر الباحثون رمز الحب الخفى وتحول للشعور نحو الصلة الطبيعية التى تربط بين الافراد ، فعلينا أن نرعى هذه النزعة وأن ننميها وننظمها .. ويجب أن يكون بعث روح الإيمان هو الغاية التى يرمى إليها المعلم، فى الأمة التى تبحث عن سبب للنهضة والحياة والتقدم ..

☆ ☆ ☆

إن ظهور شخصية الأمم فى جميع مرافق الحياة ، وسائر نواحى النشاط المادى والأدبى والثقافى ، أهم ما يلزم لها فى حياتها .. والأمم الفتية التى تسود فى حلبة الشعوب ، هى التى تستمد شخصيتها من تاريخها وعقائدها وميراثها الروحى الطويل الذى عمل فى تكوينها على مر الأجيال والقرون

ومن بواعث الأسف أن يكون اتجاه كثير من المفكرين فينا ، إلى أن نترك ماضينا الطويل ، ومقوماتنا المصرية العربية الاسلامية ، وأن نفنى فى الغرب ، ونستضىء بنوره .. إن كانت المادية والخلاعة والإلحاد تسمى نوراً .

هؤلاء هم بعض إخواننا، الذين يرمون الوطنية المصرية بسهامهم، ويحاربون الشخصية القومية بكل جهدهم ، ويريدونها إباحية ماجنة ، ويسارية محطمة وخلاعة آثمة ، وفناء فى الغرب ما بعده من فناء

إننا ندعو كل مصرى إلى أن يعتز بدينه، ففيه له الخير والفلاح، وإلى أن يعتز بوطنه وقوميته، وإلى أن يعتقد أنه كان معلم الشعوب وأستاذ الأمم، وأن بذور الحضارة العالمية إنما هى من غرس يديه، وأن المدنية العالمية كانت فى القديم تفتخر بالانتماء إليه.

إن ديننا لهو جماع الخير والفضائل، ومصدر الخير والعزة والقوة، وراعى الحرية والكرامة.. فلنعتز به يعزنا الله.

الاســـلام والمبادئ الهدامة

تسألنى عن رأيى فى موقف الأزهر وواجبه حيال المبادئ الهدامة التى تنشر دعاياتها السامة فى مصر والشرق العربى، والتى تريد تدمير كل ما يعتز به الشرق الاسلامى من تقاليد ونظم ومقومات، سواء فى ذلك الصهيونية والمادية والشيوعية وكل ماهو متطرف من المبادئ والأفكار والنظريات.

ورأيى أن قيام الأزهر بإداء رسالته الثقافية والدينية والروحية فى مصر والشرق الإسلامى، أداء كاملا، كفيل بأن يقضى على كل خطر قريب أو بعيد، وأن يعيد ثقة الناس، وإيمانهم العميق بالإسلام، إلى ما كان عليه.

فالدين الإسلامى فى جوهره، شريعة النظام والسلام والوئام، ودين الحرية الشخصية والأمن الاجتماعى والاخاء البشرى، وهو من أجل ذلك يحارب الفوضى والاضطراب والشقاء، ويحارب الطغيان والإرهاب وكل ما يحول دون تمتع الفرد بحريته والمجتمع بأمنه والبشرية بالسلام والاخاء المنشودين.

والدين الإسلامى فى اشتراكيته العادلة ، ومبادئه السمحة الواضحة، وفى عمله على النهوض بالمجتمعات والشعوب فى ظلال التعاون والمحبة ، وفى رعايته لمصلحة الفقير والغنى جميعا ، وفى وضعه للمبادئ العامة التى تكفل للانسانية الأمن والتقدم والرقى؛ ذلك الدين هو العلاج الأول والأخير لكل ماجد من متطرف الآراء والمبادئ التى تعمل للهدم قبل أن تعمل للبناء والتعمير

وقيام الأزهر بنشر رسالته التى هى فى صميمها رسالة الإسلام الكريم، دواء ناجع للقضاء على أمراض وجراثيم هذه الدعايات السامة، إذ ستكون مبادئ الإسلام ومقاصده الانسانية موضع الطمأنينة الروحية والرضاء النفسى ، فى نفس العامل والفلاح والتاجر والصانع والموظف والحاكم والمدير والوزير والأمير، وفى نفس كل إنسان يؤمن بشريعة الإسلام دين البشرية الخالد، مما سيكون ذا نتائج خطيرة فى توجيه الحياة فى الشرق الإسلامى ، وفى خلق جو جديد ترفرف فيه أجنحة السلام والاخاء والحرية ، والحضارة والنور والعلم والعرفان.

قووا الأخلاق بالدين

الأخلاق كلمة عظيمة ، تسرى بالعقل الإنسانى إلى مواطن الشرف والكرامة والعزة

هى تلك القوة العظيمة التى تحيى الهمم فى النفوس ، وتبعث النور فى الأرض .

هى هذا الملك القوى والسلطان العظيم ، الذى يحارب الضلال والشر

وينشر راية الحق والفضيلة ، ويرفع أعلام الخير والعدالة .. هى الروح الأمين ينزل على الإنسان فيصله بربه، ويهديه بقلبه إلى كل صالح وجليل

هى هاته القوة الصادرة عن النفس المنبعثة من القلب التى توجه عمل الإنسان إلى ما يراه خيرا وكمالا وحسنا وجمالا .

هى هـذا الحارس القوى الذى يفتح للنـاس الأبواب لـكى يدخلوا منها إلى حقائق الفضيلة ، ومجالى الخير والسمو

هى رأس مالنا الذى نربح به كثيرا ، وندرك به آمالنا فى الحياة ، وهى أساس حياة الأمم ومجد الشعوب

وانما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن همو ذهبت أخلاقهم ذهبوا

فما سعادة الأمم ـ كما يقول أحد الحكماء ـ بكثرة أموالها . ولا بقوة استحكاماتها، وإنما سعادتها بأبنائها الذين تثقفت نفوسهم ، وبرجالها الذين حسنت تربيتهم . واستنارت أبصارهم واستقامت أخلاقهم . ففى هؤلاء سعادتها الحقة وعظمتها الصحيحة .

وبمقدار ما يسود العالم من أخلاق فاضلة وعادات صالحة وخصال طيبة وأعمال شريفة ، يكون رخاؤه وسعادته وأمنه وطمأنينته

إن الضمير هو الرقيب على أعمالنا، وهو المقياس على صلاح أو فساد أخلاقنا . هو الذى يرغبنا فى الخير ويحذرنا من الشر .فإذا قويناه بالدين ، ونميناه بالعلم والتهذيب والثقافة ، قادنا إلى الخير وإلى الحق والفضيلة،وإلى سعادة الدنيا ، وشرف الآخرة .

فلنعتز بالأخلاق ، ولنتبع أسلافنا،ولنهتدى بهدى ديننا ، ولنوقظ فى

فى نفوسنا الضمير ،ليؤجج فيها شعلة الخير ، وليدفعنا إلى الطريق الواضح ، والعمل الصالح ، والخلق الكريم .

فبذلك نحوز رضاء الله ومحبة الناس ، ومجد الدنيا وكرامة الآخرة .

الشباب والمثل العليا

الشباب فى مصر دعامة النهضة ، وقوام حركة البعث والأحياء ، والمنادون دائما بحق الوطن والعروبة والشرق فى الحرية والشرف ، وهم القادة للثورات الأدبية والاجتماعية والسياسية ،وعنوان الرأى العام المثقف المستنير المثوثب المتطلع لمجد الحياة وعزتها .

بجهود الشباب انتصر الوطن فى معارك الحرية ،وقامت معالم نهضته الاقتصادية الوثابة، وسارت حركة الاصلاح والتجديد فى مصر خطوات واسعة جبارة ، وعلى سواعدهم الفتية ترتفع صروح النهضة الاجتماعية التى تبشر بالخير الكثير . . ومرافق البلاد العامة مدينة لنشاطهم وتضحياتهم، وحياتنا الأدبية تنمو وتزدهر بفضل الشباب وما يبعثون فيها من حياة . ومن حق الشباب أن يعترف الناس بفضلهم ، وأن يفسح لهم الشيوخ دائما طريق العمل والجهاد ، وأن يلقوا من التشجيع والعطف ماهم جديرون به وبأكثر منه. ولكن الأثرة تدفع الكثير من شيوخنا ـ عفا الله عنهم ـ إلى محاربة كل مايؤمن به الشباب من أفكار وآراء ومثل ، بل إلى محاربة الشباب أنفسهم فى حياتهم ومستقبلهم وكل ماهو عزيز على الناس والانسانية .

أولى بنا أن نؤمن بأن الحياة الانسانية تعاون مستمر، وأن الناس أسرة واحدة: لصغيرهم العطف والرعاية والتهذيب والتوجيه ، ولكبيرهم

الاحترام والتقدير والتوقير . وأن على كل إنسان أن يناضل فى ميدانه مع ارتباط الجميع بنظام واحد ، وشعورهم شعورا واحدا ، وأن تكون مقومات حياتهم الأدبية والفكرية والاجتماعية متحدة النواميس والاتجاهات والأهداف.. وذلك نفسه هو مايدعو إليه الاسلام دين البشرية الخالد .

أيها الشباب: آمنوا دائما بالمثل العليا للحياة ، التى أتى بهـــا الاسلام الكريم،فالذين يشرفون على أقداركم ومستقبلكم يرون أن يحولوا بينكم وبين أن تنالوا حقكم الكريم فى الحياة، وموجة الزحام فى موكب الحياة تقف سدا منيعا أمام الكثير منكم حين يخرج إلى ميدان الحياة العملية . فاذا ماكنتم أقوياء بروحكم وخلقكم علمكم وبإيمانكم الوثيق بأنبل مافى الحياة بل مافى دينكم الكريم من موثل وأفكار ، وبعملكم بهذه المبادىء ولهذه الغايات والمثل ، وبجهادكم الدائب للنهوض بأنفسكم ومجتمعكم ووطنكم، وبسعيكم المستمر لتكونوا شيئا مذكورا فى الحياة .. إذا ماكنتم كذلك، فستنتصرون حتما فى معركة الحياة ، وستدركون آمالكم الشريفة الرفيعة فيهـا .

جاهدوا جهاد الأبطال ، لتجعلوا حياتكم كريمة عزيزة قوية ،واقتدوا بمن سبقكم من عصاميين وعبقريين ، شقوا لأنفسهم طريق الحياة ، وبنوا مستقبل بلادهم وشعوبهم لأجيال مديدة .

إنكم فى نضرة الشباب ، وريعان الصبا ، فاذا عليكم لو دأبتم على واجبكم المقدس فأديتموه كاملا ، وقضيتم كل دقيقة من أوقات حياتكم فيما ينفعكم وينفع الناس... إن الحياة للأقوياء،ولم يعد هناك ـ بعد أن كادت

تنهار صروح الأخلاق والفضائل — موضع لكمات العدالة والرحمة والايثار.
فاعملوا وكافحوا ، وستنتصرون باذن الله فى الميدان.

آمنوا بالله وبدينه، وبالمثل العليا للانسانية، وبكل ماهو جميل ونبيل فى الحياة . . والله معكم ولن يتركم أعمالكم

الاصلاح الاجتماعى فى الريف

يبدأ من المسجد والمدرسة

فى هذه الأحداث العاصفة ، التى تغشى ظلماتها العالم كله ، ترتفع فى أفق الحياة المصرية صيحة الاصلاح الاجتماعى ممن أشربت قلوبهم حبه ، من قادة هذا البلد ومفكريه ، الذين يؤمنون بأن الحاضر يجب ألا يلهينا عن المستقبل وأن أعباء اليوم الفادحة لايجوز أن تنسينا تبعات الغد المرتقب ، الذى تتطلع اليه بلادنا الفتية الطامحة ، لتتبوأ مكانها الرفيع بين الأمم العظيمة ، التى تحمل مشعل النور والحضارة والديمقراطية .

ومن بشائر الخير أن تسير دعوة الاصلاح اليوم بخطوات عظيمة سريعة إلى غاياتها المنشودة ، مما يبشرنا بعهد جديد تحيا فيه أمتنا حياة القوة والفضيلة والعزة والسلام

وليس عجيبا أن تؤتى هذه الدعوة أكلها فى الغد القريب ، فقد حمل أعباء رسالة الاصلاح الاجتماعى قائد محب للاصلاح ، غيور على مصالح وطنه وأمته، دائب السعى فى كل مايعود على الحياة المصرية بالنفع والخير، ولازال يسير بسفينة الاصلاح — على هدى وبصيرة — إلى شاطىء التوفيق والسداد ، وينفخ

فى شعلة النهضة من روحه المؤمنة بمجد الوطن وعظمته ، إيمانها بدعوة الاصلاح ورسالته ... والريف من غابر الزمن يتطلع إلى يد الإصلاح تشق دروبه ، وتضىء مسالكه ، وتنقذه من الظلام والأهمال والفوضى ، وتدفعه إلى الأمام : ليتعاون مع بناة النهضة ويمشى فى قافلة الحياة ، ويشعر بكرامته على الدولة ، وأهميته فى المجتمع ، وحقه على الشعب .

لا يصح فى العهد الذى ننشد فيه لوطننا العظمة والقوة والمجد أن نترك ثلاثة أرباعه مثقلا بأعباء المرض والجهل والفاقة .

ولا يصح فى عصر المدنية والنور أن يقيم الريف على بداوته وسذاجته وأميته ، كما كان منذ مئات السنين — لا تشع فى جوه أضواء المدنية ، ولا تشرق فى آفاقه أطياف السعادة ، ولا تبسم فى أرجائه وضواحيه نضرة الحسن ، أو اشراقة الجمال .

فنى عهد المساواة الاجتماعية ، يعيش الريف المصرى بين المدن المصرية محروما من رحمة الاصلاح ، يائسا من روح المدنية ، فماؤه الآسن ، وليله الداجن ، وعيشته الخشنة القاسية ، وطرقه المعوجة وحاراته الضيقة وبيوته الخاشعة التى تتجهم لها الحياة ويطيف بها شبح البؤس والشقاء هى كما كانت بالامس ، وقبيل الأمس ، لم تمتد اليها يد الانقاذ ، ولا غشيتها ملائكة الرحمة ، ولا حفلت بها أسباب الصحة والعمران .

ما أجدر الريف بالاصلاح وما أبطأنا عنه . . حرى بنا أن تتضافر

الجهود وتتعاون العبقريات،على النهوض به، فإن ذلك سبيل النهوض بالأمة وخلقها خلقا جديدا.

نحن فى عصر نسعى فيه لاستثمار جميع ثرواتنا الاقتصادية، ونكاد نطير بشراً إذا عثرنا على منجم من حديد أو ينبوع من بترول . ونحن مع ذلك نترك الريف يتعثر فى ظلام الحيرة ، ويتردى فى مهاوى الفاقة .. لم نحرص على استثمار مواهب أبنائه ونشاطهم استثمارا صالحا يتلاءم وما نطمح إليه من غايات عظيمة لهذا الوطن الذى نقدسه ونفديه .

إى وربى لقد تجاهلنا شأن الريف، وتناسينا أنه يد الأمة وساعدها القوى . وأنه مصدر ثروتها وعماد نهضتها، والمنجم الذى نستمد منه المال والرجال والحياة .

كم فى الريف من عبقريات لم نكشف عنها صدأ السذاجة . ولم نغرس فيها حب الطموح والاقدام.. فخبا ما أودع فيها من وحى وإلهام ،ولعلنا نجد فيه — لو عنينا به — من العبقريين من يهز ذكره الدنيا ، ويناوىء مجده الخلود .

ما أصدق الشاعر الانجليزى توماس جراى فى كلمته الخالدة عن الريف: « لعله يرقد فى هذه التربة المهملة قلب كان بالأمس مفعما بروح سماوى، وأيد كان فى مقدورها أن تهز صولجان الملك ، أو تحرك قيثارة الشعر بألحان الخلود » .

حاجة الريف إلى الاصلاح ، وحاجتنا إلى إصلاحه ، وجدارته بأن نجد فى إنقاذه ،مما لا ريب فيها ، فهل من سبيل إلى الاصلاح، نمشى فى مناكبها، لنقيم ما قعد به الزمن ، ونرفع ما وضعته الأحداث .

نعم .. هذه سبل الاصلاح أدعو إليها على بصيرة ، غير يائس من أن نرى فى المستقبل القريب حركة النهضة فى الريف مثمرة مزدهرة، فانه لا يأس مع الحياة ، ولا حياة مع اليأس ، وإن هبوط مستوى الحياة فى الريف لأعظم حافز لنا على الحزم والجد فى إنهاض الحياة الريفية من جميع نواحيها الروحية والاجتماعيـة والصحية والاقتصادية والخلقية والثقافية ، ليكون الاصلاح عاما شاملا،حتى تجتمع لقرانا المصرية جميع أسباب القوة والحياة .

لنوجه عنايتنا إلى مسجد القرية ومدرستها ، فنختار لهما الأكفاء من الرجال، الذين نشأوا نشأة قوية . فآمنوا بالواجب ، وشعروا بالتبعة، وتفانوا فى نشر مبادىء الثقافة والاصلاح بين إخوانهم الريفيين ، تفانيهم فى القيام بأعباء الخدمات الاجتماعية الجليلة .

وليتعاون شباب القرية المثقف مع المسجد والمدرسة فى أداء هذه الرسالة وتوجيهها ، ليشعلوا فى قلوبهم نارها ، وليظلوا دعاتها وأنصارها ، حتى تؤتى على مر الأيام ثمارها . ثم ليكثر الوعاظ والمرشدون الاجتماعيون من زيارة الريف ، وتعهد أموره ، وليعملوا على إيقاظ حياته الروحية والاجتماعية ، بما يلقون من محاضرات، حتى تختلط بنفوس الفلاحين بشاشة الايمان ، وتتجدد فى قلوبهم عظمة العقيدة ، وتقوى فى قلوبهم معانى المروءة والفضيلة ومخايل الطموح والأمل والقوة .

ثم لنحسن مع ذلك اختيار موظفى الريف عامة ، ولنراع فيهم ناحية الثقافة ، كما راعينا جانب الثروة، ولنوجههم توجيها اجتماعيا جديدا يحببهم فى العمل على إنقاذ الريف ، وتوفير وسائل السعادة له ولبنيه

وعلينا أن نرفع مستوى الحياة الاقتصادية فى القرية ، فانه لن ينهض فيها إصلاح إلا إذ بذلنا الجهود الجبارة فى تحسين حالة الفلاح الاقتصادية، فكثير من آلام الريف تعود إلى الفقر الجاثم فى ظلاله الحزينة الوادعة ، وما برح الفلاح المصرى يعيش فى ظلامه الحالك ، لا يشرق فى حياته شعاع من رجاء ، ولا تهب عليها نفحة من رخاء ، ولا زال يستغل أرضه كما كان يستغلها أجداده الأولون .

وعلى الحكومة وكبار الملاك وأعيان الريف أن يتضافروا فى سبيل الإصلاح الاقتصادى فى الريف، فينشئون فيه الكثير من جمعيات التعاون الزراعية ، التى تفتح للفلاح أبواب العمل وتخفض له نفقات الانتاج ، وترفع قيمة انتاجه الزراعى ، وتدأب على تركيز حاصلاته الزراعية ، وتتوسع فى زراعة شتى المحصولات، توسعها فى تشجيع الصناعات الزراعية الصغيرة ، وتقرض الفلاح ما يحتاج إليه من مال ، وتذلل له استثمار أرضه ، بإيجاد الآلات اللازمة له ، حتى يجد أمامه جزءا من الفراغ ، يقضيه فى تثقيف عقله ورياضة جسمه ، والعناية بصحته وأسرته .. وتنشر الحكومة مكاتب التعليم الأولى الصناعى والزراعى خلال الريف . ثم لتجعل عمليات التسليف الزراعية أكثر مرونة، وأجدر بتحقيق ما يرجى منها من غايات ... وهناك واجبان خطيران آخران :

أما أولها فرفع مستوى القرية الصحى بكل وسيلة وسرعة ، فقد أزف الوقت الذى يجب أن ننشىء فيه بكل قرية مستشفى يسهر على علاج الفلاح وإرشاده إلى الحياة الصحية الصحيحة الكفيلة بتكوين جيل

جديد ، يكون أقدر على الدفاع عن حرية الأمة وكرامتها وأداء رسالتها بين الأمم والشعوب .

وأما الآخر فهو إنشاء مجلس قروى فى كل قرية ، يتعهدها بالتنظيم والتنسيق ويقوم بأعباء الإصلاح فيها ، ويبث وسائل الصحة والعمران بين ربوعها، ويكون رسول السعادة إلى هؤلاء الريفيين البائسين .

إن دعامة الإصلاح هى أن نؤمن به وندعو إليه ونخلص فى الاضطلاع بأعبائه ، ونجد فى تحقيق ما نصبو إليه من أحلام، غير عابئين بما يصيبنا فى سبيلها من آلام ، ولا منتظرين ما يأتى به القدر ، وتسفر عنه وجوه الأيام. إن الزمن يطير بجناحى طائر، ولا يدب دبيب السلحفاة، فعلينا أن نهيء لوطننا مستقبلا أعز وأرفع من الحاضر والماضى، مستقبلا تحيا فيه القرية والمدينة معا على قدم المساواة والأخاء حياة القوة والسعادة والرخاء..
والمسجد والمدرسة فى القرية هما ركنان كبيران من أركان إصلاحها ، ففى المسجد تهذب الروح وتطهر الأخلاق وتوجه الشبيبة ..وفى المدرسة تربى أبناء المستقبل ، وينشأ الجيل الجديد للأمة . . ومن أولى من المدرسة بذلك ؟ أليست هى التى تنشر العلم والثقافة والمعرفة ؟ وتحارب الظلام والتأخر والجمود والانحلال والخمول والهمجية والفوضى ؟ وأليست هى التى تنشر الأخلاق والفضائل، وتدعو إلى النظام والعمل والكفاح والاتحاد، وتربى النشء والجيل الجديد للامة ؟ ثم أليست هى التى تخرج الزعماء والقادة ورجال الاصلاح والاقتصاد والسياسة وأقطاب الأمة ؟

نعم إن المدرسة مصنع يصنع تاريخ الأمة حقا ، لأنها تخرج هؤلاء الأبطال الذين يصنعون تاريخها ، وتربى النشء الجديد الذى يقوم على سو عده مجدها وجلالها وحريتها وشرفها وكرامتها . . وهى التى تصنع

الحضارة لأن أبطال الشعوب ورجالها هم خريجوا المدرسة الذين أدوا واجبهم كاملا نحو بلادهم والإنسانية عامة ، فوق أنها تحيي فى الأمة وفى أبنائها روح التقدم والحضـــارة والطموح والعمل ، مما يعد خير ذخيرة لتراث التقدم الإنسانى .

والعلماء الروحيون هم الذين يؤدون فى القرية واجب التثقيف والتهذيب والارشاد ، فى المساجد والمجتمعات العامة ، ويقومون بالصلح بين الناس ، وبتوجيه الفلاحين فى شئون دينهم ودنياهم ، وبمحاربة الأفكار الهدامة والمبادئ الفاسدة والآراء الزائفة ، وبالمساهمة فى حفظ الأمن بما لهم من نفوذ دينى روحى كبير .

إن الوسيلة لدعم القرية المصرية وإصلاحها هى أن تملأ الوظائف المتصلة بالقرية وفلاحيها بعلماء ممتازين ، يمكنهم إرشاد الجاهل ، وهداية الضال ، وتقويم المعوج ، وتهذيب الأخلاق ، وتثقيف العقول ، وإحياء الروح الدينى فى نفوس الشعب ، لأن ذلك وحده هو العلاج الصحيح لكل أمراض المجتمع وعلله وأسقامه .

الدين ومنع الحمل

قرأت ما نشر فى هذا الموضوع فى الصحف ، وإنى لأعجب من رأى الذاهبين إلى أنه غير جائز فى الدين ، وأن منع الحمل جائز للفرد ، وليس جائزا للمجتمع كله ، وهل يتكون المجتمع إلا من أفراده ؟ . على أنه إذا كانت هناك مصلحة تقتضى عدم جواز التفكير فى إباحة منع الحمل كقانون يمكن المجتمع العمل به ، فإن الذى يقدر هذه المصلحة هم علماء الاجتماع ، مادام

الأصل فى الحكم الشرعى فى الموضوع الجواز ، ومادام ليس فى منع الحمل جناية على النفس .

إنى أرى أن منع الحمل لايقصد به سوى رعاية مصلحة الأبناء فى المستقبل ، وتحسين نوع النسل ، ولا ينافى ذلك قوله ﷺ : تناسلوا تكثروا ،

بل إنى لأرى أنه قد يكون منع الحمل واجباً شرعا على الرجل والمرأة ، كما إذا كان أحد الزوجين مريضا مرضا خطيرا يورث أو يرجح انتقال عدواه إلى الأبناء : كالسل والجذام وسواه ، وكما إذا كان الزوجان فى ميدان القتال ولا يستطيعان أداء واجبهما فى الدفاع عن الوطن مع أعباء الحمل ومشقاته الجسمية والمالية وسواها . وقد يكون منع الحمل محبوبا كما إذا كان الزوجان مسجونين مثلا ويعلمان أن حياة ابن وليد فى السجن معهما غير متيسرة ؛ إلى غير ذلك من الحالات...

الزواج بين المادة والروح

ياهادى الطريق جرت : لقد ذوت الوردة الناضرة ، ودجت الآمال المشرقة ، وقرحت الجفون الغريرة ؛ ولبس هذا الجمال الساحر فى نضرة الشباب رداء المشيب .

كيف يغرك وسواس الذهب ، ويفتنك شيطان الطمع ، فتبيع هذا القلب الطاهر ، والشباب الناضر ، بثمن بخس ، وعوض زهيد؟ أتدائر بنتك ذئبا غادرا ، ووحشا ضاريا ، جعلته لها زوجا ، لأنه من الأثرياء .

لقد حكمت فيها الليالى بجورها
وحكم بنات الدهر ليس له رد

أى جناية على هذه الزنبقة الغضة أكبر من أى تحول بينها وبين سعادتها المنشودة ، وأن تعذبها بآمالها العذاب ؟

ليست المصاهرة حيلة لجمع المال ، ولكنها وسيلة لبناء الأسرة ، ودعم كيان المجتمع . وهى روح ألفة ومودة ، ووشيجة رحم وقربى ، وداعية إخاء وسلام :

تواصلنا على الأيام باق ٭ ولكن هجرنا مطر الربيع
معاذ الله أن نلقى غضابا ٭ سوى دل المطاع على المطيع

لقد عبد آدم وحواء الطريق أمام المرأة والرجل بالحب ، وسنا لهما على الأرض شريعة المودة والسلام . . فلنسر على هذا المنهج الواضح ، وتلك الشريعة الحكيمة: شريعة آدم وحواء

وليكن الباعث على الزواج والمصاهرة شريفا طاهرا منزها عن الأغراض والمادة . فيصطفى الرجل لبنته من يرى فيه الدين والخلق والعفة والشرف . ولينبذ المال وراءه ظهريا ، فالزواج إذا كان لأجل المال ، فأخلق بالبيت أن يشق ، وبالألفة أن تزول ، وبالأسرة أن تنهار . .

إن رأى البنت فى الزواج ضرورى ، وعلى الأب أن يكشف عن عواطف ابنته،ويتعرف ميولها،ويحاول تحقيق السعادة لها بكل مايستطيع

إن مجتمعنا المصرى اليوم جدير بالرثاء ،لأنه يعشق المظاهر الكاذبة الخادعة . فالأب إذا تخير لبنته لايتخير إلا ذوى الثرا. مهما كانت أخلاقهم ونفوسهم . ثم هو لايبالى أن يكون الزوج شابا أو كهلا أو وضيعاً أو خاملا مادام يقيمه الثراء ، ويسنده المال .

كأن الغنى فى أهله بورك الغنى

هو الدين والأخلاق والعلم والمجد

دون أن يرعى رغبة فتاته وإرادتها ، فهى مرغمة على مايريده الأب، مكرهة على مايرى .

هذا البنان المخضب ، والخد الأسيل ، والجمال الساحر ، والقلب الثائر؛ كيف يزف إلى هذا الزوج الكهل لماله ، أو إلى ذاك الأخرس المتبلد والذئب العاوى لأنه من ذوى الثراء ؟. لاشك أن الفتاة بعد قليل تصبح نفسها المروح شعاعاوهموما ، وعينها الطموح كلالا وقنوطا، وعقبةالجمال الفاتن أسى وشحوبا ؛ فينحل الهم جسمها ، ويبرى الداء عظامها ، وتصبح قلقة النفس ، مضطربة الأحساس والعاطفة ، متبرمة بعيشتها وحياتها ، نافرة من هذهالمشاركة الزوجية ... رحمة لها ؛ لقد أهمها ما أهمها، فأظلمت نفسهامن نورالأمل، وشعاعالرجاء

أما الزوج فيصبح مغلوبا على أمره ، ساكتا على دخن ، أوثائرا على بغض :

أبتغى إصلاح سمدى بجهدى

وهى تسعى جهدها فى فسادى

أو مذموما بريبة ، أو نافرا إلى طلاق ، أو مقتولا بهمه وأشجانه

والأولاد ما الأولاد ، والبيت ما البيت ، والوطن وماشكواه ، والمجتمع وما حاله .

سوأة لرأيك أيها الأب ، فقد هدمت بنيان الأسرة وسعادة المجتمع ، إذ نظرت إلى حطام زائل ، وعرض فان ، ولم تنظر إلى روح الدين،وشرعة الحياة، وسنة الاجتماع

وبعد فعظم الذنب لايقنط من الرحمة ، ولا يوئس من الاصلاح . وقصرى معك أيها الأب أن أبلغك هذه الآية الحكيمة ، ثم لتكن كيف شئت .. هما خطتان :

فإما طمع جاهل وتدبير قاصر ، يمعن فى كل ما يشتهى ، ويحرم الأمة ثمرة الأسرة المتعاونة والسلام الوادع الأمين ، فإذا الفضيلة غضبى ، والشرف صريع

وإما حكمة وحلم وحجا وأناة ، تردبها لابنتك أمنها وطمأنينتها وسعادتها ، وللأسرة هدوءها وراحتها ، وللأمة مجدها وهناءتها

فاختر بين الخطتين ، فإن لم تستبق الأولى ، فدعنى أختر لك الثانية ، لتتخذ بها يدا عند الله والوطن والناس أجمعين ؟

بين الشباب والشيوخ

طبيعة الوجود أن تتغير مظاهره ، وتتبدل معالمه ، وأن يختلف عليه الشباب والهرم ، لتكون فيه عظة للناس وعبرة ، وآية على حدوث الكون وفنائه ، ووجود الحق وبقائه

وجميع مظاهر الوجود خاضعة لهذا الناموس العظيم : فالزهرة تتفتح أكامها ثم يضوع شذاها ، ثم تذبل وتذوى . والشمس تشرق فى الأفق وليدة ، ثم تشب حتى تتكامل حرارة وضياء ، ثم تتوكأ على عصا الأصيل إلى أن يشيعها الغروب فى نهاية الأفق . وهكذا الحياة الأنسانية تسير من المهد إلى الطفولة ، ومن الشباب إلى الرجولة ، ومن الكولة إلى الفناء... حتى الحياة الاجتماعية ، والنهضات الأدبية والسياسية فى الجماعات والشعوب

تنمو ثم تنمو إلى أن تبلغ الذروة ، ثم تؤثر فيها عوامل الهرم والشيخوخة إلى أن تفنى وتزول .

تبارك الله ! ! نور وأفول ، ونور وذبول ، وصبا وقبول ، وشباب وهرم ، وصحة وسقم ، وقوة وضعف ، وعدل ولاحيف . هذه نضرة الشباب الساحرة ، وتلك روعة المشيب القاهرة . فما أبدع قدرته ، وأروع حكمته ! ! .

الشباب زهرة الحياة ، وربيع العمر ، وهو مزيج من الفتوة والقدرة والأمل والطموح ، والخيال والعاطفة .. والمشيب حكمة العقل ، وتجارب الأيام ، وهو مشوب بالعبر والعبرات والأشجان والذكريات . بل هو وليد العجز والوهن ، ونتاج اليأس والشجن ، وغراس الآلام والآمال ، وقل أن تمتزج سورة الشباب بحكمة المشيب ، أو تتحد حكمة المشيب بسورة الشباب

لو هدى الشباب بالحكمة ، وأيدت الكهولة بالقوة ، لاجتمع الخير الكثير للأمة والوطن .

إن الشباب خيال وأحلام وعاطفة وآمال . لم تصقله التجارب ، ولم تثقفه العبر ، والشاب مهما بلغ فى دراسته ، فلن يصل رأيه إلى رأى الشيخ فى حكمته . . والمشيب كله حقائق وتجارب ، وهو ترب الحكمة ، وخدين المعرفة وكنانة الرأى الصائب ، والقول الفصل ، والمشورة الهادية . خبر الحياة وخبرته ، وسبرها وسبرته ، وعرف كيف يوفق فيها بين حقائقه وآماله وعلمه وأعماله .

الحياة لا تسير بالعقل والمنطق ، ولكنها تمشى بالهوى والعاطفة ، ومهما حاول الشباب أن يخضع حياته لأفكاره ومثله العليا فهو لابد مخفق

مهزوم ، وهو مضطر إلى أن يكون آراء جديدة يؤمن بها ، ويظفر باتباعها في خوض معترك الحياة، وتكون مزيجا من التجارب والآمال والحقائق، وإلى أن يخطو هذه الخطوة الضرورية يكون قد بلغ من الكبر عتيا. فما أجدره أن يتعاون مع الشيوخ على خدمة الوطن والنهوض بالمسئولية، وما أخلقه أن لا يضيع عشرات من السنين ، يقضيها فى تجارب مستمرة، كى يؤتى بسطة من المعرفة والحكمة !! ليهتد بهدى الشيوخ ، وليقدر آراءهم الصائبة ، وليعمل معهم على تحقيقها ، فبهذا تنهض الأمة وتعز وتسود . فإن الأمة لا يمكنها أن تستغنى بقوة الشباب عن حكمة الشيوخ وحزمهم ، ولا بحكمة الشيوخ عن قوة الشباب وعزمهم

والأمة التى تريد أن تكتفى بما تسديه إليها إحدى الطائفتين، فتستغنى بها عن الأخرى، كالطائر ذى الجناح الواحد يريد أن يحلق به مع النسور ، فإن طار فقد هوى وهلك . محال أن تبنى نهضة الأمة على عزم ينقصه حزم ، أو حزم لا يؤيده عزم ، لأن النهضات لا تبنى إلا على أسس وطيدة من الصواب المحكم ، والعمل الجبار ، حتى لا تستطيع أن تظهر عليها عوامل الفساد والضعف والانحلال ، وإذا أردت أن تستغنى الأمة بالشباب عن الشيوخ فقد قطعت صلة الأمة بماضيها ، كما أنك لو استغنيت بالشيوخ عن الشباب فقد قطعت صلتها بمستقبلها .

أفلا تعجب من نهضة الأمة الإسلامية وقد بزغت فى أفقها شمس الوحى وأشرقت عليها هداية السماء، تلك النهضة الجبارة العظيمة التى بلغت فى ثلث قرن غاية ما يؤمل ويرجى؟ ثم ألا تسخر وتهزأ ببعض الأمم الشرقية الضعيفة، وقد خلفت قديمها التالد ، ومجدها الخالد ، ومظهرها الشرقى الجميل، فاستظلت بظل الغرب ، وفاءت إلى مدنيته ، وحاول شبابها المغرورون أن يخلقها

خلقا جديدا ، بعد أن شتت شيوخها وكهولها ، وتجافى عن آرائهم ، وجعل إلهه هواه ، فأصبح بناؤه على دعائم واهية تريد أن تنقض ، وستنقض مهما طال الزمن ، وامتدت الأيام ... وما أصدق مايقول شاعرنا صبرى رحمه الله :

أواه لو عرف الشباب وآه لو قـــدر المشيب

مسرح الذكريات

ذهبت إلى مدينة الأموات، زائرا مع الزائرين ،وطائفا من الطائفين ، أترحم على الأجداد ، وأستغفر للأخدان، الذين قضوا حياتهم، ولقوا ربهم، واستقروا فى سرمد الأبد ، وعالم الذكرى ، وحياة البقاء،فأدركتنى روعة ودهشة، هى روعة الحق، ودهشة الإنسان أمام آيات الله .

حدثتنى نفسى ، فأنصت لحديثها ، واستمعت لخطابها : مافائدة الحياة ؟ لقد آوى إلى هذا المكان الموحش والبقعة المقفرة أقوام كثيرون، سارت عليهم الأيام وطافت بهم الأعوام ، حتى عدموا الذاكر ، وفقدوا الزائر، وكثير منهم أدرجوا فى عالم النسيان ، وقليل منهم خلدوا مع الزمان ، وبقيت أسماؤهم تصرع يد البلى . وتتلى على مسامع الإنسان . . . لقد ذهبت سطوة المستبدين ، ودولة الظالمين ،وصارت حياتهم فى مهب الهواء، لجهلهم العالم ونساهم ؛ وبقيت آيات العصاميين ، وحياة الخالدين، تتلى فى كل جيل ؛ وتحمل فوق كل جيد . سجلت ذكرى حياتهم فى صفحات الخلود ، وحفظت فى سجل الإنسانية ، وكتاب البقاء، فعلم بهم الدانى والبعيد ، وأثنى عليهم الصديق والبغيض . وهكذا عاشوا مع الأحياء ، ونالوا نعيم السماء .

أرى الحياة حياة الذكر خالدة   وما سوى خالد الذكرى سيندثر

وحدثتنى القبور بأن الحياة إنما هى أوقات عمل ، وأزمان جهاد ، وأيام سعى وكفاح ، لا تتسع للهو اللاهين ، ولا لعبث العابثين ، ولا لمجون الماجنين ؛ وأن ساعاتها لا تكفى لعمل الخير ، فكيف بها إذا استنفدت بين الشر والشراب ، والصاحبات والأصحاب ، والأقداح والأكواب ؟ إن صاحبها سوف لا يرى إلا السراب ، ولا يحصد سوى العقاب.. وحدثنى العقل : كيف يأتى الناس إلى هذا المكان أفواجا وزرافات كل يوم ، ولا يعلمون أن الإنسان سوف يحمل على الألواح ، ويوضع فى الرغام ، ويقفل عليه بالأحجار ، ويحال بينه وبين ما كان ، ولا يسره إلا نور العمل الصالح ، ولألاء القلب الطاهر ، ووهج السعى الحميد ، وقبس الروح الرفيعة عن كل دنس ، المنزهة عن كل أثم ، البعيدة عن كل هفوة ؟ مابال الناس يرون فى هذه القبور عبرة فلا يعملون بها ، وموعظة فلا يسلكون هديها ، ويسمعون منها الإرشاد فيلوون عنها ، ويصدون عن نصحها .

كن فتى ذكيا ، أو ملكا سميا ، واجعل القبر لك الناصح والمرشد ، فسوف يذكى فيك معانى الإنسانية ، وروح الفضائل ، ما دمت لوحيه مستلهما ، ولحديثه متشوقا ... وحدثتنى روحى : هنا ترقد الأمم ، وتستقر الشعوب ، وتفنى الأجيال ؛ ولن ترى فوق هذا المكان عرشاً لملك ، أو صولجانا لسلطان ، أو أثراً لقوة. هنا تخضع الهامات ، وتزداد الإلهامات ، وتقشعر الأبدان ، وتفزع القلوب .

هنا يتمثل الضعف الإنسانى ، ويبرز الجبروت الإلهى ، ويفنى الإنسان أمام القوة الخارقة ، والآيات الصادقة...وحدثنى فكرى الحائر ، وذهنى المضطرب : ألا ترى هنا مقبرة الأجيال ، وفناء الزمان ؟

ألا ترى كيف انقضت حياة المعمرين ، وذهبت أرواح المؤملين ، وانتهت دولة القادمين والذاهبين ؟

ألا ترى أن الإنسان يجب أن يعلم دائما أنه سيرقد فى هذا المكان . صحيحاً أو عليلا ، قويا أو ضعيفاً ، ذليلا أو عزيزاً ، كبيرا أو حقيرا ، وأنه يجب أن يعمل لراحته ، ويجد لسعادته ، ويتعب دائما ليستريح دائما

ألا ترى أن الإنسان يجب أن يعمل لآخرته كأنه يموت غدا ، ألا ترى أن الإنسان يجب ألا يضيع من وقته ثانية .. ألا ترى أن :

دقات قلب المرء قائلة له　　إن الحياة دقائق وثوان

ألا ترى أن الحياة هى اليوم الحاضر ، والموت هو الغد القريب

الشرف الصريع

نرقع دنيانا بتمزيق ديننا　　فلا ديننا يبقى ولا ما نرقع

قال صاحبى: أرأيت هذا المسكين ، ونظرت إلى هذا السائل ، يتخذ من الأسمال ملبسه ، ومن الأرض مسكنه ، ومن السماء غطاءه . ولو أراد لاتخذ من ورقه وذهبه الحلل الزاهية ، والبيوت العالية ؟

قلت: أتقول إنه لا يستحق منا العطف والرحمة والمواساة والمؤاساة؟ قال : لا ، فذلك أمره هين ، وخطبه يسير .. ولكن الذى يثير حزنى ، ويبعث شجنى ، أن هذا الرجل قد باع نفسه بدريهمات ، وركب رأسه بلقيمات ، وعدم حياءه ، وأراق دماءه ، وأعلن رياءه ، واتخذ من مراءاته ونفاقه وغشه لعيون الناس باعثا لعطفهم ، ودافعا لكرمهم ..

قلت : أما أنه أراق حياءه فذلك صحيح ، ولكن ما ترى فى علاجه؟

فخير لنا شفاء ما به ، وتطبيب أعصابه ، من أن نتلاحى فى القال والقيل .

قال : دواؤه حبسه أو إعدامه ، فذلك رجل باع دينه واشترى دنياه

قلت : نعم ، هو جدير بذلك قمين ، ولكن أتراه المجرم الوحيد بين مجتمعه ، والشقى الطريد من دينه .. قال : نعم .. هو .. هو

قلت : لقد أثرت شجنى ، فبكيت على وطنى ، بكيت عليه أن باع أبناؤه جميعهم دينهم بدنياهم ، وآخرتهم بأولاهم ، فضلوا وأضلوا ، وهووا وذلوا

أما رأيت البغى تبيع عفافها ، وتخلع حياءها ، وتخالف ضميرها ، وتمزق عرضها ، وتهدم شرفها ، وتبنى ثغرة مفتوحة فى صرح دنياها ، فتفتح ثغرات فى صرح دينها ؟

أما رأيت اللص يعس فى البلاد ويجوس ، ويسبح ويجوب ، حتى إذا أدركته الفرصة لم تفته الغنيمة ، يخلو بما يريد ، فلا يبقى إلا ضميره وشيطانه ، فيتنازع الاثنان ، ويتناطح العنزان ، ويتقاتل المتصارعان ، فإذا الضمير يخر صريعا ، وإذا الدين يهوى قتيلا ، وإذا الشيطان يمد يده كأنما يتخطفه الناس ، ويخرج تاركا شهيده ، مصاحبا طريده ، عليه لعنة الله والناس .. ؟

أما رأيت الموظف يتعامل بالرشوة ، والقوى تعزه القوة ، والخليع يغرى النساء ، والماجن يتعاطى الصهباء ، والحياة كلها شر ورياء ؟

أما رأيت السوق كيف يغش ويكذب ، والمتعلم كيف يتجاهل ويخدع ، ورب العائلة كيف يترك عائلته ويسهر مع نديمه فى مرقص ، أو خدينه فى منتدى ؟

أما رأيت العالم يطمع ، والجاهل للفسوق يهرع ، والزاهد يخلع ثوب الحياء ، والشيطان للضمير يصرع

أما رأيت ؟ إنى رأيت رذائل وشرا مستطيرا .. قال بحسبك ، لاتعد ولا تحصى فقد بعثت غما لا يعادله غم ، وهماً لايماثله هم .. على دين يعصى وشهوة تطاع .

قومى مشوا للشر وافتخروا به وغدوا يجرون الضمير صريعاً

لم يثنهم نصحى وقولى فيهم حتى غدوت مطردا مفجوعاً

الدين ينهاهم . . ولكن أين من يصغى وقد هدوا ذراه جموعا

تغريهم الدنيا ، وتفتن لبهم غيد نبذن شرائعا وربوعا

قلت : هذه أمثلة : قليلة ، ومالم يذكر أكثر

البنات والميراث فى الاسلام

يحكم كثير من الآباء فى شئون الأسرة بالهوى والضلال، فيحرمون بناتهم من الميراث ، لأنهم آثروا عليهن الابناء ، أو لأنهن متزوجات.

وعجيب من الرجل المسلم ، أن يؤثر بنيه على بناته بالميراث ، وهن لعمرى أحق الناس بعطفه ، وأكثر حاجة إلى المال .

البنت نفس إنسانية كالإبن ، تخدم الأسرة كما يخدمها ، ولها حقوق كما أن له حقوقا .

والبنات كثيرا ما يشاركن الأبناء العمل فى الحقول والمتاجر والمصانع ، فوق خدماتهن فى المنزل .

وهن كالأبناء : فلذات الأكباد ، وثمرات الحنان والأبوة .

بل إنهن أحرى بالعطف من الأبناء ، لأن مصيرهن مجهول ؛ ومقاليد أمورهن فى يد غيرهن ،وكثيرا ما يكون الزوج فقيرا محتاجا فتشق المرأة بشقائه ، أو غليظ القلب ، قاسى الطبع ، فاقد الإحساس ، يترك زوجه وأطفالها الصغار بلا معين .

بل قد لاتتزوج البنت، فكيف تعيش؟.. إن المرأة أشق من الرجل، والبنت مآلها غالبا أن تكون امرأة ، والإبن مصيره أن يكون رجلا ، فالبنات أشق من الأبناء ثيبات وأبكارا .

فلماذا يغصب الأب حقوقهن ، وقد فرضها الله، وأوجبها الدين والعقل، وأكدتها روابط الرحم التى لا تفصم عراها على مر الأيام ؟

لماذا يحرم الأب بناته من ميراثهن ، أيفعل ذلك اتكالا على رأفة الأبناء بأخواتهم ؟ مع أن هذا قد أصبح قليلا أو معدوما ، فلم يعد فى طبع الأخ الشفقة بأخته وصلتها ، وكثيرا ما تكون الأخت غريبة فى بيت أخيها .. أم يفعل ذلك أحيانا اتكالا على أنهن متزوجات؟ وقد يكون الزوج ذئبا أو وحشا مفترسا .

إن الأب الذى يحرم بنته من الميراث كله أو بعضه ، إنما يعادى الله ورسوله والإسلام الذى جعل لها نصف ما للذكر من الميراث ، وللذكر مثل حظ الأنثيين. والآباء بذلك يخلقون العداوة بين الأبناء ، ويتحملون تبعات جساما من جور تصرفهم ... إن دمعة من عين فتاة لتروع النفس وتفتت الكبد . وإن عفافا يباع فى الأسواق بسبب الفقر والحاجة إلى المال لوصمة عار لايمحى من جبين الآباء . وإن دعوة من مظلوم ليرفعها الله إلى عنان السماء .

أخلاق وآداب اسلامية

حياتنا الروحية والصوم فى الاسلام

الحياة الروحية للأمم هى دعامة كيانها الذاتى ، ومبعث حياتها ووجودها القومى والانسانى ، فهى التى تغذى العواطف ، وتثير الشعور ، وتهذب الوجدان ، وترقى بالملكات الانسانية فى الفرد والجماعة ، وتبعث على العمل والطموح والعزيمة والأقدام .

وناهيك بالاسلام دينا ، له أثره البعيد فى الحياة الروحية فى الشرق والانسانية كافة ، فهو الذى وجه الحضارة البشرية نحو المثل العليا التى كانت تحسب فى العصور القـــديمة ضلالات وأوهاما ، وهو الذى سما بالشعور الانسانى فى الفرد والجماعة إلى آفاق كريمة زاخرة بمعانى الحق والخير والايثار والمساواة وتضامن الناس جميعا فى العمل على تقدم الانسانية والحضارة ، وسعادة جماعات العالم وشعوبه

وأول مايبهرك من شرائع الاسلام وشعائره ، التى لها الحظ الأكبر فى حياة المسلمين الروحية ، هو فريضة الصيام السامية الحكم والاهداف

فالصوم رياضة روحية كريمة تمتد شهرا من الزمان ، فتصل الانسان بربه وبالملكوت الاسمى والنور الاقدس ، فتملأ النفس طهرا ، والقلب نورا ، وتتلاشى ظلمات الحياة أمام نور المعرفة الخالد . وتفنى أشباح المادة المسيطرة على الناس ، ويستعيد الصائم إيمانه العميق بالله والدين والخير ، وبكل ماهو حق وجميل فى الحياة

والصائم ينسى نفسه وينسى شهواته ، فيتحول تفكيره من الشعور بالذات إلى الشعور بالجماعة ، ومن الأمعان فى الترف إلى حب البساطة والسير مع نواميس الحياة الأبدية الصحيحة ، ومن ثم يتعود الايثار

مظهر من مظاهر حب الفرد للجماعة ، ويكره الغرور والكبرياء والكذب والنفاق والرياء ، لأنها من مظاهر الذاتية المنكرة فى الانسان ، ويعشق البطولة والتضحية والتفانى فى خدمة المجتمع وحب الخير والبر والاحسان لأنها كلها شعور بالواجب المقدس المفروض على الفرد للمجتمع .

وفى رمضان ولياليه المطهرة يتجه المسلمون بشعورهم ووجداناتهم نحو القرآن يتلونه ويتدبرون آياته ، فيزيدهم ذلك حرصا على السمو بالنفس والروح ونكران المادية الجامحة القاتلة لجمال الحياة ، ويؤثر العابدون التهجد والصلاة وذكر الله والاعتكاف فى بيوته الكريمة ، فيزيد ذلك فى ازدهار الحياة الروحية الرفيعة ورقيها .

وليلات رمضان المحبوبة هى مواسم معروفة للبر ولذكر الله ، ولسماع كتابه الحكيم وآثار الثقافة الدينية التى يظمأ إليها الناس ، ولتزاور الناس وتصالحهم ، وللتضامن الاجتماعى بين الغنى والفقير ، ولا نزال نحب أن تكون كما كانت أوقاتا مبرأة من الاثم والفجور والعدوان .

لقد كان آباؤنا يحفلون بهذا الشهر الكريم ، ويولونه حظا كبيرا من العناية والاهتمام ، ويسعون فيه إلى الصلح بين الناس ، وإلى الترفيه عن الفقراء ، ومواساة البائسين والمنكوبين ، واطعام الجائعين والمحتاجين ، وقلما كان الرجل يخاصم فيه أخاه ، أو يسعى إلى اقتراف ذنب أو ارتكاب معصية ، فكان الشهر كله طهراً وخيراً وبركة ورحمة ومحبة بين الناس وإيقاظا لضمائرهم وكانت أيامه كالربيع الباسم والزهر الناضر والواحة الخضراء فى صحراء الحياة .

وبعد : فحسب رمضان نصيبه الأوفى فى حياتنا الروحية ، وأثره البعيد فى ماضى العالم الاسلامى وحاضره ، بما فرض فيه من شريعة الصيام ،

وبما تبعها من آثار بعيدة فى حياتنا الخاصة والعامة ، وفى مستقبل الجماعة الاسلامية منذ نشأ الاسلام ،

فلنتدبر هذه المعانى العظيمة ، والتقاليد الطاهرة الكريمة، التى غرسها ونماها فينا الصيام ، ولنستمد منها القوة التى تعيننا على شدائد الحياة ، والايمان الذى يقودنا إلى مجال الحق الكريم ، والثقة بالروح التى تدفعنا إلى البطولة الدائمة ، وحب الجماعة وكل مايساعد على رفاهيتها ،وغيرذلك مما يجعل الحياة أمنا وسلاما وسعادة .

الحج مؤتمر إسلامى عام

ماأبدع مشاعر الحج ، وما أروع مناسكه ، وما أجل غاياته وبواعثه

يذهب الحجاج إلى بيت الله العتيق طوائف وجماعات ، من شتى الأقطار والبلاد الاسلامية ، يلبون داعى الدين ، ونداء الله القوى المتين، ويتوافدون زرافات ووحدانا ، رجالا ونساء ، شبابا وأطفالا ، يؤدون شرائع الحج ، وفرائض الدين ، ويقفون فى جموع حاشدة ، ووفود زاخرة ، وصعيد واحد . . يقف الهندى والمصرى والشامى والعراقى والجاوى والفارسى والصينى ، جنبا إلى جنب ، فتشعر بوحدة الاسلام وروحه الوثاب القوى

ويجتمع الكبيروالصغير ، والعظيم والحقير ، يرددون فى صوت واحد كلمات الايمان والاخلاص لله رب العالمين ، فتشعر بأثر تعاليم الاسلام السامية ، وبما فيها من دعوة كريمة إلى الحب والطهر والاخاء والمساواة التى أعلنتها شريعة الاسلام من قبل أن توجد الثورة الفرنسية بأجيال

وقرون . . تعاون وتعارف ، ومساعدة وبذل ، وتحاب وتواد ، وتصاف وتعاطف ، ومساواة كريمة بين الناس كافة . . هذه هى مبادىء الاسلام، تجمع الناس من حيث فرقتهم الدنيا والأهواء

وهذا العدد الضخم الذى يجتمع فى موسم الحج ، يذهب أكثره إلى المدينة المنورة ، ليشاهد مبعث الاسلام ، وكيف أشرقت شمسه الساطعة من هذه المدينة الخالدة ، ويشاهد مسارح العزة الاسلامية ، ومواطن المفاخر العربية، فيزداد قلبه إيمانا على إيمان ، وإخلاص لله فوق إخلاص

والحجاج بعد ذلك كله ينثرون الخير والبر على سكان مكة وجيران الرسول الأعظم ،. فيؤدون عملا جليلا رائعا ليس بعده من عمل

وفى الحج إثارة لعزيمة المسلم ، وبعث لحميته وحماسه ، ونفى للرذائل من قلبه ، وإحياء لأسمى الفضائل، وأرفع الأخلاق ، وإماتة للشهوات . . وفيه تذكير بالله واليوم الآخر ، وإعلان عن قوة المسلمين

هذا المؤتمر الاسلامى العام، لو نظم بعض التنظيم لكان له صداه الشديد فى العالم كله ، وأثره البعيد فى البلاد العربية والاسلامية كافة

يجب أن تؤلف لجان مختلفة فى موسم الحج لتدرس مشكلات المسلمين وحالتهم ، وتتخذ قرارات عامة حيال ذلك ، يلتزمها المسلمون وينفذونها فى كل مكان

يجب أن يكون الحج مظهرا لقوة المسلمين وتضامنهم وتعاونهم، وتصميمهم الذى لا يضعف على استرداد حرياتهم ، واسترجاع ماضيهم المجيد

ويجب أن يكون الحج فرصة مواتية لرسم خطوط المستقبل للعالم الاسلامى المترامى الأطراف ، على ضوء حاضره وماضيه ، ليعمل المسلمون فى كل جهة لخير الاسلام ومجد المسلمين .

الاسلام وتحريم الخمر

« ذهب الشافعية إلى حل التداوى بالخمر بشرطين : أن تتعين دواء ، وأن يكون هذا التعيين من وصف طبيب مسلم عدل معروف بعدم تهاونه بما حرم الله » .

وأقول: لقد أجمعت الأمة الاسلامية على اختلاف المذاهب على أن شرب الخمر محرم ، وورد عن الرسول صلى الله عليه وسلم : « إن الله لم يجعل شفاءكم فيما حرم عليكم » ، وأجاز القرآن الكريم أكل الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله لمن اضطر غير باغ ولا عاد ؛ ولم يرد نص فى القرآن الكريم عن الخمر ، وجواز شربها للضرورة ، وكذلك لم يرد فى الحديث الشريف شىء عن ذلك . . وهذا السكوت فى رأيى لا يتضمن جواز شرب الخمر فى التداوى أو فى حالة الاضطرار .

وكيف يجوز ذلك مع علمنا بما تحدث الخمر من آثار سيئة فى الصحة والعقل والمال والخلق .

فهى — كما يقول الدكتور حافظ أمين فى بحث له حضره قسم نشر الدعوة الصحية بوزارة الصحة بناء على طلب جمعية منع المسكرات بالقطر المصرى — « تحدث التهاباً واحمرارا فى الغشاء للمعدة واحتقانا فى المخ والأوعيـة الداخلية ويمتلىء النصف الأيمن من القلب دما قاتم اللون ؛ ويبتدى تأثير الخمر بفتح الشهية والمساعدة على الهضم ، ثم تنبيه القلب ثم السمن ، إذ أن للخمر قوة غذائية كبيرة فى مبدأ تعاطيها ؛ ولكن لا يلبث كل هذا أن ينقلب إلى حالة تسمم ، ويبدأ التسمم بانحطاط فى الجهاز العصبى العام ، فتتأثر قوة الادراك العامة وقوة التصرف فى الأحوال الشخصية ، فينشأ

عن ذلك الاهمال وعدم الشعور بالمسئولية.. وكثيراً ما تسبب الخمر ارتباكات عصبية أخرى : كالولع بشرب الخمر وإدمان السكر ، والتهاب أعصاب المدمن، مع تغييرات مخية . فيصاب بالهذيان والأوهام والمخاوف، مع فقدان الذاكرة . هذا مع التهاب فى الأعصاب كعرق النسا وما تعطيه من آلام شديدة وضعف فى الحركة ، فضلا عن النوبات الصرعية ، والهذيان الاهتزازى ، وهناك نوع آخر من الجنون يصيب الأشخاص المنحدرين من آباء بهم نقص عصبي أو المصابين بجنون أو صرع ، وحالات أخرى من الادمان تصل بصاحبها إلى ما يسمى بالوهم المزمن ، وهو نوع من الجنون كل ما فيه أن الشخص يستمر فى رؤية خيالات مخيفة بلا انقطاع، ويؤول كل ما يراه إلى رؤية مفزعة .. والانعاش الذى تحدثه الخمر ناشيء عن أنها بما فيها من كحول تؤجل الشعور بالتعب وتخفيه ، وتجعل شاربها لا يقدر درجة الانهاك التى يصل إليها ، فتنهد قواه دفعة واحدة . وقد دلت الاحصاءات على أن كثيرين من الرياضيين الأقوياء المعتادين شرب الخمر ماتوا بالسل الرئوى ، كما أن كثيرين منهم أصيبوا بالجنون ، ودلت أبحاث كثير من العلماء ـ «ديسترى، جيلبوشوفو ، جاليوتى ،هركسهايمر» ، وخلافهم ـ على أن الخمر شديدة الخطر على العمل الجسمانى .. وشواهد ذلك كثيرة ، فمثلا على سواحل البحر الأسود ترى الأتراك الذين يمنعهم الدين عن شرب الخمر يمكنهم أن يشتغلوا فى نقل الفحم وحمل الأثقال مدة ١٢ ساعة متواصلة ، فى حين أن غيرهم من البلغاريين والرومانيين وخلافهم الذين يشربون الخمر يضطرون للاستراحة كل ساعتين أو ثلاثا . وثبت فى المستعمرات البريطانية أن المشاريع الكبيرة التى يمنع فيها العمل من شرب الخمر تكون أعظم إنتاجا من زميلاتها حيث يصرح بشربه... هذا فضلا عن أن الخمر

تضعف العمل الفكرى بما لها من التأثير المخدر ، وتجعل العقل بليدا خاملا ، وتضعف الذاكرة ، وتقوى الخيال ، وتضعف الحواس ، وتفقد الإنسان شخصيته تدريجياً » .

وبعد كل ما نقلناه من آراء الدكتور حافظ أمين ، نذكر أن مؤتمر الأطباء الذى عقد بمدينة شيكاغو فى ١٥ أغسطس عام ١٩١٩ قبيل تحريم الخمور فى الولايات المتحدة الأمريكية، والذى كان مؤلفاً من مائتين وخمسين طبيباً من نطس الأطباء فى القارتين الأمريكية والأوربية كان من ضمن قراراته هذا القرار الآتى نصه : « إن الطبيب الذى يصف لعليله شيئاً من الخمر على سبيل العلاج دون أن يجد فى العقاقير الطبية الأخرى بديلا عنه إنما هو فى عرف هذا المؤتمر طبيب متأخر فى فنه بضعة عشر عاما ، فلقد انقضى الزمن الذى كان يسوغ فيه للطبيب أن يصف للمرضى قطرة خمر واحدة على سبيل العلاج ، وإن الحيلة قد انفتقت أمام المباحث الطبية والتشريحية والعلاجية ، فلم يعد ثمة ما يدعو إلى وصف الخمر علاجا لأى مريض كان » . فضلا عما جاء فى قراراته الأخرى من أن الخمر عظيمة الضرر على التركيب الجسمانى ، وأن قطعة صغيرة من السكر أو التفاح أنفع للجسم من زجاجة كبيرة من البيرة ، وأن الرجل القوى الجسم المدمن إذا أصيب بمرض عضال فإن شفاءه يكون أعصى على الأطباء من معالجة إنسان ضعيف الصحة لم يختلط بدمه شىء من الكحول ، وأن الخمر تعجل الهرم وتسرع بالمرء إلى هاوية الموت ، وأن المدمنين المسنين قد يتعسر علاجهم من بعض الأمراض كذات الرئة ، وأن أغلب المصابين بالأدواء الوبيلة كما ثبت من الاحصاء الطبى بأمريكا هم ممن اعتادوا احتساء الخمور ، وأن الكلى يبطل عملها فى تنظيف الجسم وتطهير الدم من الميكروبات

حين يعتاد المرء شرب الخمر ، وأن شرب الخمر والاعتياد عليه من شأنه أن يلاشى قوة الإرادة ويضعف قوة الاختراع ويخمد حرارة الهمة ومحبة الرفعة ، وأن انتشار الخمور هادم لسعادة الأمم ، ومقوض لبناء الأخلاق

وصدق الله العظيم حين يقول :

« يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون ، إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر ، ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة ، فهل أنتم منتهون؟ » .

من أسرار التشريع الاسلامي

الاحسان فى القرآن الكريم

الاحسان بمعناه العام : إتقان الشيء وتجويده ، فإذا أشعرت قلبك الإيمان العميق فقد أحسنت ، وفى ذلك يقول الرسول صلوات الله عليه : «الاحسان أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنك يراك» . وإذا جودت فى عملك وأتقنته فقد أحسنت ، وفى المأثور : إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملا أن يحسنه . وإذا أجدت القول وبلغت فيه الصواب فقد أحسنت، ولذلك تسمع كثيرا من الناس يقولون لمن يحسن فى مقاله أو قراءته: أحسنت . وإذا صنعت خيرا بالوالدين أو بالناس فأنت محسن ، قال تعالى «وبالوالدين إحسانا»... والاحسان بمعناه الخاص: هو التوسع فى عمل الخير، وفى البر بالناس ، والعطف على الفقير والمحروم والسائل والمسكين ، والاكثار من الصدقات، وصلة الأرحام ، ومواساة المنكوبين، ومسح دموع المحزونين، وحمل الكل ، وقرى الضيف . والأحسان بهذا المعنى مظهر نبيل للعواطف الانسانية المهذبة ، وغاية كريمة اجتمعت الشرائع والأديان على تقريرها والتنويه بسمو خطوها وبليغ أثرها

وهو صورة رائعة لكثير من المشاعر الانسانية السامية والأخلاق البشرية الكريمة، من حنان ومروءة تملأ جوانب الصدور، ومن ايمان وثقة ويقين تهتز بروعتهـــا الأفئدة ، ومن بذل وتضحية وايثار اشربت حبها القلوب، حتى اصبحت لها عقيدة مع العقيدة، وغاية تسمو على كل غاية .

والاحسان فى نظر الاسلام أول لبنة فى صرح سعادة المجتمع وعظمة الأمة، ولذلك بالغ الله عزوجل فى العناية به والحث عليه، وجعله ركنا من اركان الدين وقرنه بعبادته وتقواه كما قرنه بالايمان والصلاة، وجعل للمحسنين

الثواب العظيم والجزاء الكبير والأجر الكريم، وأخبر بأنهم لاخوف عليهم ولاهم يحزنون، وأنهم فى عون الله ورعايته ، « إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ».. ولم يشأ الله عز وجل أن تذل بالاحسان نفوس الفقراء والمساكين، فجعله حق الفقير والمسكين ، « وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ذلك خير للذين يريدون وجه الله وأولئك هم المفلحون »، وجعله فرضا يؤدى إلى صاحبه فى الآخرة مغفرة من الله ورضوانا فقال: « فاتقوا الله ما استطعتم واسمعوا وأطيعوا وانفقوا خيرا لانفسكم ومن يوق شح نفسه فاولئك هم المفلحون، ، « ان تقرضوا الله قرضا حسنا يضاعفه لكم ويغفر لكم والله شكور حليم ».

ثم صور الذكر الحكيم مدى الفجيعة الفادحة التى تحيق بمن أوتى كتابه بشماله يوم الدين وبين أسبابها فقال ... « انه كان لا يؤمن بالله العظيم ولا يحض على طعام المسكين ».

وحسبكم هذه الآية الجامعة « إن الله يأمر بالعدل والاحسان ».

الاحسان فوق أنه عاطفة إنسانية سامية وغاية دينية رفيعة، هو أعظم أساس تبنى عليه الأمة صرح ألفتها ووحدتها ومجدها، واكرم سبيل يسير فيه المجتمع الصالح إلى آماله المنشودة وغاياته المرتجاة

وعبر التاريخ أصدق شاهد على ان الأمة التى لا يواسى اغنياؤها الفقراء فيها، ولا يشارك سراتها بالهم وعطفهم من نكبتهم الايام وعصفت بهم الاحداث والخطوب من أبنائها، لهى أمة تسير بخطوات بعيدة نحو النهاية المروعة والخاتمة المحتومة

ذلكم ان المجتمع لا يصلح حاله، ولا تبرأ أسقامه، إلا متى كان روحا واحدة

وصفا مرصوصا يسير إلى غاياته العظيمة، مجاهدا فى سبيل تحقيق ما يطمح اليه من آمال

وليس من سبيل لدعم هذه الروح فيه مع الفروق الجسيمة الهائلة فى المعيشة والحياة ، ومع انصراف الموسرين عن شؤون الفقراء، وتناسيهم حقوق المنكوبين، ومع حياة الفقير البائسة الداجية ، التى يرى فيها بعينه حياة الغنى المترفة المرحة ثم لايرى فى أفقه قبسا من أمل ولا شعاعا من رحمة أو حنان

إنما السبيل لعلاج جميع مشكلات المجتمع هو الاحسان، ثم الاحسان، ثم الاحسان .

فبه تزول الفروق الاجتماعية، وتهدأ الاحقاد المتوثبة، وتسكن الثورات المستعرة، ويعيش الشعب وجميع طبقاته بنعمة الله إخوانا .

ومجتمعنا حديث عهد بالاصلاح الاجتماعى، ومشاكل الحياة الاجتماعية أمامه معقدة متشابكة ؛ ووسائل المعيشة قليلة ضئيلة ، ومرافق الثروة الاقتصادية ما يزال بعضها فى أيد أجنبية ؛ وبعضها بكر لم تمسسه يد الاصلاح ولم تفكر فى استغلاله عبقريات قادرة أو أيد نشطة ، وذلك سر ما نلبسه فى كل مكان من مظاهر الفاقة والشقاء والبؤس والعناء ومن شتى الآلام الاجتماعية المزعجة .

فهذا المجتمع أشد المجتمعات فقرا إلى الاحسان ، وأكثرها حاجة إلى البر والايثار ، وأمسها إلى عناية جميع الموسرين — ممن تقلهم أرض مصر وتظلهم سماؤها — بشئون الفقراء والبائسين والمساكين .

وهذه هى الغاية البارة والعاطفة الكريمة، التى تدفع إلى التضحية بالمال،

وبكل غال عزيز فى سبيل الترفيه عن الفقراء والعطف عليهم، واحياء روح الأمل فى صدورهم، وبعث معانى السلام والسعادة فى نفوسهم .

أيها الناس: يجب أن تتناسوا كل شىء إلا الفقير ، وأن تطرحوا وراءكم ظهريا كل غاية إلا الغاية السامية التى تعمل للنهوض بالأمة .

اذكروا أن وراءكم فقراء ومنكوبين : من عامل أفقده المرض القدرة على الكفاح . ومن يتامى لايسعى لخيرهم أحد ، ومن كهول أرهقهم الكبر من أمرهم عسرا ؛ ومن أسر ذهب الموت بعائلها العزيز ، ومن منكوبين فجعتهم الأيام فأمسوا لايملكون فتيلا ، و لايجدون إلى الحياة سبيلا .. اذكروا هؤلاء جميعا ، فانهم يعلقون عليكم آمالهم ، وينتظرون ملائكة الرحمة لتمد إليهم يد الحنان والمواساة، فتبعث فى نفوسهم الأمل ، وتذيقهم برد السلام والسعادة

فاعملوا واعملوا فى سبيل هؤلاء ، وحسبكم أن ترضوا بهذا الجهاد نفوسكم ووطنكم ودينكم، وأن تفوزوا برضاء الله، وأن يكون لكم بذلك أوفر حظ من نعيم الدنيا وثواب الآخرة .

المروءة فى محيط المعانى الإنسانية الإسلامية

المروءة نبراس يبدد ظلام الناس بنور الخير ، ورحمة تجدد سعادة الانسانية بنبل الخلق ، وروح تحيي موات الأمل فى صدور اليائسين .

وهى نزوع إلى المثل العليا ، وطموح إلى الخير والايثار ، وظهور على نزعات الشر ونزوات الهوى ، وتأديب للنفس بالدين الوازع ، والعقل الهادى ، حتى تطبع على حب الاحسان ، وإيثار الخير ، وتسير على نهج

العزة والفضيلة ، وتتسم بسمات النبل والكمال ، وتضن بشرفها عن مواقف الذلة والهوان ، وتجود بمالها فى سبيل الخير والاحسان ، وتأنف أن تعيش إلا لتأثيل مجد ،أو اكتساب حمد ، أو اصطناع معروف.. وأى فتى أروع ماجد ، وأى سيد أريحى كريم ، يبتغى شرف الحياتين ، ومجد الدارين ، ثم لايعمر بالمروءة صدره ، ويكثر بالمكارم فخره ؟ وأى بائس يائس يرثى لنفسه وللأنسانية المعذبة بالحضارة المادية ،ثم لايذكر المروءة وينشدها فى شخص رجل نبيل ؟ .

وأى دين سماوى، أو عقل إنسانى ، لايقدر المروءة قدرها،ولا يعرف لها فضلها ، ولا يحث عليها، أويدعو إليها ؟ .

لقد بحثت عن المروءة، فوجدتها جماع كل خير ، ومصدر كل فضيلة ، ووجدت ذا المروءة عظيما فى نفسه وخلقه ، وفى دينه ودنياه ، وفى عواطفه وأفكاره ، يسمو إلى العظائم ، وتهون عليه أعباء العلا، لعلو همته،وشرف نفسه ، فهو يستعذب العذاب رغبة فى الحمد ، وحذراً من وصمة الذم .

لقد اجتمع الناس على إكبار شأن المروءة ، اجتماعهم على أنها الكمال فى الخلق والدين ، والمعروف فى القول والفعل ، والسخاء بالنفس والمال، فى مواقف الحمد، ومواطن المجد ..

بيد أنهم وصفوها ببعض أوصافها ، ومثلوا بعض نواحيها : فيرى فريق أنها : تقوى الله وصلة الرحم. ويزعم آخر أنها العفة عما حرم الله والحرفة فيما أحل . ويرى البعض أنها الصبر على البلوى ، والشكر على النعمى ، والعفو عند المقدرة . ويذهب الآخرون إلى أنها صدق اللسان، ومواساة الأخوان وذكر الله فى كل مكان

هذه صور متعددة للمروءة ، ترى منها أن كل صورة تمثل ناحية خاصة من نواحيها ، لها جلالها وخطرها .

والحق الذى لاريب فيه أن المروءة هى كمال الانسانية فى أنبل مظاهرها ، وأجل صورها . فهى كمال الدين والخلق ، وهى سمو الروح بتقوى الله وطاعته ، وسمو القلب بالفضائل الانسانية — فليس لمن لم يعمر قلبه بالفضائل مروءة — ، وسمو النفس بهجر الرذائل ، والشهوات ، والأنفة عن الريب والآثام ، وهى مع ذلك تدبير للمال فى حكمة — فإنه لاتكمل مروءة مقل — ، وقيام بحاجات النفس والأسرة — فلا ينبل من احتاج إلى أهله ولا من احتاج أهله إلى غيره — ، وأنفة عن تحمل الأيادى والمنن ، ومساعدة بالجاه والمال للمحتاجين — فإن من أحسن والدولة له ، أحسن إليه والدولة عليه ، وخليق بذى المروءة أن يتخذ أيام رخائه عصمة لأيام بلائه — ، وهى عفو عن الهفوات وصفح جميل عن السيئات — فان من دفع السيئة بالسيئة فقد مروءته ، ولقد كذب من زعم أن الشر يحسم بالشر ، فان النار لاتطفئها النار ، وإنما يطفىء الشر الخير ، كما يطفىء النار الماء — .

هذه هى المروءة فى كامل معناها ، ونبيل مغزاها ، ورحم الله وفد إياد ، فقد أوجز فى بيانها أمام رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وذكر أنها : « العفة والحرفة » .

فبالعفة عما حرم الله ينبل الأنسان ، وبالعفة عن بعض ما أحل الله يزداد نبله ومروءته . والعفة فى القول والعمل والنظر هى بعض جوانب هذه الخصلة الحميدة ، وما أطيب عفة اللسان والقلب ، وأحمد أثرها فى الناس

وبالحرفة يستغنى الإنسان عمن سواه ، ويقدر على مساعدة غيره من المحتاجين والمكروبين .

هما خلتان تحيطان بأطراف المروءة ، وهما واسطة القلادة .

الكبرياء فى رأى الدين

تختلف النفوس ، وتتباين الأهواء اختلافا كبيراً ، يرجع إلى التمايز فى الخلقة الإنسانية ، والغرائز والاستعدادات النفسية .

ولعل أكبر شىء يميز بين نفسية الأشخاص ، ويفرق بين طبيعة الرجال ، هو مقدار الشعور بالنفس والاعتزاز بها

والسمو بالنفس يستلزم لونا من ألوان الكبرياء ، فإذا زاد فى النفس وقوى فى الشعور خرج عن الاعتدال ، وبرزت آثاره واضحة فى حياة الرجل وأعماله وأقواله .

فالكبرياء نوع من الشعور بالنفس ، ولون من ألوان الاعتداد بالشخصية ، ومظهر من مظاهر « الذاتية » فى الإنسان .. ومن ثم تجده فى كثير من العبقريين وعظماء الرجال .

وتجده غالبا يقود إلى الجد ، ويدفع إلى العمل ، ويسير بالناس إلى الحياة السامية ، ويدفعهم إلى نبل النفس وسمو الخلق ، وشرف الأعمال ، وجلال الحياة ومجدها .

يخطىء كثير من الناس فيخلطون بين مظاهر الكبرياء العديدة ويعدونها كلها قبحاً ودمامة ، وذنبا وجريمة ، فإذا رأوا رجلا قد عاف مصاحبة

أصدقائه لنقص فى خلقهم أو ضعف فى ذوقهم ،أو كره عادات قومه البالية فترفع عنها وتعالى عليها، أو حافظ على كرامة نفسه بين قوم لا يقيمون للكرامة وزنا ولا يحسبون لها حسابا ، عدوه من الآثمين ،وذلك ضلال وخطأ فى الحكم على الأشياء.... تتنوع مظاهر الكبرياء وتختلف آثاره، باختلاف بواعثه ودوافعه الشريفة والوضيعة .

فهناك كبرياء أنانى وغرور شخصى تجده فى كثير من الرجال، وتلحظه فى كثير من الأعمال ، وأساسه الأثرة والأنانية الممقوتة المكروهة ، وحب النفس وإيثار مصلحتها على كل مصلحة عامة أو واجب مفروض..

تجد الرجل يمشى فيرفع أنفه إلى السماء ويشمخ بوجهه كأنما يريد أن يطير فى الهواء ، أو يسكن فى السماء ، أو أن تفرش له الرؤوس والهامات فيتخذها طريقا لأغراضه وشهواته ورغباته ؛ وهو فى كل أعماله يقول : نفسى . نفسى . نفسى :

فهؤلاء وأمثالهم هم عنوان الكذب ومظهر الجرأة على الحق ، والاعتداء على العدل، والإهمال فى الواجب .

وجدير بهم أن تلفظهم الأمة، وتحتقرهم الإنسانية، ويزدريهم الناس أجمعون.. على أن جناية هؤلاء لا تقع على غيرهم فحسب ،ولكنهم يرتطمون بموجها، ويصطدمون بهولها .

فكثير منهم يدفعهم غرورهم الكاذب وكبرياؤهم الآثم وخيلاؤهم القاتل إلى حب التظاهر بما لا تحتمله قوتهم، ولا تقبله طاقتهم، ولا تقوى على حمله استطاعتهم .

وتكون النتيجة وقوعهم فى الإفلاس والفقر والبؤس المقيم .. ولهذا

حضت الشرائع السماوية على ترك هذا النوع من الكبرياء، لما فيه من آثام، وما له من ذنوب .

وهناك كبرياء خلقي يقود الأخلاق إلى مواطن الرفعة والإباء والسمو والشمم ، والنزاهة والكرامة ، ويقودها الى الطهر والعزة ويبعدها عن كريه الخلال وحقير الصفات ، ويرفعها من هوة الانحطاط ، فيرفع الخلق عن كل خزى ومهانة وقبح ودمامة ، ويسمو بصاحبه إلى ذروة الطهر وقمة الشرف ، فيعلم الناشئين ويثقف الطائشين ويهذب الجامحين ويكافىء الطامحين ، ويخرج النفوس المؤمنة الطاهرة العزيزة الكريمة العاملة المجدة، لترفع راية الخلق والدين .

وهذا النوع من الكبرياء عظيم الأثر ، محمود النتيجة ، مرضى العاقبة، يقرب المجموعة البشرية من مثلها العليا وامانيها الطيبة وآمالها السامية، ويخلق رجالا ينشئون جيلا جديدا هم واسطة عقده ودرة جيده .. فنهم من يكون المصلح الكبير الذى ينثر بذور الإصلاح فى أرضه ويغرس أشجار الحرية فى وطنه ، والفيلسوف العظيم الذى يخرق سياج الطبيعة بحكمته وحجاب الجهل بقوته ، والمخترع الجليل الذى يهب ثمار عقله لبنى جنسه ويكسبهم السعادة والرخاء ، والسياسى العبقرى الذى ينهض بأمته إلى مواطن الحرية والخلود .

وهناك كبرياء قومى ، تشعر به الأمم القوية العزيزة التى عظم شأنها وقوى سلطانها، فجدت بكبريائها القومى سلطان سعادتها وجددت بخيلائها الوطنى بنيان سيادتها ، ودعمت بعظمتها النفسية آمالها فى الاستقلال والحرية،فترى أهلها فى أنفة وكبرياء وطموح إلى المجد والعزة .

نحن فى حاجة إلى الكبرياء الخلق ليبيد ضعف النفوس وفتور الهمم وخمود العزائم وليبعث فينا روح المجد والاقدام، وفى حاجة إلى كبرياء قومى ينظم الوحدة ويجمع الألفة ويحقق الآمال ويخلق المستحيلات .

نحن فى حاجة إلى كبرياء قوى عزيز لا إلى كبرياء محطم ذليل . نحن فى حاجة إلى كبرياء المجد وخيلاء الحرية وعظمة الأخلاق ؛ وإليه يدعو الاسلام وكتابه الكريم .

الحياة الانسانية والعدل الألهى

العدل الإلهى أمر بدهى تجزم به الفلسفات الدينية عن يقين وإيمان لايجد الشك إليهما سبيلا ، وهو مع ذلك من الضروريات فى عالم التفكير الفلسفى الحديث ، أو من الأبجديات فى قاموس العقل البشرى المنظم ، ولا يستسيغ مفكر أن يتصور مصير الحياة الانسانية وحاضرها ، وحياة البشر ونظامهم فى عالم مقفر من عدالة السماء ، بل لاتستطيع أن تفهم كيف كانت تقوم الحياة البشرية ويستقيم نظام الوجود كله بدون هذا العدل السماوى الشامل . ونحن لانؤمن بأن الله عادل فحسب ، بل بعدله ورحمته جميعا ، فبالعدل يسير العالم الإنسانى إلى أهدافه العظيمة المنشودة ، وتستمر نواميس الوجود تؤدى عملها كاملا فى سبيل خدمة البشر وسعادتهم ، وبالرحمة ـ التى لاتتنافى مع قوانين العدل الإلهى العظيم ـ تسعد الإنسانية ، وتحيا حياة كريمة متجددة، فيها الأمل والرجاء .

والذين يثيرون مشكلة الشقاء الإنسانى يجب عليهم ألا يكلفوا أنفسهم عناء البحث عن العدل الإلهى ، لأن هذا العدل هو الآن وقبله فوق مثار الشكوك والأوهام ، وخاصة بعد أن نضج العقل البشرى هذا النضوج الباهر

فى عصر الكهرباء والذرة ... أما هؤلاء المفكرون الذين تثير مظاهر الشقاء فى الحياة الإنسانية شكوكهم فى رحمة الله ، فيجب عليهم أن يفرقوا بين نوعين من الرحمة : رحمة تتنافى مع هذه النواميس المنتظمة المسيطرة على الكون والحياة والتى فرضتها عدالة الخالق العظيم ، وهذا النوع لايصح أن يقال له على الحقيقة رحمة بل هو ظلم جائر يسير بالحياة إلى التخبط ، لا إلى السعادة والرفاهية المنشودتين ، والنوع الثانى من الرحمة هو مالا يتنافى مع هذه القوانين التى تحتمها العدالة ، وهو فى قانون المدنية الحديثة أول واجب على الانسان المهذب ، وأكرم صفات الانسانية الكاملة فى الرجل الذى يتسم بسمات المدنية والخلق الكريم ، فما بالك به إذا فى جانب المسيطر الأعظم على الوجود والحياة ؟ وكيف يمكن أن يقال إنه من صفات الكمال فى البشر دون الله ؟

وإذا كانت عدالة السماء قد وهبت الإنسان حريته فى الحياة ، وأمدته بجميع العناصر الأدبية اللازمة لتكوين شخصيته الإنسانية ، ولمساعدته على الكفاح فى الوجود ، وعلى الانتصار فى معركة الحياة الطاحنة ، بعد أن أمدته بجميع الوسائل التى تساعده على فهم الحياة فهما كاملا ، وعلى أنجح السبل الموصلة إلى السعادة فيها ، أفنقول: إنما يصيب الانسان — بسبب نفسه أو بسبب المجتمع الذى يعيش فيه — من شقاء وآلام ، نتيجة لهذه الحرية الموهوبة ، هو ظلم وجور من الله ، لأنه حد من قوته ، ولم يعمل بمقتضى قدرته العظيمة القادرة على إسعاد الحياة والناس ؟ كلا فذلك منطق لايستقيم ولا يمكن أن يقوله إنسان يحب أن يصل إلى الحقيقة الأبدية وحدها .

يمكننا أن نحدد الشقاء تحديداً تاما ، وأن نفهم أسبابه ، وأن نرى إلى أى حد نستطيع التوفيق بين عدل الله ورحمتـــه ووجود الشقاء الكثير فى هذه الحياة .

أما الشقاء فقد عرض له المفكرون والفلاسفة من قديم بالبحث والتحديد ، ونحن لن نتوسع فى التعريف ، ولن نذهب إلى مايصح أن نذهب إليه من أنه كل مايعرض حياة الفرد أو الجماعة الإنسانية أو نظام الوجود الإلهى الذى فطر الكون عليه للخطر والآلام ، ولن نذهب إلى إنكار الشقاء الذى يحيط بالأفراد والجماعات ، مدعين بأنه تضحية يستوجبها العمل فى سبيل حفظ وبقاء الحيـــاة الإنسانية نفسها ، بل سنتواضع جداً فى مدلول هذا الشقاء ، ونسير على ماسار عليه صاحب مقالة « مشكلة الشقاء » التى نشرتها الثقافة (١) ، فنرى أنه الكوارث والآلام التى تحل بالناس .

وإذا حللنا أسباب هذا الشقاء الإنسانى – الذى نرى مظاهره الفادحة كل ساعة ويوم بأعيننا وبصرنا — يمكننا أن نرجعها إلى ثلاثة أشياء :

الأول : ماكان السبب فيه الناس أنفسهم ، كالمقامر الذى عرض نفسه للفقر بلعبة القمار ، وكالعاكف على تعاطى المخدرات الذى يجلب على نفسه شقاء المرض بعكوفه على المخدرات ، وكالذى يلقى بنفسه فى النهر لينتحر من هموم الحياة ، أليس هؤلاء جميعاً ومن شابههم يستحقون هذا الشقاء الذى جروه على أنفسهم بأيديهم ، وكيف يمكننا أن نقول إن هذا الشقاء يتنافى مع عدل الله ورحمته ؟

---

(١) العدد ٤٥٥

الثانى مايكون السبب فيه المجتمع نفسه، فالفقر شقاء ، ولكن إذا كان هذا الفقر ناشئاً عن سوء الأوضاع الاقتصادية عند جماعة أو أمة ، أو سببه عدم استغلال هذه الجماعة أو الأمة لمرافقها الاقتصادية استغلالا صحيحا ، أفلا يكون هذا الشقاء الذى نزل بهم عدلا من السماء ، بل رحمة من الله بالناس ، لأنه أراهم ما يترتب على مخالفة الدين أو حكم العقل والتفكير من أضرار وشقاء ؟

والحياة البشرية وحدة تامة ، ومن ضروريات العدالة أن توزن بموازين عادلة سليمة ، وإلا فكيف يستقيم نظام الحياة ،فإذا لاقت جماعة أو أمة نتائج إهمالها أو جهلها أفيكون ما يحيق بها من أثر ذلك من الشقاء ظلماً وجوراً من الله ؟

وكذلك الحرب ، أليست جناية ما يترتب عليه من شقاءهى من عمل المجتمع نفسه ،الذى لم يحكم القوانين ونظام الله العادل فى العلاقات بين جماعاته وأممه ، فترك شريعة العدالة الانسانية إلى نظام الغابة وشريعتها . وكذلك الشقاء الذى ينزل بالناس نتيجة للأمراض التى يصابون بها ،أليس سره أن هؤلاء الناس أو الحكومة المسئولة عنهم قد أهملت فى العمل على محاربة المرض وعلاجه والوقاية منه ؟ ومثل ذلك الآلام التى تصيب الأطفال من فقر ومرض وسواهما ، أليس مرجعها إلى إهمال الآباء وجهلهم وتفريطهم فى حقوق الأبناء ، ولنفرض أن رجلا توفى وترك طفلا صغيرا ، ولم يترك له شيئا من مقومات الحياة ، أليس الأب مسئولا عن إهماله الذى كان منه فى حق طفله حين لم ينظم حياته تنظيما اقتصاديا كافيا يبعث على الطمأنينة والثقة بأنه أدى واجبه نحو ابنه ؟ ولنفرض أيضا أن رجلا سار فى الطريق

فأخطأ سائق سيارة فقضى على حياته ، أليس هذا الشقاء مبعثه خطأ رجل من المجتمع وعدم حذره فى سبيل المحافظة على حياة الناس وفى سبيل أداء واجبه كاملا ؟ وقوانين الوراثة تعلل لنا تعليلا واضحا كيف تنتقل الأخلاق والأمراض وغيرهما من الآباء إلى الأبناء على مر العصور .

وإهمال المجتمع أوخطؤه لايستلزم أن يكون كل إنسان فى المجتمع قد صدر منه الأهمال أو الخطأ ، ولا أن يكون مسئولا عنهما ، بل يكفى أن يحيد فرد عن السبيل فيحيق الشقاء بكثير من أفراد المجتمع جميعا ، لأن الحياة قائمة على التعاون والعمل المشترك لخدمة الأنسانية والجماعة البشرية والسير بها قدما فى سبيل الخير والأمن والسلام والرفاهية . فما يصدر عن فرد قد تشقى به أمة .

الثالث : مالايمكن معرفة السبب فيه ، كسفينة هبت عليها أعاصير عاتية فغرقت بركابها ، وكبركان ثار فدمر مدينة ، وكصاعقة نزلت من السماء فقضت على جماعة ، وغير ذلك من مظاهر الشقاء الذى لانفهم الحكمة فيه، ولا أسبابه المحيطة به .

ومن البدهى أن عقولنا أقصر فى هذه الحالات عن إدراك كنه إرادة الله وحكمته ورحمته وعدالته ، فقد يكون السبب فى بعضها حكمة بعيدة لايعلمها إلا الله ، كما ترمز اليه قصة الخضر مع سيدنا موسى ، وقد يكون السبب فى بعضها الآخر حفظ الكون نفسه والعمل على بقاء الحياة ، فتضحى عدالة الله بفرد فى سبيل مجتمع ، أو بالجماعة فى سبيل الوجود نفسه ، فقد تدمر المواد الملتهبة المتصاعدة من فوهة البركان قرية، ولكنه ربما لو لم ينفجر البركان لوقعت نكبة أرضية تقع ضحية لها قارة بأسرها ،

والحياة نفسها مجموعة من التضحيات ، فنحن نموت ليحيا جيل جديد ، وبعض الكواكب الكونية تتلاشى ليبقى نظام الوجود سليما ، وكرات الدم فى حرب شعواء يفنى بعضها فى سبيل بقاء البعض الآخر القادر على تزويد الجسم بالحياة ، وهكذا تضحى إرادةالله بالضعيف ليبقى القوى فيعمر الكون ويكون خليفة الله فى أرضه ، وتزدهر حياةالبشر ، ويصبحوا أهلا لأن يعيشوا فى هذاالعالم .

وفلسفة الدين تقوم على بعث الرضا الروحى والطمأنينة النفسية فى قلوب المؤمنين ، وعلى أن يفوض الناس أمورهم فى مثل هذه الأحوال لله ، وعلى الإيمان الكامل بعدالته ورحمته وبالحياة الآخرة التى يجازى فيها على ما عملوا من حسنات أو سيئات . وفى مثل هذا يطيب للمفكرين أن يقروا بعجز عقولهم عن فهم حكم الله العظيمة فى الحياة ، وإلا كانوا كالطفل الذى يحكم على أعمال الفيلسوف .

لنؤمن بعقولنا وقلوبنا جميعا ، فالعقل وحده قد يبعث على الشقاء الروحى ، وقد لا يوصل الانسان إلى الهدف المنشود ، كالرجل الذى يعتمد على رجليه وحدهما فى السير على سطح الماء ، والقلب وحده قد يكون مثار الطمأنينة والغبطة واليقين ، ولكن أليس مما لا يليق بكرامة الانسان الأدبية وهو خليفة الله فى أرضه ، أن يلغى عقله وفكره ، وأن يفهم الحياة ونواميس العدالة الإلهية العظيمة ، فهما آليا محدودا ، لا يتعدى نظرات الحيوانات السائمة إلى الكون العظيم ؟

وكيف نفهم الحياة ، وشخصيتنا فيها ، والرسالة العظيمة التى خلقنا لأدائهـــا كاملة ، فى سبيل السير بالحياة قدما إلى المثل العليا ، والأهداف

العظيمة المرتجاة ، إذ لم نفهمها على أنها وحدة تامة، أو جسم واحد يتحرك فى تعاون وانسجام ودقة نظام لغاية مشتركة ، وللتجديد المستمر فى سبيل الانسانية وحضارتها وتقدمها وسعادتها ؟ وهل يمكن أن نقول: إن المرأة قد شقيت حين خلقت امرأة ولم تخلق رجـــلا ، وإن مجارى البول فى الأنسان تشقى وكان الأولى بالله أن يسعدها بأن تـكون مكانا طاهرا يجرى فيه دم الحياة كالقلب تماما ؟ كلا إن شقاءها سعادة للجماعة التى تعيش فيها ، وإن تفسيرنا المحدود لبعض مظاهر الشقاء فى الحياة الانسانية قد يكون صوابا لو أعطينا قوات أخرى تساعدنا على فهم ما خفى وراء عقولنا من مظاهر الوجود ...

عباس بن فرناس

« عبقرية الفكر الاسلامى ،
ومفخرة الشرق السائرة ، وحديث
الانسانية الأولى ، وأول طيار
ركب متن الهواء » ...

يؤمن كثير من الناس بأن الشرق موطن الخيال ، ووادى الأحلام والسحر ، وأن الفكر الاسلامى من نبعة الفكر السامى ، فيه اضطراب الفكرة ، والعجز عن إدراك الحقيقة فى جوهرها ، والقنوع بالبحث فى حواشيها ومظاهرها .

ويقولون: إن الحضارة الاسلامية حضارة عقيمة ، لم تسد للانسانية يدا ، ولم ينؤ بحمل منها جيد . فالجمل هو الجمل ، مركب البداوة ، ومطية الحضارة الاسلامية ، والمصباح هو المصباح ، زيت وفتيل ، استضاء به المسلمون فى أزهى عصورهم ، كما استعمله الانسان منذ فجر عصور التاريخ؛ والماء هو الماء ، تجرى به الأنهار ، وتغص به الأودية ، ويحمله المسلمون على ظهورهم وفوق متون رواحلهم ، كما كان يصنع القدماء . والفن هو الفن ، لم تنبغ فيه فى الاسلام يد صناع ، ولا روح ملهم ، ولا عبقرية خالدة ؛ وأين لنا فى الفن الاسلامى ما نفاخر به معابد أثينا ، وصروح روما ، وفن الأكاسرة ، وأهرام الفراعين ؟ والعلم هو العلم ، كما خلفته مدارس الاغريق ، ومعاهد الرومان، وجامعات الاسكندرية وجند يسابور وحران ونصيبين .

ونقول لهؤلاء الشاكين : رويدكم ، رويدكم ! لقد عافت الحضارة الاسلامية ركوب الجمل ، فحاولت تذليل الهواء ، وأنفت من هذا النبراس الضئيل ، فتخذت الثريات المشرقة فى القصور والمساجد وعلى حفافى الشوارع والميادين . وأبت أن تعيش فى نصب البداوة ، فأدخلت الماء العذب فى أنابيب الرصاص إلى القصور والحمامات والرياض ، وجرته من ثغور التماثيل الفنية الرائعة المصنوعة من « الذهب الأبريز ، والفضة الخالصة ، والنحاس المموه » ، « وأجرته إلى « البحيرات الهائلة ، والبرك البديعة ، والصهاريج الجميلة ، فى أحواض الرخام المرمرية المنقوشة العجيبة » والفن الاسلامى أمامكم .فانظروه : فى آثار بغداد وقرطبة والقاهرة ودمشق وسواها ، وفى قصور الزهراء والحمراء ، ومساجد الشرق العظيمة الشامخة ، التى تسخر بالزمن ، وتبسم فى وجوه الأيام .. وإذا لم يسعدكم الوقت والحظ بالاطلاع على التراث العلمى المجيد الذى خلفه رجال الفكر الاسلامى فاقرأوا ما يكتبه عنه المنصفون من الشرقيين والغربيين . والنهضة الاسلامية فى الاقتصاد والزراعة والصناعة والتجارة ، وفى الادارة والسياسة والطب والعلاج ، وفى جميع ميادين النشاط الانسانى ، لاتتعجلوا بالحكم عليها ، قبل أن تتعرفوا مدى ما وصلت اليه من عبقرية وقوة ومدنية .

فليتئد هؤلاء فى الحكم على حضارة أظلت العالم أحقابا طوالا ، ونقلت جميع الحضارات القديمة ـ بعد أن هضمتها وهذبتها ووجهتها توجيها جديدا ـ إلى العالم فى أول عصر النهضة الحديثة ، وكانت السبب المباشر فى قيام الحضارة الأوربية التى يضىء نورها الدنيا الآن .

هذه نظرات عابرة أكتبها تمهيدا لبحثى عن أبى القاسم « عباس بن فرناس » ، مفخرة الشرق ، والمفكر العظيم الذى رددت ذكره الأجيال .

نشأ « عباس » فى بلاد الأندلس فى أوائل القرن الثالث الهجرى : والدولة للامويين أحفاد الداخل البطل الأموى الكبير .

وكان لابد له ـ ككل شاب طامح ـ أن يرد مناهل العلم ، ويغذى فكره وعقله بالثقافة الاسلامية فى مساجد قرطبة ودور العلم فيها ؛ فتتلمذ على رجال العلم ، ثم أعلام الفلسفة الذين كانوا يفكرون ويبحثون ويستنبطون فى خفية بعيدا عن عيون الناس والجمهور ممن لايستسيغون التفكير الحر ولا يشجعون عليه . ثم خرج « عباس » إلى الحياة العامة ، شابا ثائر الفكر ، متأجج العزيمة ، مشتعل الذكاء ، لايريد أن يفكر كما يفكر الناس ، ولا أن يعيش كما يعيشون ، ولا أن يعنى بما يعنون به ، بل أراد أن يفكر كما يحب أن يفكر ، وأن يستنبط ويخترع ويجدد كما شاء له عقله وقواه الفكرية الكامنة فيه . ولم تكن آمال « ابن فرناس » وأفكاره من خيالات الشباب وأكاذيب النفس ، بل كانت مظهراً لعقلية مبدعة ، وتفكير سليم

وبعد قليل تمكن هذا الذهن الحاد القوى من استنباط طريقة لصنع الزجاج من الحجارة ، فكان أول مبتكر لهذه الطريقة الجديدة التى نسير على أثرها فى شىء من التجديد والدقة والسرعة

ثم أخذت نفسه تحدثه : كيف نعيش دون التفكير فى اختراع شىء جديد يعرف به حساب الدقائق والساعات والأيام ؟ إن اخترع الشرق الساعات المائية ، فليخترع هو ما تفخر به الأندلس والأندلسيون ، وفعلا تم له ما أراد ، فاخترع آلته البديعة « المنقالة » التى صنعها على غير مثال لمعرفة الأوقات .

وحول « ابن فرناس » فكره من جديد إلى مملكة النسور ...

أيظل هذا الأفق الفسيح ، والجو الرحب ، ميدانا للطيور ترفرف بأجنحتها فيه ، ناعمة بجماله ؟ ولم لا يشاركها فيه الانسان ؟

هذه الطيور ، أليست تطير بجناحين ، يساعدهما ريش كثيف ، فلم لايكون لابن فرناس جناحان ممدودان وريش منتشر على جسده ليطير كما كما تطير النسور فى الهواء ؟

وأخذ يكسو نفسه بالريش ويمد له جناحين ، ثم كان يوم المحاولة الخطيرة الفريدة ، التى هى أول محاولة بشرية للطيران ، فاجتمع الناس من كل حدب ، ليروا هذا الرجل كيف يفتح هذه الآفاق الجديدة أمام الانسان .

وحرك عباس جناحيه ، ونشر ريشه ، وأخذ يداعب الهواء ، فارتفع فى الجو ، وطار مسافة بعيدة ، والناس فى أماكنهم ينظرون ويعجبون ويسخرون .

ثم كان لابد لهذا الطائر أن يهبط إلى الأرض ، فهبط رويداً رويداً حتى قرب منها ، فلم يستطع حفظ توازنه ، فسقط مصابا برضوض فى جسده

لقد نظر « ابن فرناس » إلى جناحى الطائر وريشه ، فآمن بأنهما وسيلته فى الطيران ، ولم ينظر إلى ذيله ليعرف مدى مساعدته له فى طيرانه وحفظ توازنه وحين هبوطه إلى الارض . فلم يصنع له ذيلا كما صنع ريشاً وجناحين ، فأصيبت التجربة بإخفاق ما كان أجدر « ابن فرناس » أن يتلافى سببه

عجب الناس ، وسخروا من « عباس » وهزئوا به ، ونظم الشعراء الشعر فى السخرية والتندر عليه . وهكذا شأن العبقريين فى كل جيل ، يسبقون

زمنهم فلا يفهمهم الناس ولا يفهمونهم ، ، بل ويعادونهم عداء شديداً .

قد يكون نقد الناس وسخريتهم سبباً لإحجامه عن إعادة التجربة من جديد ، وقد يكون الباعث على ذلك جهله بسبب إخفاقه فى محاولته الأولى وخوفه على نفسه أن تلاقى صدمات جديدة ، وقد يكون الصارف له ما أصيب به من جروح دامية أثرت فى صحته

وعلى أى فرض، فما كان أقرب «ابن فرناس» إلى الظفر بأمنيته ،وإلى غزو هذا الأفق الجديد وتسخيره للناس ، ولو فعل ذلك لانقلبت الحياة ، وتغير مجرى الحضارة ، ولسجلت الحياة لعباس بن فرناس هذا النصر الذى سجلته بعد أكثر من عشرة قرون « للأخوين رايت » .

لم يسكن هذا الفكر الثائر ، والعقل الجبار . بل أخذ يعمل ويبتكر ، حتى تمكن من وضع صورة فى بيته ، تمثل هيئة السماء ، يخيل للناظر فيها النجوم والغيوم والرعود والبروق ؛ فعجب منه بعض الناس ، وسخر به الآخرون . ويقول فيه مؤمن بن سعيد الشاعر الاندلسي :

سماء عباس الأديب أبى الـ ... قاسم ناهيك حسن رائقها

... ...

وهكذا قضى « ابن فرناس » حياته فى تجديد وابتكار ، فى سبيل خدمة الحضارة ، والرقى بالحياة الإسلامية فى عصره .

وكان مع هذا موسيقيا بارعا ، يعد أول من فك كتاب بطليموس فى الموسيقى والألحان ؟ وأول من فك من الأندلسيين كتاب العروض للخليل بن أحمد .

وهو مع هذا النبوغ شاعر أديب ، اتصل بالأمير الأموى حاكم

الأندلس محمد بن عبد الرحمن ، الذى اعتلى عرش البلاد من ٢٣٨ هـ إلى ٢٧٣ هـ . فكان له عنده مقام نبيل ، ومدحه بقصائد أدبية كثيرة

أنشد الأمير محمداً من أبيات :

رأيت أمير المؤمنين محمدا   وفى وجهه بذر المحبة يثمر

وخرج أهل طليطلة حولى عام ٢٤٠ هـ على الامير محمد واستعانوا بالافرنج فخرج اليهم بجيوشه وهزمهم وهدم قنطرة مدينتهم ، وفى ذلك يقول ابن فرناس :

أضحت طليلة معطلة   من أهلها فى قبضة الصقر
تركت بلا أهل تؤهلها   مهجورة الاكناف كالقبر
ما كان يبقى الله قنطرة   نصبت لحمل كتائب الكفر

وغنى ابن زرياب بعض الرؤساء ، وعباس بن فرناس حاضر معه :

ولو لم يشقنى الظاعنون لشاقنى   حمام تداعت فى الديار وقوع
تداعين فاستبكين من كان ذا هوى   نوائح ما تجرى لهن دموع

فذيلهما « عباس » بمدح هذا الرئيس وكان اسمه محموداً :

شددت بمحمود يدى حين خانها   زمان لاسباب الرجاء قطوع
بنى لمساعى الجود والمجد قبلة   إليها جميع الاجودين ركوع

ويعد ابن فرناس من أوائل من اخترعوا فن الموشحات . وله القليل منها مما بقى من ادبه محفوظاً فى كتب الأدب الأندلسى ومصادره .

وبعد فهذه صورة مصغرة لهذا الرجل ، الذى لقب بحق حكيم الاندلس والذى شغل الفكر الاندلسى حياً وميتاً ، وكان اول من فكر فى الطيران ، والذى مضى على وفاته احد عشر قرناً من الزمان او يزيد .

من أحداث التاريخ الاسلامى

قل اللهم مالك الملك ، «تؤتى الملك من تشاء ، وتنزع الملك ممن تشاء، وتعز من تشاء ، وتذل من تشاء ».. وهكذا أراد ولا راد لمشيئته،أن تنتهى حياة دولة ، وتفتتح صفحات دولة جديدة .

فى يوم الجمعة ١٣ ربيع الأول عام ١٣٢ ﻫ (٣٠ أكتوبر عام٧٤٩م) صعد أبو العباس السفاح منبر الكوفة مهيباً جليلا ، ووقف بين أعوانه وجنده ودعاته ، المؤمنين بحق آل البيت فى الخلافة ، الناقين على بنى أمية جورهم واضطهادهم لآل محمد . وجمهور المسلمين يهللون ويكبرون ، وأبو العباس فى أعلا المنبر ، وعمه داود بن على قائم على المنبر دونه ، ثم أخذ أبو العباس يخطب الناس فحمد الله وأثنى عليه ، وفخر بقرابته من رسوله ، وذكر الخلفاء الراشدين وأثنى عليهم ، ونعى على بنى حرب وبنى مروان أثرتهم وظلمهم ، وكان فيما قال : « وزعمت الشامية الضلال أن آن غيرنا أحق بالرياسة والخلافة منا ، فشاهت وجوههم ، ولم أيها الناس؟ وبنا هدى الله الناس بعد ضلالتهم ، وبصرهم بعد جهالتهم ، وأنقذهم بعد هلكتهم ، وأظهر بنا الحق ، وأدحض الباطل ، وأصلح بنا منهم ما كان فاسداً ، وإنى لأرجو ألا يأتيكم الجور من حيث جاءكم الخير ، ولا الفساد من حيث جاءكم الصلاح ، وما توفيقنا أهل البيت إلا بالله .ياأهل الكوفة أنتم محل محبتنا ، ومنزل مودتنا ، فأنتم أسعد الناس بنا ،وأكرمهم علينا.. ثم وعدهم وأوعدهم إلى أن قال : « فاستعدوا فأنا السفاح المبيح ، والثائر المبير » . . وبهذا لقب السفاح . وكان مريضا فاشتد به المرض فجلس على

المنبر ، وقام عمه داود بن على فخطب فقال فيما قال : الحمد لله شكراً شكراً شكرا ، الذى أهلك عدونا ، وأصار الينا ميراثنا من نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، أيها الناس : الآن طلعت الشمس من مطلعها ، وبزغ القمر من مبزغه ، وأخذ القوس باريها ، ورجع الحق إلى نصابه ، فى أهل بيت نبيكم ، أهل الرأفة ، والرحمة بكم ، والعطف عليكم » . ثم ذكر سياسة بنى أمية الخرقاء ، وقال : « أيها الناس : « لكم ذمة الله وذمة رسوله صلى الله عليه وسلم ، وذمة العباس رحمه الله ، أن نحكم فيكم بما أنزل الله ، ونعمل فيكم بكتاب الله ، ونسير فى العامة منكم والخاصة بسيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم » ، ثم أثنى على أهل الكوفة ، ومدح جند خراسان ،وقال فى آخر خطبته : « ألا وإنه ما صعد منبركم هذا خليفة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا أمير المؤمنين على بن أبى طالب ،وأمير المؤمنين عبدالله ابن محمد - وأشار بيده إلى أبى العباس - فاعلموا أن هذا الأمر فينا ، ليس بخارج منا ، حتى نسلمه إلى عيسى بن مريم صلى الله عليه وسلم .والحمد لله رب العالمين ، على ما أبلانا وأولانا » .

ونزل أبوالعباس ، وداود بن على أمامه ، حتى دخل القصر ، وأجلس أخاه أبا جعفر ، ليأخذ البيعة على الناس فى المسجد ، فلم يزل كذلك حتى صلى بهم العصر ثم المغرب ، وجنهم الليل فدخل .

وبذلك بدأت دولة جديدة ، وقامت خلافة بنى العباس .. التى كان قيامها حدثا عجيبا فى تاريخ الأمة الاسلامية .

ونحن نعلم أن الأمويين اضطهدوا آل النبى وشردوهم ، ونفوا بعضهم واعتقلوا البعض الآخر فى قرى قريبة من عاصمتهم « دمشق » . . . وشمل

هذا الاضطهاد: البيت العلوى من ينسبون إلى ابن عم النبى على بن أبى طالب، والبيت العباسى «الذين ينسبون إلى العباس[١] بن عبد المطلب، عم رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وكان العلويون منذ قامت الدولة الأموية عام ٤١ هـ، يطالبون بخلافة المسلمين ، وأخذت شيعتهم تدعو لهم فى العراق ، ورشحوا للأمامة من ذرية على كرم الله وجهه سيدا بعد سيد .

فكانوا يدعون للحسن ، فلما توفى عام ٥٠ هـ دعوا للحسين ، فلما قتل بكربلاء عام ٦٣ هـ دعوا لأخيهما الأصغر : محمد بن الحنيفة، فلما مات محمد ذهب جمهورهم إلى إمامة ابنه أبى هاشم بن محمد .

وكان أبو هاشم العلوى مقيما فى «الحميمة[٢]» بالقرب من بادية الشام، حيث أقام على بن عبد الله بن العباس (٤١ - ١١٨ هـ) هو وأولاده ، منفياً ، بأمر الوليد بن عبد الملك خليفة «بنى أمية» ولما حانت منية أبى هاشم فى «الحميمة» ، ولم يكن له أبناء يرثونه ، رشح لإمامة الشيعة بعده ابن عمه «على[٣] بن عبدالله بن العباس» ، وأدلى بنصيبه من الخلافة اليه وإلى أولاده ، وأوصى أولياءه باتباعه ، فصارت الشيعة مع بنى العباس وورث محمد بن على (٦٢ - ١٢٥ هـ) بعد أبيه هذا الشرف ، فاصبح

---

(١) ولد العباس قبل مولد الرسول بعامين ، ومات بالمدينة عام ٣٢ هـ ، وكان شاعراً مفلقا وكان يستسقى به فى الجدب ـ وابنه عبدالله بن العباس حبر الأمة ، وولد قبل الهجرة بثلاث سنوات وتوفى عام ٦٨ هـ .

(٢) هى قرية بالشراة من أرض الشام على طريق المدينة من دمشق .

(٣) ويرى بعض المؤرخين أن أبا هاشم تنازل لمحمد بن على بن عبد الله بن العباس لا لـه على .

الإمام المختار ، وقام أتباعه بالدعوة لولاية أهل البيت ، وألفوا الجماعات السرية فى الكوفة وخراسان ، لنشر مذهبهم السياسى ، والدعوة إلى عودة الخلافة لآل محمد ، وإلى أحقية ساداتهم بها ، وإلى القضاء على دولة بنى أمية ، لأنها اغتصبت خلافة المسلمين من بيت الرسول ، واضطهدت آله وعترته ، وقتلت الحسين فى كربلاء ، وارتكبت من الآثام والمنكرات مالا يعيه العد . . وكان محمد بن على يبصر دعاته بأساليب الدعوة ، والبلاد التى يبثون فيها مذهبهم ، وكان يوصيهم بالتوجه إلى خراسان ، حيث « المشرق ومطلع سراج الدنيا ومصباح الخلق » وحيث ضعف سلطان بنى أمية ، وسلامة القلوب والصدور ، والبعد عن العصبيات والأحزاب السياسية ، والحب لآل النبى وسلالته .

ومات محمد بن على بعد أن أوصى إلى ابنه ابراهيم ، فقام بأمر الدعوة بعده ، ولكن مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية حبس ابراهيم حتى مات فى الحبس ، وكان قد أوصى بالأمر بعده إلى أخيه أبى العباس .

ونجح الدعاة فى جمع الأنصار ، وتكوين الكتائب ، وغزو البلاد ، وأنزلوا بجيش الأمويين أفدح الخسائر ، وطردوا ولاتهم فى خراسان وفارس ، وكان والى خراسان من قبل بنى أمية نصر بن سيار يستغيث بهم فلا يغيثونه ، كتب مرة إلى مروان بن محمد يقول له :

أرى خلل الرماد وميض جمر ... ويوشك أن يكون له ضرام
فإن النار بالعودين تذكى ... وإن الحرب أولها كلام
أقول من التعجب ليت شعرى ... أأيقاظ أمية أمم نيام ؟
فإن يك قومنا أضحوا نياما ... فقل : قوموا فقد حان القيام
فقرى عن رحالك ثم قولى ... على الاسلام والعرب السلام

فرد عليه مروان ـ وكان مشغولا بحرب الخوارج فى الجزيرة ـ يقول: إن الحاضر يرى مالا يراه الغائب ، فاحسم أنت هذا الداء الذى قد ظهر عندك » . . وكان قائد جيش الشيعة هو أبو مسلم الخراسانى الذى هزم عمال بنى أمية ، وفتح خراسان كلها ، ثم انطلق يغزو العراق، فدخلت جيوشه مدينة « واسط » ، ثم دخل أبو سلمة الخلال أحد قواده «الكوفة» فى صفر عام ١٣٢ هـ ، فأنزل أهل البيت فى إحدى دور الكوفة ، وكتم أمرهم عن سائر القواد أربعين ليلة ، وكان « أبو سلمة » يلقب بوزير أهل البيت ، وفوجىء الناس — بعد أن استتب الأمر للعباسيين فى خراسان والعراق — بصعود أبى العباس منبر الكوفة فى ١٣ ربيع الأول عام ١٣٢ هـ ، معلنا بدء الخلافة العباسية الجديدة .

وكان لابد لجيوش بنى العباس المتدفقة كالسيل أن تصطدم بجيش بنى أمية، وحدث ذلك ، فلاقوا مروان وجنده على نهر الزاب(١) الأعلى، وانتصروا عليهم انتصاراً ساحقاً ، وقضوا على ١٢٠ الفا من نخبة أهل الشام وجنود بنى أمية ، فى ١١ جمادى الآخرة عام ١٣٢ هـ ، وفر مروان إلى حران ثم قنسرين فحمص فدمشق ، والعباسيون فى طلبه ، ثم خرج إلى الأردن وفلسطين ، حتى أتى الفسطاط ، ونزل بقرية «بوصير» النائية من قرى الواسطى ببنى سويف ، فتبعه العباسيون حتى قبضوا عليه فيها وقتلوه فى ٢٧ ذى الحجة عام ١٣٢ هـ .

وأخذ العباسيون يقتلون آل أمية ، ويتبعونهم فى كل مكان، ويقبضون على رجال دولتهم ، ويقضون على فلول جيوشهم .. دخل سديف الشاعر

(١) أحد روافد دجلة .

مولى بنى العباس على السفاح، فألنى بمجلسه سليمان بن هشام هادئا مطمئنا لتأمين أبى العباس إياه ، فأنشد :

لا يغرنك ماترى من رجال ... إن بين الضلوع داء دويا
فضع السيف وارفع السوط حتى ... لا ترى فوق ظهرها أمويا

فأمر السفاح من فوره بقتل سليمان ناكثا بعهد أمانه . ، ودخل شبل بن عبد الله مولى بنى هاشم عليه ، أو على عمه ، وعنده من بنى أمية نحو نحو المائة فأنشد :

أصبح الملك ثابت الأساس ... بالبهاليل من بنى العباس
طلبوا وتر هاشم فشفوها ... بعد ميل من الزمان وياس
لا تقيلن عبد شمس عثارا ... واقطعن كل رقلة وغراس
ذلها أظهر التودد منها ... وبها منكم كحز المواسى
ولقــد ساءنى وساء قبيلى ... قربهم من نمارق وكراسى
أنزلوها بحيث أنزلها ... الله بدار الهوان والإتعاس

فأمر بهم جميعاً فقتلوا ... وكان ممن قبض عليه كاتب بنى أمية البليغ عبد الحميد بن يحيى الكاتب ، الذى أخذ فى البحرين وهو عند صديقه ابن المقفع ، فقتل عام ١٣٢ هـ : ولم يستطع النجاة من بنى امية إلا عبد الرحمن ابن معاوية ابن هشام بن عبد الملك الذى فر إلى الأندلس ، وأقام بها دولة أموية عام ١٣٨ هـ ، وكان المسودة قتلوا أهل بيته ، واتبعوه فنجا منهم.. وبهذا انتهت دولة بنى أمية ، وقامت دولة بنى العباس ؛ وصدق قول محمد ابن على : « إن أمرنا هذا شرق لا غرب ، ومقبل لا مدبر ، يطلع كطلوع الشمس ، ويمتد على الآفاق امتداد النهار »

ذكريات خالدة لرسول الاسلام

مولد النور الأعظم

بداية عهد جديد فى تاريخ الإنسانية

— ١ —

ذلك النور السماوى العظيم ، الذى كان يظهر بين الحين والحين ، مبشراً برسالة سماوية جديدة ، فيها خير الحياة والوجود ، لابد أن يظهر مرة أخرى على الأرض ليبدد الظلمات ، ويحارب الأوهام والضلالات، ويمحو ما ران على قلوب الناس من أباطيل وأساطير ، وجمود وجهل ، وعصبية أثيمة كاذبة .

وذلك الناموس الذى كان ينزل على إبراهيم وموسى وعيسى والانبياء من قبل ، لابد أن ينزل على رسول كريم من جديد : ليدعو الناس إلى أمثل الأخلاق ، وأكرم الآداب ، وأفضل الشرائع .

بهذا كان أهل الكتاب يتحدثون ، وبه كانوا يؤمنون ، تصديقا لبشارة الأنبياء والكتب السماوية بظهور إمام الأنبياء وخاتم المرسلين .

ومرت الأيام بطيئة مسرفة فى بطئها . والظلام يشتد ، والظلم والاستبداد والطغيان ينتشر ، والوثنية والشرك يصبحان عقيدة الناس فى الحياة ، وتوالت البشارات تجدد الأمل ، وتحيي الرجاء ، وتؤمن الناس على مستقبل الإنسانية ، وتنبئهم بقرب بزوغ نور الفجر الجديد .

لابد أن ينهار ملك كسرى وقيصر . لأنه يقوم على أسوأ النظم والشرائع والعقائد ، ولأن عهد استعمارهما للعالم لابد أن ينقرض ، والحرية الكبرى منذا يصد تيارها الزاخر القوى المندفع بقوة الله ؟

وهؤلاء الباحثون عن الحقيقة الكبرى : ورقة بن نوفل الأسدى ، وزيد بن عمرو بن نفيل العدوى، وعثمان بن الحويرث الأسدى ، وعبيدالله ابن جحش. يجتمعون فى الجزيرة العربية فى يوم عيد لهم ، فيقول بعضهم لبعض: تعلمن والله ما قومكم على شىء ، لقد أخطأوا دين أبيهم إبراهيم ، ما حجر نطيف به لا يبصر ولا يضر ولا ينفع ؟ يا قوم التمسوا لأنفسكم فإنكم والله ما أنتم على شىء ... وذهبوا يطوفون فى البلاد يلتمسون الحنيفية دين إبراهيم .

وكان زيد يسند ظهره إلى الكعبة ويقول : يا معشر قريش : والذى نفس زيد بيده ما أصبح أحد منكم على دين إبراهيم غيرى ، ثم يقول : والله لو أعلم أحب الوجوه إليك عبدتك به ، ولكنى لا أعلمه ، ثم يسجد على راحلته .

وفى مكة فى صباح يوم خالد ميمون ، ولد محمـــد بن عبد الله بن عبدالمطلب، تسبقه إرهاصات ، وتحف بمولده الكريم معجزات وكرامات، وتسير معه يوما بعد يوم بشريات وأى بشريات ، ويحفظ الناس ما ذاع من ذكريات مولده ونشأته الكريمة المعطرة . وبدأ النور الإلهى فى الأفق وأخذ الناموس السماوى يستعد لآخر رحلة له إلى الأرض .

وشب الغلام ونما ، نبيلا شريفا وسيدا سريا ، وفتى زكيا ، ولتى قومه وقوم مرضعته الثناء والخير على وجهه الأغر ، وقدمت به حليمة السعدية على أمه بعد فصاله ، ترجو أن تطيل لبث فتاها عندها ، متعللة بوباء مكة ، فقبلت آمنة بنت وهب ، ورجعت به حليمة فرحة مستبشرة .

وبعد شهور كان الغلام محمد يلعب ومعه ابن حليمة خلف الرحال ،

وبعد قليل جاء أخوه يشتد ، وهو يقول : ذاك أخي القرشي قد أخذه رجلان ، فأضجعاه فشقا بطنه ، فهما يسوطانه . فخرجت حليمة وزوجها نحوه ، فوجدته قائما منتقعا وجهه فالتزمته هي وزوجها ، وقالت : مالك يا بني ؟ قال : جاءني رجلان ، عليهما ثياب بيض ، فأضجعاني وشقا بطني فالتمسا شيئا لا أدري ما هو . فتخوفت عليه حليمة ، وقدمت به على أمه، وقصت عليها القصص ، فقالت آمنة : إن لبني لشأنا أفلا أخبرك خبره ؟ قالت حليمة : بلى ، قالت : رأيت حين حملت به أنه خرج مني نور أضاء لي به قصور بصرى من أرض الشام ؛ ثم حملت به فوالله مارأيت من حمل قط كان أخف ولا أيسر منـــه ، ووقع حين ولدته وإنه لواضع يديه بالأرض رافع رأسه إلى السماء دعيه عنك وانطلق راشدة .. وما أصدق ما يقول محمد بعد ذلك : أنا دعوة أبي إبراهيم ، وبشرى عيسى

ورأى بحيرا الراهب محمداً الغلام ، في بصرى بأرض الشام ، مع عمه أبي طالب ، فرأى المعجزة الكبرى قريبة منه ، فأخذ يحدث محمداً ويسأله ثم قال لعمه : اذهب بابن أخيك إلى بلده واحذرعليه فإن له لشأنا عظيما

وسمع ورقة بن نوفل ما كانت تتحدث به خديجة بنت خويلد عن محمد وشأنه ، وكان عالما بالديانات والكتب السماوية ، فقال لها : لئن كان هذا حقا يا خديجة إن محمداً لنبي هذه الأمة ، وقد عرفت أنه كائن لهذه الأمة نبي ينتظر ، هذا زمانه .. وجعل ورقة يستبطيء مرور الأيام ، ويقول : حتى متى رسالة الله ؟

— ٢ —

وبينما كان محمد يتعبد بغار حراء ، جاءه جبريل بما جاءه من كرامة الله ، يبلغه رسالة الله ، ويحمله أمانته .

ورأى محمد ما رأى من الآيات الكبرى، وسمع الصوت الالهي يناديه من كل مكان : يا محمد أنت رسول الله وهذا جبريل . ورجع إلى خديجة ينبئها النبأ ، فقالت : أبشر يا ابن عم واثبت ، فوالذى نفس خديجة بيده إنى لأرجو أن تكون نبى هذه الأمة ، ثم انطلقت إلى ابن عمها ورقة بن نوفل تقص عليه القصص ، فقال ورقة : قدوس قدوس ، والذى نفس ورقة بيده ، لئن كنت صدقتنى ياخديجة لقد جاءه الناموس الأكبر الذى كان يأتى موسى وإنه لنبى هذه الأمة .. ولقيه ورقة فى الكعبة وهو يطوف بها فقال : يا أخى والذى نفسى بيده إنك لنبى هذه الأمة، ولقد جاءك الناموس الأكبر الذى جاء موسى .

ونزل القرآن الكريم دستور هذه الرسالة المحمدية العظمى ، وجاهد الرسول ومن آمن معه جهاد الابطال ليبلغ رسالة ربه إلى الناس كافة ، وليحمى حرية الدعوة إلى الدين من أذى المشركين وطغيانهم .

وقبيل الهجرة ، بينما رسول الله صلوات الله عليه نائم فى بيت أم هانىء عمته إذ جاء جبريل وملائكة معه ، فأضجع محمداً وشق صدره ، وأسرى به إلى بيت المقدس فصلى بالانبياء والرسل إماما ، ثم أتى بثلاثة آنية : من لبن وخمر وماء ، فأخذ إناء اللبن فشرب منه ، فقال له جبريل : هديت وهديت أمتك يامحمد ، ثم عرج إلى السماء ، فاستقبلته الملائكة والرسل والنبيون ، حتى إذا كان بالافق الاعلى ، وقف أمام ربه يناجيه ، وثبته الله بالقول الصادق ، والإيمان الحق ، واليقين النبوى العظيم .

وهاجر محمد إلى المدينة ، وأنقذ الدعوة من خطر المشركين وأذاهم وصدهم ، فذاعت فى كل مكان ، ودعا إليها الناس كافة ، وأرسل بنبئها الرسل إلى الامراء والملوك والاقيال .

ثم اختاره الله إلى جواره الكريم ، بعد أن أنشأ أمة ، وأسس دولة، ونشر شريعة الله ودينه الحق فى العالم كله .

صلوات الله وسلامه عليه يوم ولد ويوم مات ويوم يبعث حيا ، وصلوات الله عليه كلما ذكره الذاكرون ، وحمده الحامدون .

— ٣ —

وخفقت أعلام الاسلام وبنوده فى كل مكان ، وانطلق هداته ودعاته فى كل قطر ، يبشرون الانسانية بهدى الله ، ويحررون العقول من جمود التقليد والجهل والخرافات ... يبشرون بحريات الناس والشعوب ، ويطلقون الامم من إسارها ؛ ويرفعون عنها الاغلال التى قيدها بها الملوك المستبدون ، والقياصرة المتكبرون ، ويمحون ظلال الاستعمار والاضطهاد من الارض ؛ ويبطلون ما تعارفت عليه الاجيال من آراء زائفة ، وأفكار باطلة ، وتقاليد ضالة ، فليس الحاكم ظل الله فى الارض ، وليست الامم ملكا لملك ، وليس الحكم مغنما لامير ، وليست هناك وصاية على أمة ، ولا حجر على جماعة ، ولا استغلال أو نهب لمرافق طائفة من الناس لحساب طائفة أخرى . . الحكم شورى ، ولا يجوز أن يستعبد الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً . . العدالة والانصاف والمساواة والاخاء والحرية حق لكل إنسان فى الحياة .

— ٤ —

وبعد قليل كانت الجامعات الإسلامية فى قرطبة ، وطليطلة ، وغرناطة ، وفى القيروان والمهدية ، وفى الفسطاط والقاهرة ، وفى دمشق وحلب ، وفى بغداد والبصرة والكوفة ، وفى بخارى وخوارزم وقزوين ، وفى كل

مكان ... كانت تعج بالطلاب والأساتذة ، وتنشر العلم والثقافة والنور فى كل ناحية ، وتقوم على حرية البحث والفكر والرأى ، وعلى الاخلاص فى خدمة الحقيقة ، وعلى التعاون الانسانى بين شتى العناصر والألوان والأجناس والشعوب، لخدمة الانسانية والرقى بالحياة .

بينما كانت أوربا تنام فى الظلام ، وتعيش على الأوهام ، وتحيا على الجهل والجمود والقذارة والحجر على الحريات ، وتنتقل من عصور الرق البائدة إلى عهود الأقطاع القاسية المستبدة .

فمن مثل محمد فى عظمته وجليل أثره على الدنيا ، وعظيم أياديه على الحياة ؟ ومن مثله من الدعاة والمصلحين والزعماء والفاتحين ، نجح فى رسالته ذلك النجاح المنقطع النظير ؟ ، ومن مثله كان يعمل لأغراض إنسانية عالية ، فينسى نفسه وأهله وقومه ، ويجاهد لتحطيم رؤوس الضلال ، وشياطين الظلام فى كل مكان ؟ ومن مثله كان مع هذا السلطان العظيم ، والنفوذ الضخم ، يعيش مع الفقراء ، ويحيا مع المساكين ، ويعمل فى مهنة أهله ، ويأكل التمر ، ويقنع بالخبز ، مع حسن العشرة والأدب والتواضع والرحمة والرأفة والوفاء وحسن العهد ، وصلة الرحم والعدل والعفة ، والأمانة والصدق ، والاخلاص لله رب العالمين ؟ ومن مثله حطم رؤوس الاستعمار فى كل مكان ، وهدم الاستبداد فى شتى صوره وأشكاله ، وأقام للحرية مناراً عالياً يفيء إلى ظله كل إنسان ؟

إنه لرسول الله إلى الناس كافة ، ونبى البشرية الذى أنقذ الدنيا من ظلمات الجاهلية الأولى ، وقائد العالم إلى النور والعدالة والخير والمساواة . وخاتم الأنبياء والمرسلين . . وصدق الله العظيم : « ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ، ولكن رسول الله وخاتم النبيين ، وكان الله بكل شىء عليما»

حديث الهجرة

عند ما يشرق فى الأفق هلال المحرم الوليد ، ويسطع فى الكون نور فجره الجديد ، تعبق الذكريات الخالدة المجيدة ، وتضىء أنوار المعجزات النبوية الكريمة ، ونتذكر من بين هذه المعجزات معجزة الهجرة الباقية على وجه الزمان ، هجرة محمد صلوات الله عليه من وطنه مكة إلى المدينة ، وهى التى اتخذها عمر بن الخطاب مبدأ التاريخ الاسلامى ، وافتتح بذكرها الطيب شهور السنة العربية . وهى حادث فذ فى تاريخ الانسانية ، وحديث عذب فى سلسلة أحاديث السيرة المحمدية ، ومثل عظيم من أمثلة الدفاع عن الحق والحرية .

إن يوم الهجرة لهو يوم البطولة والكرامة ويوم المعركة المجيدة العنيفة التى نشبت بين الحق والباطل ، والهدى والضلال ، والنور والظلام ، والإيمان والكفر ، والرشد والغى ، والشرف والفساد . فهو يوم التاريخ والسلام ، وإنقاذ البشرية من الاستبداد والطغيان والأهواء والأوهام . بل هو عيد البشرية الأكبر ، وعيد الأخاء والمساواة والحرية والتضحية والمثل الرفيعة فى حياة الناس .

تلقى محمد صلى الله عليه وسلم رسالة ربه وهو فى سن الأربعين ، فصدع بالأمر ، وأخذ يبلغها قومه وعشيرته ، ويكافح قوى الشرك والوثنية والجمود والطغيان فى مكة ، ويجاهد فى سبيل الله والحق ونشر كلمة التوحيد جهاد الأبطال ، جهادا لم تعرف الدنيا له مثيلا ، طيلة ثلاثة عشر عاما ، دعا فيها الناس كافة إلى الهدى والنور ، والرحمة والخير ، والمساواة والأخاء والعدالة ، وإلى الحق والحرية والطهر والشرف واحترام حقوق الإنسان والضعفاء والفقراء .

ولكن آذان الشرك لم تتفتح لسماع كلمة الحق والعدل ، وامتدت يد الطغيان إلى محمد وأصحابه ومن آمن به بالأيذاء والتهديد والبطش والوعيد وحاول المشركون فى مكة أن يكموا فم الرسول وأفواه أصحابه ودعاته ، حتى لا يفتتنوا الناس عن دين آبائهم وأجدادهم ، وتوعدوا من آمن منهم بمحمد بالعذاب الشديد ، ووقفوا يحولون بين الرسول وتبليغ رسالته بكل ما يستطيعون من وسائل ، منعوه بالقوة أن يلتقى القبائل ويقرأ عليهم القرآن ، ونشروا حوله دعايات كاذبة أثيمة ، فقالوا : هو شاعر ، وهو ساحر ، وبه جنة ، وهى أساطير الأولين اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلا . ومحمد صامد فى موقفه ، يهزأ بهم ، ويسخر مما يقولون ، ويقول فى إباء وشمم : والله لو وضعوا الشمس فى يمينى ، والقمر فى يسارى ، على أن أترك هذا الأمر ، ماتركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه ،

وائتمرت قريش والمشركون بمحمد ، وهددوا عمه أبا طالب بالحرب وضيقوا عليه وعلى عشيرته ، وقاطعوهم أعواما ثلاثة ، واضطهدوا أنصاره وشردهم ولاحقوهم فى البلاد ، وصدوا الناس عنه وفرقوهم من حوله ، وماتت خلال هذه المعركة الدامية خديجة زوج محمد ، وأبو طالب عمه ، وأقاموا حوله نطاقا من حديد . ولكن الله أراد لرسوله النصر ، ولدينه الفوز ، وللمؤمنين الغلبة ، فانتشر الإسلام خفية فى المدينة ، عن طريق حجاج بيت الله العتيق من الأوس والخزرج ، وعقد الرسول معهم حلفا ، وبايعهم على أن يمنعوه مما يمنعون منه أنفسهم وأموالهم ، ولو كان فى ذلك هلاك الأموال وقتل الأشراف ، ولهم الجنة . وأذن الرسول لأصحابه والمضطهدين من المسلمين بالهجرة إلى المدينة ، وهو خلال ذلك هادئ النفس رابط الجأش ، يقول لهم : « أيها الناس : قولوا لا إله إلا الله

تفلحوا ، وتملكوا بها العرب ، وتدين لكم بها العجم ، فإذا فعلتم كنتم ملوكا ، لكم الجنة ».

وأجمعت قريش « والمشركون فى مكة على قتل محمد ، بيد فتيان أقوياء من أبناء القبائل العربية جميعا ، حتى يذهب دمه هدرا . ونبأ الله رسوله بالشر المدفون فى قلوب رؤساء المشركين ، فذهب إلى أبى بكر فى حر الظهيرة اللافح ، يعلمه بالأمر ، وينبئه أن الله قد أذن له بالهجرة إلى المدينة لينجو من الشرك وأهله ، ومن ظلم ذوى القربى ؛ وليجد حرية الرأى والعقيدة فى مكان أرحب ، وعند قوم أشربت قلوبهم حب الإيمان ، وملأت مشاعرهم آياته ، واستعدوا للدفاع عن حياض الحق ، ومحاربة الباطل ، وباعوا أنفسهم فى سبيل الله . فبكى أبو بكر ، وأخذ يعد للأمر عدته ، ويهىء له أهبته .

ولنترك عائشة أم المؤمنين ، تحدثنا حديث هذا اليوم الخالد ، وما سبقه من أيام عظيمة خالدة ، قالت عائشة فيما رواه البخارى عنها : لم أعقل أبوى قط إلا وهما يدينان الدين ، ولم يمر علينا يوم إلا يأتينا فيه رسول الله طرفى النهار بكرة وعشية ، فلما ابتلى المسلمون خرج أبو بكر مهاجرا نحو أرض الحبشة ، فلقيه ابن الدغنة ـ وهو سيد من سادات العرب ـ فقال: أين تريد يا أبا بكر ؟ قال : أخرجنى قومى فأريد أن أسيح فى الأرض وأعبد ربى ، فقال ابن الدغنة فإن مثلك لايخرج ولايخرج ، إنك تكسب المعدوم وتصل الرحم ، وتحمل الكل ، وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الحق ، فأنا لك جار ، ارجع واعبد ربك ببلدك ، فرجع وارتحل معه ابن الدغنة فطاف الرجل عشية فى أشراف قريش ، فقال لهم : إن أبا بكر لايخرج مثله ولا يخرج ، أتخرجون رجلا يكسب المعدوم ، ويصل الرحم ، ويحمل

الـكل ، ويقرى الضيف ، ويعين على نوائب الحق ، فلم تـكذب قريش بجواره ، وقالوا له : مر أبا بكر فليعبد ربه فى داره ، فليصل فيها ، وليقرأ ما شاء ، ولا يؤذينا بذلك ولا يستعلن به ، فإنا نخشى أن يفتن نساءنا وأبناءنا.. فقال ذلك ابن الدغنة لأبى بكر ، فلبث أبو بكر بذلك يعبد ربه فى داره ، ولا يستعلن بصلاته ، ولا يقرأ فى غير داره .ثم . بدا لأبى بكر فابتنى مسجداً بفناء داره ، وكان يصلى فيه ويقرأ القرآن ، فينقذف عليه نساء المشركين وأبناؤهم وهم يعجبون منه ، وينظرون إليه ، وكان أبو بكر رجلا بكاء ، لا يملك عينيه إذا قرأ القرآن ، وأفزع ذلك أشراف قريش من المشركين ؛ فأرسلوا إلى ابن الدغنة فقدم عليهم ، فقالوا إنا كنا أجرنا أبا بكر بجوارك ، على أن يعبد ربه فى داره ، فقد جاوز ذلك فابتنى مسجدا بفناء داره ، فأعلن الصلاة والقراءة فيه ، وإنا قد خشينا أن يفتن نساءنا وأبناءنا ، فانهه ، فإن أحب أن يقتصر على أن يعبد ربه فى داره فعل ، وإن أبى إلا أن يعلن بذلك فسله أن يرد إليك ذمتك ، فإنا قد كرهنا أن نخفرك [1] ، ولسنا مقرين لأبى بكر الاستعلان ، فأتى ابن الدغنة إلى أبى بكر فقال : قد علمت الذى عاقدت لك عليه ؛ فإما أن تقتصر على ذلك ، وإما أن ترجع إلى ذمتى ، فإنى لا أحب أن تسمع العرب أنى أخفرت فى رجل عقدت له ، فقال أبو بكر : فإنى أرد إليك جوارك ، وأرضى بجوار الله عز وجل .. والنبى صلى الله عليه وسلم يومئذ بمكة ؛ (وقد) هاجر من هاجر قبل المدينة ، ورجع عامة من كان هاجر بأرض الحبشة إلى المدينة ؛ وتجهز أبو بكر قبل المدينة — للهجرة إليها — فقال له رسول الله : على رسلك ، فإنى أرجو أن يؤذن لى — أى بالهجرة إلى المدينة — فحبس

---

(١) أى ننقض عهدك

أبو بكر نفسه على رسول الله ليصحبه »

قالت عائشة : « فبينما نحن يوماً جلوس فى بيت أبى بكر فى نحو الظهيرة ، قال قائل لأبى بكر : هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم متقنعاً ، فى ساعة لم يكن يأتينا فيها ، فقال أبو بكر : فداء له أبى وأمى ، والله ما جاء به فى هذه الساعة إلا أمر . فجاء رسول الله ، فاستأذن ، فأذن له ، فدخل ، فقال لأبى بكر : أخرج من عندك ، فقال أبو بكر : إنما هم أهلك ، بأبى أنت يارسول الله ، قال : فإنى قد أذن لى فى الخروج ، فقال أبو بكر : الصحبة بأبى أنت يارسول الله ، قال رسول الله : نعم ، قال أبو بكر : فخذ بأبى أنت يارسول الله إحدى راحلتى هاتين .. قالت عائشة : فجهزناهما أحث الجهاز — أى أسرعه — وصنعنا لهما سفرة — أى زاداً — فى جراب ، فقطعت أسماء بنت أبى بكر قطعة من نطاقها — أى حزامها — فربطت به على فم الجراب ، فبذلك سميت ذات النطاقين »

بات فى تلك الليلة الموعودة « على » مكان رسول الله وخرج محمد صلوات الله عليه وصاحبه فى ظلمات الليل من مكة على خفيـــة . بين العيون والأرصاد ، والسيوف والأحقاد ، والفتيان المتراصين حول بيته الشريف لسفك دمه فى آخر الليل ، وسار معه أبو بكر حتى وصلا غارا بجبل ثور ، وهو قرب مكة على مسيرة ساعة ، فدخلاه ، ومكثا فيه ثلاث ليال ، وقريش يكاد يذهلها الجنون ، ويقتلها الغيظ ، وقصاصو الأثر فى كل مكان وطريق يبحثون عن محمد وصاحبه ، ليردوهما إلى مكة سالمين أو مقتولين ، حتى وصلوا إلى الغار ، والصديق يقول : إن أحدهم لو نظر إلى قدميه لرآنا ، ويقول للرسول : لست أخاف الموت ، فأنا رجل واحد ، ولكنى أخاف عليك ، فإنك إن قتلت هلكت الأمة ،

وإن تصب اليوم ذهب دين الله ، فقال له الرسول : لا تحزن إن الله معنا وما ظنك باثنين الله ثالثهما ، ويقول : اللهم اعم أبصارهم .. قالت عائشة : وكان يبيت عندهما عبد الله بن أبى بكر وهو غلام شاب ، فيدلج — أى يخرج — من عندهما بسحر . فيصبح مع قريش بمكة ، فلا يسمع أمراً إلا وعاه ، حتى يأتيهما بخبر ذلك حين يختلط الظلام ، يفعل ذلك فى كل ليلة من تلك الليالى الثلاث .

وبعد أن خف طلب المشركين لها جاءهما رجل أمناه ، براحلتيهما ، صبح ثلاث ليال ، وأخذ طريق الساحل إلى المدينة وكان كفار قريش قد جعلوا فى رسول الله وأبى بكر دية كل واحد منهما لمن قتله أو أسره ، فخرج سراقة بن خثعم بفرسه ورمحه سائراً فى الصخر يبحث عن الرجلين ، حتى سمع قراءة رسول الله وهو لا يلتفت ، وأبو بكر يكثر الالتفات ، فساخت يدا فرسه فى الأرض فنزل من فوقها وأقامها . ثم ركبها ، حتى جاء رسول الله وأبا بكر ، فقال : يا محمد إن قومك قد جعلوا فيك الدية ، وقص عليهما قصص الناس وما يريدونه بهما ، وعرض سراقة عليهما الزاد والمتاع فلم يأخذا شيئا ، وقالا له : اكتم عن الناس خبرنا ، وكتب له الرسول كتاب أمن وسار رسول الله ، فلقى الزبير بن العوام فى ركب من المسلمين كانوا قافلين من الشام بتجارتهم ، فكسا الزبير رسول الله وأبا بكر ثيابا بيضا ، وسمع المسلمون بالمدينة خروج محمد من مكة ، وهجرته إلى بلدتهم الطيبة ، فكانوا يخرجون كل يوم ينتظرونه حتى يردهم حر الظهيرة ، فرجعوا يوما إلى بيوتهم بعدما أطالوا انتظارهم ، فلما أووا إلى بيوتهم اطلع رجل من اليهود من فوق حصن من حصونهم لأمر من أموره ، فشاهد محمداً وصاحبه قادمين نحو المدينة ، فصاح بأعلى صوته : يا معشر العرب هذا

رسولكم وجدكم — أى حظكم — الذى تنتظرون ، فهب المسلمون وأخذوا السلاح ، يتلقون رسول الله خارج المدينة ، فوصل إليها يوم الاثنين تاسع شهر ربيع الأول ، والنساء والأطفال والرجال ينشدون :

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا ما دعا لله داع

وأقام رسول الله فى حى بنى عمرو بن عوف بضع عشرة ليلة وأسس المسجد الذى أسس على التقوى ، وصلى فيه رسول الله ، ثم ركب راحلته وسار يمشى معه الناس ، حتى بركت عند مكان يصلى فيه رجال من المسلمين ، فقال رسول الله . هذا إن شاء الله المنزل ، واشترى الأرض من صاحبيها وكانت لغلامين يتيمين ، وبنى فوقها مسجده النبوى الشريف ، وما فرح أهل المدينة بشىء فرحهم برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأخذ يؤلف القلوب ، ويؤاخى بين المهاجرين والأنصار ، ويحالف سكان المدينة من اليهود ، ليفرغ لبناء أول دولة إسلامية قامت على ظهر الأرض ، فأعزه الله ، وأيده بروح من عنده .

وهكذا صدق الله وعده ، ونصر عبده ، وأعز جنده ، وهزم المشركين والمفسدين والمتآمرين وحده ، إذ نجى محمد فى هجرته . وحاطه بتأييده ورعايته ، وأيده بالملائكة لحمايته ، وصدق الله العظيم حين يقول : « إلا تنصروه فقد نصره الله ، إذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين ، إذ هما فى الغار ، ، إذ يقول لصاحبه : لا تحزن إن الله معنا ، فأنزل الله سكينته عليه ، وأيده بجنود لم تروها ، وجعل كلمة الذين كفروا السفلى ، وكلمة الله هى العليا ، والله عزيز حكيم »

عاش محمد بعد الهجرة كما كان رسول رب العالمين، ومثال الإنسانية الرفيعة ، ومطلع العلم والمعرفة والحكمة ، ومشرق النور الألهى العظيم ، ورئيس الدولة الإسلامية العادل الحكيم ، والمثل الكامل للناس جميعاً ، يعلم العلماء أدق نظم الكون ، والمصلحين أكمل نظم الاجتماع، والمشرعين أصلح قواعد التشريع ، ويضع أساس دولة ليس لها نظير بين الدول على وجه الأرض ، كان هو قائدها المحنك المدرب العظيم، وبطلها المرجى المحبوب الشجاع .

حقا لقد كان الرسول جنديا شجاعا ، وبطلا موهوباً، وقائدا عظيما ، يثق فيه جنوده ، ويطيعونه طاعة عمياء ، يخوضون معه المعارك دما ولهباً ، حتى قال له المقداد بن عمرو يوم معركة بدر : يارسول الله امض إلى ما أمرك الله فنحن معك ، فو الذى بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد لجالدنا معك من دونه حتى نبلغه ، والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى : اذهب انت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون ، بل نقول إنا معكما مقاتلون .. وقال سعد بن معاذ يجيب الرسول نيابة عن الأنصار : قد آمنا بك يارسول الله وصدقناك ، فو الذى بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر لخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد ، وما نكره أن تلقى بنا العدو غدا ، وإنا لصبر فى الحرب صدق عند اللقاء ، لعل الله يريك منا ماتقر به عينك، فسر بنا على بركة الله .. وكان عمير بن الحمام فى جند رسول الله وكان حدث السن ، وبيده تمرات يأ كلها فسمع رسول الله صلوات الله عليه يقول : والذى نفس محمد بيده لايقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابرا محتسبا مقبلا غير مدبر إلا أدخله الله الجنة فنهض عميرة ، وهو يقول: بخ بخ مابينى وبين أن أدخل الجنة إلا أن يقتلنى

هؤلاء ثم قذف التمرات وأخذ سيفه وقاتل حتى قتل

ولقد جمع نبينا « محمد صلى الله عليه وسلم » صفات الزعامة الحربية ، كما جمع صفات الزعامة الدينية والسياسية ، فكان شجاعا بطلا ، ومحبوبا مطاعا من جنوده ؛ سبق إلى ابتكار أصول العسكرية وآدابها العالية الرفيعة فكان يؤلف مجالس الحرب قبل المعارك ، ليدرس هو وأصحابه من أركان حربه خطط المعركة ، والمواقع الاستراتيجية ، ويستشيرهم ويستأنس بآرائهم ، وكان قبل المعركة يبث أذكى الرجال لمعرفة أسرار العدو ، على نمط ماتفعل أقلام المخابرات العسكرية فى الدول الراقية ، وكان يعنى بالتدريب الحربى عناية فائقة ، وقد وضع محمد قاعدة السرعة والسرية فى حركاته الحربية ، ومفاجاة العدو فى مأمنه ، ومطاردة العدو بعد هزيمته فى الميدان لتصير الهزيمة فشلا كاملا وتشتيتا تاما ؛ حتى لايستطيع الأعداء التجمع من جديد لاعادة الكرة وخوض معركة أخرى ، وكان يلجأ أحيانا إلى حرب الأعصاب ، وإلى حرب الدعاية ، ويعقد المعاهدات العسكرية مع بعض القبائل العربية ، ويستعين ببعض على بعض ، ولما هزم جيشه فى معركة أحد أخذ يرسل الكتائب لتهدد أعداءه وتغير عليهم ، ليعيد للجيش الاسلامى هيبته فى نفوس المشركين والمنافقين ويهود المدينة ، وليحى فى نفوس المسلمين القوة المعنوية . ووضع الرسول الأكرم الدولة وأمنها وسلامتها فوق كل اعتبار ، كما وضع آداب الحرب ، فكان ينهى عن حرق الثمار وقتل الأطفال والنساء واليتامى ورجال الدين من اليهود والنصارى ، وينهى عن التخريب والتدمير ، ويأمر بحسن معاملة الأسرى وبدفن القتلى من أعدائه ، ويأمر بالوفاء ورعاية الحقوق والعهود والمواثيق

وكان إذا اشتد الكرب به وبجنوده يلجأ إلى الله ، يدعوه ويتضرع

إليه ، ويسأله النصر والتأييد والمعونة . فما أجله من رسول كريم، وأعظمه من قائد عظيم... لقد كانت ثورة محمد بن عبد الله ثورة على الفساد والاستبداد والظلم والوحشية والفجور والأهواء ، وللقضاء على الفوضى والمحسوبية ، والخيانة ، والاستهتار بحقوق الشعوب المقدسة ، وحقوق الأفراد والجماعات والفقراء والمستضعفين فى الأرض

ولقد نجح محمد بن عبد الله فى ثورته ، لأنه لم ينشد الزعامة ولا السلطان ولا المال ولا الحكم ، وإنما آمن بالله ، وآمن بالحق ، فأعزه الله وأعز به العدل والحق ، وراية الاسلام وجند المسلمين . وصدق الله العظيم حين يقول : ولينصرن من ينصره إن الله لقوى عزيز .

حديث الهجرة فى القرآن الكريم

قال الله تعالى فى كتابه الحكيم : إلا تنصروه فقد نصره الله ، إذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين ، إذهما فى الغار إذ يقول لصاحبه : لاتحزن إن الله معنا ، فأنزل الله سكينته عليه ، وأيده بجنود لم تروها ، وجعل كلمة الذين كفروا السفلى ، وكلمة الله هى العليا والله عزيز حكيم » . .

هى معجزة وعاها الزمن ، ورددتها الأجيال ، ووقف التاريخ حيالها معجباً مشدوهاً ، يتدبر ليفهم آياتها الكبرى ، ويمعن ليدرك أسرارها الخالدة ، وآثارها العظيمة على الحياة والإنسانية .

هـذا الرسول النبى الأمى يتلقى الدعوة من الله ، فيصدع بما يؤمر ، ويجاهد فى سبيل نشر كلمة التوحيد ، ويكافح قوى الشرك والوثنية والجمود والطغيان ، كفاحا لم تر الدنيا له مثيلا ، طيلة ثلاثة عشر عاما . دعا فيها الناس كافة إلى الهدى والنور والرحمة والخير والحرية والأخاء والسلام

ولكن آذان الشرك لم تتفتح لسماع كلمة الحق والعدل، وامتدت يد الطغيان بالإيذاء والبطش والتهديد والوعيد إلى محمد صلى الله عليه وأصحابه ؛ وحاولوا أن يكموا أفواه دعاة الرسول حتى لا يفتن الناس عن دين آبائهم وأجدادهم ، وتوعدوا من أسلم بالامتحان والعذاب الأليم، ووقفوا يحولون بين محمد صلوات الله عليه وتبليغ رسالته بكل ما يستطيعون ، منعوه بالقوة أن يلتى القبائل ويقرأ عليهم القرآن ، ونشر المشركون دعايات أثيمة لتنفر الناس منه ، فقالوا : هو شاعر وساحر وبه جنة وهي أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلا ، وائتمرت قريش بالرسول وهددوا عمه أبا طالب بالحرب وضيقوا عليه وعلى عشيرته وقاطعوهم أعواما ثلاثة واضطهدوا أنصارهم وشردوهم ولاحقوهم فى البلاد ، وصدوا الناس عنه وفرقوهم من حوله ، ومحمد صلى الله عليه وسلم صامد فى جهاده سائر إلى غايته ، يضحى بنفسه لإنقاذ البشرية وتغيير مجرى الحياة ؛ وهو يقول لعمه : والله لو وضعوا الشمس فى يمينى ، والقمر فى يسارى ، على أترك هذا الأمر ما تركته ، حتى يظهره الله ، أو أهلك دونه .

وأخذ الرسول يصدف عن قريش والمشركين إلى أهل المدينة من حجاج بيت الله العتيق ، يبلغهم الدعوة ، فآمن به من آمن ، ثم عقد معهم حلفا وبايعهم على أن يمنعوه بما يمنعون منه أنفسهم وأموالهم ولو كان فى ذلك هلاك الأموال وقتل الأشراف ولهم الجنة ، وأذن لأصحابه والمضطهدين من المسلمين بالهجرة إلى المدينة حتى لم يبق منهم إلا القليل .

لكن قريشا والمشركين لم يكفوا فأجمعوا أمرهم على قتل الرسول، والرسول صلوات الله وسلامه عليه رابط الجأش ، مطمئن الإيمان ، ينشر على من حوله السكينة والطمأنينة ، ويقول . « يا أيها الناس قولوا لا إله إلا الله

تفلحوا، وتملكوا بها العرب، وتدين لكم بها العجم فاذا فعلتم كنتم ملوكا، لكم الجنة».

ونبأه الله بالشر المدفون فى قلوب رؤساء المشركين، فذهب إلى أبى بكر فى حر الظهيرة اللافح يعلمه الأمر، وأن الله تعالى قد أذن له بالهجرة وأنه اختار أبا بكر صاحبه فى هجرته، فبكى أبوبكر رضى الله عنه من الفرح، وأخذ للأمر أهبته، وبات على مكان الرسول الأعظم فى الليلة الموعودة، وخرج محمد صلوات الله وسلامه عليه وصاحبه فى ظلمات الليل من مكة على خفية، بين العيون والأرصاد، والسيوف والأحقاد والفتيان المتراصين حول بيته الشريف لسفك دمه فى آخر الليل، وسار معه صاحبه حتى وصلا غاراً بجبل ثور، وهو دون مكة على مسيرة ساعة فدخلاه، ومكثا فيه ثلاثا، وقريش كادت بعد يذهلها الجنون، ويقتلها الغيظ، وقافة الأثر فى كل مكان وطريق يبحثون عن محمد صلوات الله وسلامه عليه، وصاحبه، ليردوهما إلى مكة سالمين أو مقتولين، حتى وصلوا إلى الغار والصديق يقول: إن أحدهم لو نظر إلى قدميه لرآنا، ويقول الرسول ﷺ: لست أخاف الموت، فأنا رجل واحد، ولكنى أخاف عليك، فإنك إن قتلت هلكت الأمة، وإن تصب اليوم ذهب دين الله، فقال له الرسول ﷺ: «لاتحزن إن الله معنا، وما ظنك باثنين الله ثالثهما؟ ويقول: اللهم أعم أبصارهم»....

حقاً لقد نصر الله عبده، وأعز رسوله وهزم الشرك والمشركين، حين نجى محمداً صلوات الله وسلامه عليه فى هجرته، وحاطه بتأييده ورعايته ونصرته وحفظه، وأيده بالملائكة يذودون عنه ويحمونه وهو فى الغار،

كما أيده بهم من بعد فى بدر والأحزاب وحنين .. ولقد أذن الله تعالى له بالهجرة والخروج من مكة ، بعد أن جعل المشركون الدعوة إلى الإسلام ضربا من المحال ، وصدوا الناس عن سبيل الله ، ولكن الله لم يتركه ، بل كان معه ، ينصره وينصر دينه ، ويحمى دعوة السلام والحق والإيمان، ويذود المشركين عن محمد وهو وصاحبه فى الغار ، ثم وهما سائران فى الطريق إلى المدينة ،وأنزل عليه وعلى صاحبه السكينة والأمن والطمأنينة، وحفه بجنود الله من الملائكة ، وجعل كلمة الذين كفروا وما أجمعوا عليه: من الشرك والكفر والطغيان والإثم ، وما دبروه من كيد لقتل محمد وخنق رسالته ، جعل كلمتهم هى السفلى ، وكلمة الله ودعوة التوحيد ورسالة الحرية والسلام والإسلام دائما أبداً هى العليا ، لايخفت لها صوت ، ولاينطفىء لها نور ، ولاتنكس لها راية ، ومهما ارتفع صوت الكافرين والماديين من أولى الحضارات التى تتنكر للاسلام ، فإلى أمد وحين ، والغلبة والعزة لله ورسوله والمؤمنين .

حقا إن كلمته هى العليا ، ولقد بنى لها محمد ﷺ صرح الخلود والعزة والمجد والجلال من يوم أن خلصه الله من أيدى الكفار ، ونجاه فى هجرته إلى المدينة.. فالهجرة كانت المبدأ فى إعزاز كلمة الله ، ونشر دعوة الإيمان والإسلام ، وهى نصر من السماء ما بعده نصر ،وتأييد ليس يعلوه تأييد ، والله عزيز فى حكمه لا يغلبه غالب . وحكيم فى تدبيره لاينقضه إنسان .

فكيف بكم أيها المسلمون تتأخرون، إذا دعا الرسول للجهاد فى ساعة العسرة، حين عزم على غزو الروم فى تبوك عام عشرة من الهجرة ، وقت قحط وقيظ ، ومع بعد الشقة وكثرة العدو وأخطار الجهاد ؟

كيف بكم لا تلبون داعى الله ، وتخلدون إلى الأرض والهوان .. أآثرتم الدنيا وزينتها على حب التضحية والكفاح فى سبيل الله والدين؟، إلا تنصروا الله ودينه ورسوله حينئذ، فإنه ناصره ومؤيده وراعيه ، وقد نصره فى مواطن كثيرة : يوم هجرته ، ويوم بدر، والأحزاب، وحنين، حتى أدى الرسالة وبلغ الأمانة ، وأعز الاسلام ، وكتب المجد والفخار والخلود والعزة للمسلمين .

عيد السلام والحرية

يوم الهجرة الكريم عيد الإنسانية والحضارة والمثل الرفيعة فى حياة البشر كافة ، وعيد الإخاء والمساواة والسلام والإسلام والحرية .

فقد كتب سيدنا محمد ﷺ فيه أروع الصفحات فى تاريخ العالم كله، وضرب أعظم الأمثال فى البطولة والتضحية .

هاجر صلوات الله عليه من وطنه ، حيث الاضطهاد الدينى والروحى، والجمود الفكرى والاجتماعى ، والتعصب للجهل وتقاليد الآباء الضالة ، ومحاربة دين الله والحق . هاجر بعد جهاد شاق ، وتضحيات كبيرة خالدة على الأيام وبعد أن لاقى أنصاره مالاقوا من تعذيب وتشريد . ودخل المدينة هو وصاحبه أبو بكر فنشر الرسالة وأدى الأمانة ، وحارب الوثنية وحرر الناس من الأهواء والأوهام والخوف والجهل والعبودية ، وساوى بين البشر كافة . فعرفوا من جديد ما هو الأمن والعدل ، وصارت العرب أمة واحدة أخذت تسود الأمم وتقود الانسانية إلى الهدى والخير وأكرم الغايات .

لقد مضى على انتقال رسول الله محمد صلوات الله عليه إلى الرفيق الأعلى نحو أربعة عشر قرناً ، ولا تزال عظمته ملء القلوب والأسماع ، وذكراه تشيد الحياة الظامئة إلى نبع هذا الالهام الكريم ، وإلى فيض هذه البطولة الفذة والعظمة الكاملة .

وإذا ذكر المسلمون هذا النبي الأمي تقديسا للرسالة التي حملها ، وبلغها عن الله ، ونشرها في الخافقين ، وإيمانا بما جاء به من عقيدة وتشريع ، فان الانسانية كلها لتذكر أنه رسولها الفذ الكريم ، وأبوها البر الرحيم ، والعلم المفرد في تاريخها الحافل المديد .

إن عظمته عليه السلام ليست مستمدة من عصبية أو جاه أو مال ، ولا من عظمة الأمة التي ظهر فيها ، ولا من سمو حسبه وشرفه ، وجلال شخصيته ، وكمال خلقه ، وسعة أفقه ، وأنه المثل الأعلى للانسان الكامل ، وأنه عاش مجاهداً ، ومات مجاهداً ، في سبيل الله والحق والهدى والنور .

وإنما ترجع مع ذلك إلى أنه الرسول المبعوث الذي اختارته العناية الإلهية من بين الخلق ، ليبلغ رسالة الله إلى العالم ، على فترة من الرسل ، ضل فيها الناس وجهلوا هداية السماء ، التي بشر بها الأنبياء والمرسلون .

وترجع إلى أنه جاء بآخر الرسالات لتكون دين البشرية عامة ، وعقيدة الناس قاطبة ، وهي الفطرة التي فطر الله الناس عليها .

فقد دعت إلى التوحيد المطلق . وقررت مبادىء العدالة والحرية والمساواة والإخاء بين الناس كافة ، وكانت دين البشرية بسمو روحها ، وجلال نزعاتها ، ونبل أهدافها ، ورفعها من كرامة الانسان ، وديمقراطيتها الحقة ، وما سنته من حب ورحمة وتعاون . . وبما تدعو إليه من إيقاظ

للضمير ، وشعور بالمسئولية ، وتقدير للعهود والحرمات ، ونشر للعلم والعمران والمدنية ، وحرب على الوثنية والشرك ، والضلال والفساد ، والرذائل والمنكرات ، والأهواء الضالة ، والأوهام الضارة والشهوات الجامحة ، والخرافات الكاذبة والتقاليد البالية .

وبحسب محمد عظمة أنه أول داع إلى الأخوة الانسانية والزمالة البشرية وأنه حارب العصبيات والتقاليد الفاسدة ، وجمع الناس تحت لواء واحد من هدى الله ، وفى ظل رسالة كاملة هى شريعة الله .

ثم لم يمض إلى جوار ربه ، إلا وقد جمع العرب عليها ، ودعا الملوك والأمراء إليها ، فأرسل الرسل مبشرين ومنذرين ، إلى كسرى وملك البحرين والحبشة ، وحاكم مصر ، وهرقل قائد الدولة الرومانية الشرقية، وما أجل ما يقول فى رسالته إليه : « بسم الله الرحمن الرحيم : من محمد ابن عبدالله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم — سلام على من اتبع الهدى أما بعد فإنى أدعوك بدعاية الاسلام، اسلم تسلم . يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإنما عليك إثم الاريسيين — عامة الشعب — . يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ، ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ، ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله ، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون » .

وحمل خلفاؤه من بعده عبء هداية الأمم وتحرير الانسانية ، فوصلت هذه الرسالة إلى أطراف الدنيا ، وقامت عليها حضارة مشرقة ، ولم تزل عقيدة كثير من الأمم والشعوب، ولن تزال حية بما فيها من حرارة وحياة ونمو وتجدد .

وصدق الله العظيم حين يقول : « يا أيها النبى : إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وداعيا إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً ، وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلا كبيرا » . .

صانع المعجزة

هاجر محمد ـ كما هاجر الأنبياء والرسل قبله ـ فرارا من الإضطهاد والحجر الظالم على حرية الفكر والعقيدة . هاجر من وطنه مكة إلى المدينة بعد أن أوذى وشرد وعذب المؤمنون به ، وصد المشركون الناس عن سبيله ، وائتمروا على سفك دمه ، هاجر تحدوه آمال واسعة فى إنقاذ الانسانية من ضلالها ، والسعى بها إلى الهدى والأيمان والحرية والمدنية

وكانت هجرته إيذانا ببدء عهد جديد فى تاريخ العالم ، وحداً فاصلا بين الظلام والنور ، والوحشية والحضارة ، والجهل والمعرفة .

لقد صنع محمد المعجزة التى لم يصنعها أحد قبله : بهجرته ، وبما تلا هجرته: من جهاده الخالد العظيم فى سبيل الله ، لبعث يقظة روحية جديدة تغمر العالم كله ، وللدعوة إلى مبادىء حية لم يسمع بمثلهما سمع الزمان، والتبشير بحياة مثلى تسودها المساواة والعدالة والمحبة والتعاون والأخاء والاشتراكية الحقة والديمقراطية الصحيحة والشعور بالمسئولية فى الحياة

أعلن محمد حقوق الانسان ، ودعا إلى رعايتها ، وإلى تحرير جميع الطبقات والعناصر والأجناس من العبودية والإستغلال ؛ ورفع من شخصية الانسان وكرامته ، وفتح آفاق الوصول إلى أسمى الغايات أمام المتنافسين من كل جنس وأمة ولون ، ودعا إلى السلام والرحمة والأخوة الانسانية ، وحرم استغلال الانسان لأخيه الإنسان ، ونهى عن الفساد

فى الأرض والحروب بين الناس ، وسن شرائع الحكم الشورى ، وأصول التقدم الروحى والأدبى والاجتماعى والإنسانى ، وسبق فلاسفة الإجتماع إلى وضع أصوله . وجعل للمحكومين ما للحاكمين ، وأعلن أن الدولة إنما وجدت لخدمة الفرد ، وحارب الفقر والجهل والجمود والتقليد والعصبية الحمقاء ، ورعا حقوق المرأة والعامل والفقير ، وفتح باب المعرفة أمام كل إنسان .

ونشر محمد دين الله والسلام والاسلام بين العرب ، ثم دعا اليه الملوك والأمراء والأقيال فى كل مكان ، ومات بعد أن بدل سير التاريخ ، وحول مجرى الحياة ، وبلغ رسالة الله تامة ، ونهج للبشرية مناهج لم تعرفها من قبل ولا من بعد ، ورفع منارة الحق والعدل لتضىء السبيل للناس .

فأى رجل لعمرى وزن بجميع موازين العظمة الانسانية رجح عليه ، وأى إنسان صعد المراقى كلها فكان عظيما فيها جميعها ماعداه ، وأى قائد انتصر فى معركة الحرية والسلام والعلم والمدنية هذا النصر المؤزر غير محمد بن عبد الله ؟

نحو مجتمع جديد

مهاجرون وأنصار

بسم الله الرحمن الرحيم : قال الله تعالى فى كتابه الحكيم فى قصة الهجرة ونصره لرسوله : « إلا تنصروه فقد نصره الله ، إذ أخرجه الذين كفروا ، ثانى اثنين ، إذ هما فى الغار ، إذ يقول لصاحبه : لا تحزن إن الله معنا ، فأنزل الله سكينته عليه ، وأيده بجنود لم تروها ، وجعل كلمة الذين كفروا السفلى ، وكلمة الله هى العليا ، والله عزيز حكيم » ،

وقال فى شأن الأنصار : واذكروا نعمة الله عليكم ، إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا » .

كانت هجرة الرسول صلوات الله عليه من مكة إلى المدينة ، إيذانا ببدء عصر جديد فى تاريخ العالم ، وعاملا قويا فى رقى الإنسانية ونهضتها ، وحدا فاصلا بين الوحشية والمدنية ، والعبودية والحرية ، والجهل والمعرفة ، والظلام والنور .

فنى المدينة بعد الهجرة بقليل ، بدأ الرسول يبشر بحقوق الإنسان ويرفع من كرامته فى الحياة ، ويعمل على تحرير الطبقات والأجناس من الرق والاضطهاد والاستعباد والاستغلال ، ويفتح الأبواب أمام المتنافسين من ذوى الكفاية من كل أمة ولون ، ويشرع أصول الحكم العادل ، ويضع مناهج التقدم الروحى والاجتماعى ، ويعلن أن للمحكومين ما للحاكمين ، وأن الدولة إنما وجدت لخدمة الفرد . . ووجد الرسول نفسه أمام ثلاث طوائف فى المدينة :

أولاها ـ طائفة المهاجرين الفقراء ، الذين ضحوا بوطنهم ومالهم وتجارتهم طلبا للحرية ، وفرارا من الطغيان ، فهاجروا من مكة إلى المدينة ، فرادى وجماعات ، بعد هجرة محمد عليه الصلاة والسلام ، وكان أغلبهم يعمل بمكة فى التجارة يكسب منها الأموال الطائلة ، ويصفهم الله تعالى فى القرآن بقوله : « للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم ، يبتغون فضلا من الله ورضوانا ، وينصرون الله ورسوله ، أولئك هم الصادقون » ، ويصف الطبقة التى تلتهم فى الهجرة بقوله : « والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ، ولا تجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا ، ربنا إنك رءوف رحيم » .

والطائفة الثانية ـ هم الذين أحبوا الرسـول ونصروه ، واتبعـوا النور الذى أنزل معه : من الأوس والخزرج سـكان المدينة ، وكانت مهنة أكثرهم الزراعة وتعهد الثمار والأشجار والفاكهة ، وكانوا ذوى عدد وثروة ، ووصفهم الله تعالى بقوله : « والذين تبوءوا الدار والإيمـان من قبلهم ، يحبون من هاجر إليهم ، ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ، ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة . ومن يوق شح فأولئك هم المفلحون » .

والطائفة الثالثة ـ يهود المـدينة ، الذين طالما أشعلوا نار الخصـومة والحرب بين الأوس والخزرج ، وسخروا برسالة محمد وبأصحابه .

مجتمع كهذا المجتمع ، فيه الفقراء والأغنياء ، والمفسدون والمتآمرون لا بد فيه من بناء جديد ، وحركة بعث وتجديد ، فماذا فعل محمد صلوات الله عليه ؟ بدأ الرسـول يعالج هذه المشـكلات بإلهام سـديد ، وعقل حصيف ، وسياسة حكيمة :

طمأن اليهود على حرياتهم الدينية والشخصية ، وتعهد بحمايتهم والدفاع عنهم ، فى وثيقة سياسـية بارعة ، وادع فيها اليهود وعاهدهم وحذرهم ، ليضمن سلامة الدولة وأمنها .

والتفت إلى علاج مشكلة التفاوت الشـديد فى الثروة ، بين الأغنياء والفقراء ، بين الأنصـار والمهاجرين ، وآخى بينهم إخاء فريداً فى تاريخ الإنسانية ، إخاء مودة وتعاون وإخلاص . فكان يأخذ بيدى المهاجرى والأنصارى ويقول : « تآخيا فى الله أخوين » . قال ابن هشام : آخى رسول ﷺ بين المهاجرى والأنصارى فقال : تآخوا فى الله أخوين

أخوين ، فكان الرسول وعلى بن أبى طالب أخوين ، وأبو بكر وخارجة ابن زهير أخوين ، وحمزة أسد الله وزيد بن حارثة مولى رسول الله أخوين ، وجعفر بن أبى طالب ومعاذ بن جبل أخوين ، وسوى هؤلاء وهؤلاء .

كان الرجل من المهاجرين يرتبط برباط الأخوة بآخر من الأنصار ، وصار لكل أنصارى أخ من المهاجرين ، يشاطره داره وماله وإبله وتجارته ، لهذا نصف ولهذا نصف ، وكان إذا توفى أحدهما ورثه أخوه ـ فى العقيدة لا فى النسب ـ إلى أن نزلت آية الميراث ، فجعل الإرث بين ذوى الأرحام والقرابة .

وهكذا تنازل الأنصار الأغنياء ، بوازع من دينهم وضميرهم وحبهم وطنهم ، لإخوانهم المهاجرين الفقراء عن نصف ما يملكون من ثروة وعقار وأرض ، دون تردد أو إبطاء .

وجدت مشكلة أخرى ، فقد كان الأنصار أصحاب زراعة ، بينما المهاجرون أهل تجارة لا عهد لهم بسواها من الحرف ، فماذا يفعلون بالأرض التى أصابتهم ؟

هنا تجلت عظمة إيمان الأنصار ، وجلال أخلاقهم ، وإيثارهم على أنفسهم ، فقد أصروا على أن يزرعوا أرضهم وأرض المهاجرين بأنفسهم ويقسموا محصولها مناصفة فيما بينهم ، ويكفوهم العمل والمؤونة ، تعاونا منهم فى بناء الأمة والمجتمع .

ومع ذلك فقد عمل كثير من المهاجرين فى الزراعة ، كأبى بكر وعمر وعلى وسواهم . وعمل آخرون فى التجارة ونجحوا فيها نجاحا عجيبا ،

كعبد الرحمن بن عوف الذى عرض أخوه الأنصارى سعد بن الربيع أن يشاطره ماله فأبى ، وطلب إليه أن يدله على السوق فتاجر وربح ، ولما توفى وترك ثروة واسعة قال أناس من أصحاب رسول الله : إنا نخاف على عبد الرحمن فيما ترك ، فقال كعب سبحان الله : ولم تخافون عليه ؟ كسب طيباً ، وأنفق طيباً ، وترك طيباً .

ولم يكن هذا هو العلاج الوحيد الذى عالج به الرسول الكريم مشكلة الفقر فى المدينة ، بل خص المهاجرين ببعض الغنائم كأموال بنى النضير ، فلم يعط الأنصار منها شيئاً ، إلا ثلاثة نفر محتاجين ، وقال لهم إن شئتم قسمتم للمهاجرين من أموالكم ودياركم وشاركتموهم فى هذه الغنيمة ، وإن شئتم كانت لكم دياركم وأموالكم ولم يقسم لكم شىء من الغنيمة ، فقال الأنصار : بل نقسم لهم من أموالنا وديارنا ونؤثرهم بالغنيمة ولا نشاركهم فيها . . وهكذا كانت يد الأنصار جليلة على المهاجرين ، حتى قالوا فيهم : ما رأينا مثل أنصار المدينة ، لقد أحسنوا مواساتنا ، وبذلوا الكثير ، وأشركونا فى المهنة ، حتى لقد خشينا أن يذهبوا بالأجر كله .

وحض الرسول على المحبة والتعاون والرحمة ، وعلى البذل والسخاء والإيثار والصدقة والإحسان ، وإطعام الجائع ، ومساعدة المحتاج وإغاثة الملهوف ، وشرع فريضة الزكاة . وجعل بيت المال فى خدمة الفقراء . وكان الرسول يضرب فى ذلك أروع الأمثال ، ويؤثر على نفسه

قالت عائشة : ما شبع رسول الله ثلاثة أيام متوالية حتى فارق الدنيا ولو شئنا لشبعنا ؛ ولكنا كنا نؤثر على أنفسنا .

وذهب الرسول يعود ابنته فاطمة فى بيت زوجها على بن أبى طالب

فقال: السلام عليك يابنتاه ، كيف أصبحت ؟ قالت أصبحت والله وجعة ، وزادنى وجعا أنى لست أقدر على طعام آكله ، حتى أجهدنى الجوع ، فبكى رسول الله ، وقال لا تجزعى يابنتاه ، فوالله ماذقت طعاما منذ ثلاث ، وإنى لأكرم على الله ، ولو سألت ربى لأطعمنى ، ولكنى آثرت الآخرة على الدنيا ، أبشرى ، فوالله إنك لسيدة نساء أهل الجنة .

وحمل إليه صلوات الله عليه فى يوم تسعون الف درهم فوضعها على حصير ، ثم قام إليها فقسمها ، فما رد سائلا حتى فرغ منها وعاد لايمسك منها درهما .

وكان المسلمون من الأنصار والمهاجرين يضربون المثل رائعا كريما فى فضيلة الإيثار ، نزل برسول الله ضيف ، فلم يجد عند أهله شيئاً ، فدخل عليه رجل من الأنصار ، فذهب بالضيف إلى أهله ، ثم وضع بين يديه الطعام ، وأمر امرأته أن تطفىء السراج ، وجعل يمد يده إلى الطعام كأنه يأكل ولا يأكل حتى أكل الضيف الطعام ، فلما أصبح قال رسول الله : لقد عجب الله من صنعكم الليلة إلى ضيفكم » .

وأهديت لعبادة بن الصامت هدية ، وإن معه فى الدار اثنى عشر من أهل بيته ، فقال عبادة : اذهبوا بها إلى آل فلان فهم أحوج إليها منا ، قال الوليد بن عبادة: فأخذتها فكنت كلما جئت أهل بيت يقولون : اذهبوا بها إلى آل فلان ، فهم أحوج منا إليها ، حتى رجعت الهدية ثانية إلى عبادة .

وحرم رسول الله الاستغلال وأكل أموال الناس بالباطل . ودعا الأغنياء إلى التنازل لأخوانهم الفقراء عن بعض يملكون من أرض

هبة ومنحة ، فقال : من كانت له أرض فليزرعها أو يمنحها أخاه ولا يؤاجرها إياه ، وقال : من كانت له أرض فليزرعها أو ليحرثها أخاه فإن أبى فليمسك أرضه ، وقال : لأن يمنح الرجل أخاه أرضه خير له من أن يأخذ عليها خرجا معلوما . ودعا إلى الرحمة والبر والخير والتعاون والمساواة

هذا هو الرسول الكريم ، وهؤلاء هم المسلمون حقا ، من الأنصار والمهاجرين ، من بناة مجدنا الخالد ، والدعاة إلى خير الدنيا والآخرة ، وممن لم يفتنهم المال ، ولم تلهم زهرة الحياة الدنيا ، وكانوا مع الله فكان الله معهم ، وممن أدوا الحقوق ، وجعلوا أنفسهم فى خدمة إخوانهم فى الله الوطن .

وما أحوجنا اليوم أن نسير على ضوئهم ، ونستهدى بهدى رسولنا الأعظم ، ونساعد الدولة فى خدمة الشعب وبناء الأمة وضمان الحياة الكريمة للفقراء ، وأن يؤثر أغنياؤنا على أنفسهم ، ولا يبخلون بمالهم فى سبيل الله والمعروف .

وإنى لا أجد فى ختام هذه الكلمة أبلغ من قول الإمام أبى حامد الغزالى فى « الإحياء » :

« إن على الإنسان فى ماله أن يعرف مقصود المال ، وأنه لماذا خلق ؟ وأنه لم يحتاج إليه حتى يكتسب ؟ فلا يحفظ إلا قدر الحاجة ، ولا يعطيه من همته فوق ما يستحق . وعليه أن يراعى جهة دخل المال فيجتنب الحرام المحض ، وما الغالب عليه الحرام ، كمال السلطان ، ويجتنب الجهات المكروهة القادحة فى المروءة كالهدايا التى فيها شوائب الرشوة ، وأن لا يستكثر من المال ولا يستقل منه ، بل القدر الواجب ، ومعياره الحاجة ، والحاجة ملبس ومسكن ومطعم » .

ورقة بن نوفل والرسول

— ١ —

كان ورقة بن نوفل القرشى حكيما متدينا موحدا ، وشاعرا بليغا مجيدا ، وسيدا شريفا سريا فى قومه ، عاش يلتمس دين التوحيد فى عصر الوثنية الجاهلية ، ويبشر بقرب ظهور نبى العرب ، وخاتم الرسل ، ويولى وجهه شطر السماء ينشد الهداية والنور . حتى أدرك بعثة سيد الأنبياء محمد صلوات الله عليه .

وكان العرب قبل البعثة المحمدية فى حيرة وضلال ، لايجمعون على دين ، ولا يتفقون على عبادة ؛ عبد جمهورهم الأوثان والأصنام ، وفريق منهم عبدوا الشمس أو القمر أو الكواكب ، وآخرون دانوا بالنصرانية أو اليهودية . وجماعة منهم اعترفوا بوجود الله ووحدانيته ، وظلوا على فطرة التوحيد الخالص ، وعبدوا الله على دين إبراهيم وإسماعيل ، يعظمون الشعائر ، ويؤدى المناسك ، ويقدسون البيت الحرام ، ويلتزمون الحج والعمرة والطواف والوقوف بعرفة ونحر الذبائح والأضاحى ، وسوى ذلك من ألوان العبادات والطاعات ، ومنهم : ورقة ، وأمية بن أبى الصلت وزيد بن عمرو بن نفيل ، وكعب بن لؤى ، وقصى ، وعبد مناف ، وهاشم ، وعبد المطلب . .

فى هذه الحيرة والضلال ، ونحو عام ٥٢١ ميلادية ، قبل ميلاد محمد صلى الله عليه وسلم بنصف قرن ، ولد فى مكة ورقة القرشى بن نوفل بن أسد بن عبد العزى بن قصى . من بيت عرف بالسيادة وكرم المحتد . . وأى مجد ومحتد يبلغان ما بلغته منهما قريش سادة العرب ، وسدنة البيت العتيق ؟

وإلى قصى أيضا يرجع نسب أم ورقة هند بنت أبى كثير بن عبد بن قصى. وقصى هو الأب الخامس لمحمد بن عبدالله بن عبدالمطلب. وقد انقسمت قريش عند قصى قبائل شتى ، منها : عبد مناف بن قصى ، وسوى هؤلاء من مخزوم وتيم وزهرة بن كلاب . وكان قصى فى القرن الخامس الميلادى وهو الذى جمع شتات قريش ، ووحد كلمتهم ، واستبد بالرياسة والسيادة على مكة ، وجدد الكعبة وبنى دار الندوة التى كان له رياستها ، وكان فى يده حجابة الكعبة ، وسقاية الحاج ، ولواء الحرب ، وهو أول من فرض الرفادة على قريش ، وقال لهم : « يامعشر قريش إنكم جيران الله ، وأهل بيته ، وأهل حرمه ، وإن الحاج ضيف الله ، وزوار بيته ، وهم أحق الأضياف بالكرامة ، فاجعلوا لهم طعاما وشرابا أيام الحج ، حتى يصدروا عنكم » .

ذلك هو نسب ورقة وحسبه . ولقد نشأ وشب فى هذه السيادة الفاخرة ، وتلك المآثر القرشية الخالدة ، وعاش فى مكة مع قومه ، يعمل فى التجارة كما يعملون ويلهو كما يلهون ، وشهد مواطن قريش ، وشارك فى مفاخرها ، وأصبح بعد قليل رجل صدق وحزم وعزم وإقدام ورحلة ، ويصف ورقة جده ولهوه فى هذه الفترة فيقول :

ولقد ركبت على السفين ملججا ... أذر الصديق وأنتحى دار العدى
ولقد دخلت البيت يخشى أهله ... بعد الهدوء وبعد ماسقط الندى
فوجدت فيه حرة قد زينت ... بالحلى تحسبه بها جمر الغضا
فنعمت بالا إذ أتيت فراشها ... وسقطت منها حين جئت على هوى
فلتلك لذات الشباب قضيتها ... عنى فسائل بعضهم ماذا قضى ؟

وخالط ورقة فى رحلاته للتجارة أهل الكتاب، واستمع إليهم، ومال إلى مايؤمنون به من فطرة التوحيد وعبادة الله، فأنكر ما كانت عليه قريش من باطل وجهل، وما كانت تمعن فيه من وثنية وشرك، وأعرض عن غيها وباطلها، فاعتزل عبادة الأوثان، وامتنع عن أكل ما يذبح باسم الأصنام، وآمن أن قومه أخطأوا دين أبيهم إبراهيم وإسماعيل فأخذ ينشد الحنيفية البيضاء، ويسأل عنها الأحبار والرهبان. يروى أن قريشا اجتمعت يوما فى عيد لهم عند صنم يعظمونه وينحرون له ويعكفون عليه، فخلص منهم أربعة نفر نجيا: هم ورقة بن نوفل القرشى وابن عمه عثمان بن الحويرث بن أسد بن عبد العزى بن قصى، وزيد بن عمرو بن نفيل بن كعب بن لؤى، وعبيد الله بن جحش الأسدى وهو ابن أميمة بنت عبد المطلب، فقال بعضهم لبعض: تصادقوا وليكتم بعضكم على بعض، قالوا: أجل، فقال قائلهم: تعلمن والله ما قومكم على شىء، لقد أخطأوا دين أبيهم إبراهيم، ماحجر نطيف به لا يسمع ولا يبصر ولا ينفع، ياقوم: التمسوا لأنفسكم، فإنكم والله ما أنتم على شىء، فتفرقوا فى البلدان يلتمسون الحنيفية دين إبراهيم:

فأما عبيد الله بن جحش، فأقام على ماهو عليه، حتى بعث الرسول فأسلم، وهاجر مع المسلمين إلى الحبشة، ومات فيها بعد أن اعتنق المسيحية وارتد عن الإسلام. وأما عثمان بن الحويرث فقدم على قيصر، وآمن بالمسيحية، وعاش فى القسطنطينية. وأما زيد فأقام على الحنيفية، يعظم شعائرها، ويقول: أعبد رب إبراهيم، وعاب على قومه ماهم عليه، وكان يسند ظهره إلى الكعبة ويرفع صوته: يامعشر قريش والذى نفس زيد بيده ما أصبح أحد منكم على دين إبراهيم غيرى، ثم يقول: والله لو أنى

أعلم أى الوجوه أحب إليك عبدتك به ، ولكنى لا أعلمه ، ثم يسجد على راحلته ، ويستقبل الكعبة داخل المسجد قائلا : لبيك حقا حقا ، تعبداً ورقا ، عذت بما عاذ به إبراهيم . ويصيح فى الناس : يا معشر قريش والله ما أعلم على ظهر الأرض أحداً على دين إبراهيم غيرى ، وكان يعيب على قريش ذبائحها ويقول : الشاة خلقها الله ، وأنزل لها من السماء ماء ، وأنبت لها من الأرض نباتا ، ثم تذبحونها على غير اسم الله ؟ ، وآذته قريش فخرج يطلب دين إبراهيم . ويسأل الأحبار فى الشام ، حتى انتهى إلى راهب من شيوخ الرهبان ، فسأل عن الحنيفية ، فقال له : إنك لتطلب دينا ما أنت بواجد من يحملك عليه اليوم ، ولكن قد أظل زمان نبى يخرج من بلادك التى خرجت منها ، يبعث بدين إبراهيم الحنيفية فالحق بها فإنه مبعوث الآن هذا زمانه ، فرجع إلى مكة ، ولما اشتد إيذاء قريش له ، كان يخرج إلى « حراء » يتعبد فيه ، ولقيه عامر بن ربيعة فى طريقه إلى حراء ، فقال له زيد : يا عامر إنى فارقت قومى ، واتبعت ملة إبراهيم ، وما كان يعبد إسماعيل بعده ، وأنا أنتظر نبيا من ولد إسماعيل ، وما أرانى أدركه ، وأنا أومن به وأصدقه .. وقتل زيد قبل البعثة بخمس سنين ، وقال فيه الرسول الأكرم : يأتى زيد يوم القيامة أمة وحده . ورثاه ورقة بن نوفل بقصيدة منها :

رشدت وأنعمت ابن عمرو وإنما ... تجنبت تنوراً من النار حاميا
بدينك ربا ليس رب كمثله ... وتركك أوثان الطواغى كما هيا
وإدراكك الدين الذى قد طلبته ... ولم تك عن توحيد ربك ساهيا
فأصبحت فى دار كريم مقامها ... تعلل فيها بالكرامة لاهيا
تلاقى خليل الله فيها ولم تكن ... من الناس جبارا إلى النار هاويا

وقد تدرك الإنسان رحمة ربه ولو كان تحت الأرض سبعين واديا

أقول إذا مازرت أرضا مخوفة حنانيك لاتظهر على الأعاديا

حنانيك إن الجن كانت رجاءهم وأنت إلهى ربنا ورجائيا

أدين لرب يستجيب ولا أرى أدين لمن لا يسمع الدهر داعيا

أقول إذا صليت فى كل سبعة تباركت قد أكثرت باسمك داعيا

هذا شأن هؤلاء الثلاثة الباحثين عن الحقيقة الكبرى ، فاما ورقة فرحل إلى الشام يلتمس الدين الصحيح ، ويتحدث إلى الأحبار والرهبان ويسمع منهم ، حتى مال قلبه إلى دين المسيح، ورآه انقاذاً له من الحيرة ، فاتبعه وعمل به ، وقال لزيد : أنا أستمر على نصرانيّتى إلى أن يأتى النبى الذى تبشرنا به الأحبار . وأخذ يحفظ من النصرانية ما يحفظ ، ويعى من الرهبان ما شاء الله أن يعى ، وعاد إلى مكة ، فأقام فيها آمنا وادعا ، عاكفا على دينه ونفسه ، لا يعرض لأحد ولا يحب أن يعرض له أحد . وازداد مكانة فى قريش ، فكان مستشارها فى الأزمات ومرجعها فى الخطوب والحكيم الذى تسترشد برأيه كلما دجت الظلمات ... وقرأ ورقة الكتب السماوية ، وكان يعرف العبرية ، وينقل من الإنجيل إلى العربية ما شاء ، ويأخذ عن أهل التوراة والإنجيل ما يأخذ

— ٢ —

فلما شاء الله أن ينقذ الانسانية ، ويهدى البشرية ، إلى النور والخير والتوحيد ، والسلام والامن والعدل والرحمة

ولد رسول الله محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه ، واستبشر

بميلاده الكون ، وعم الفرح والبشر كل مكان . وشب رسول الله ونما سيدا شريفا ، ونبيلا سريا ، وفتى زكيا ، حتى كان فى الثالثة عشرة من عمره خرج به عمه أبو طالب إلى الشام فى تجارة ، وفى بصرى قصبة حوران والبلاد العربية الخاضعة لحكم الروم رآه بحيرا الراهب ، فرأى الآية الكبرى ، والمعجزات الناطقات ، فأخذ يحدث محمدا ويسأله . ثم قال لعمه اذهب بابن أخيك إلى بلده ، واحذر عليه اليهود ، فان له لشأنا ، وتحدث من كانوا مع أبى طالب بهذا فى مكة ، وسمعه ورقة ، فآمن بقرب ظهور النبى المرتقب ، والرسول الأمى الذى يخرج من بلاد العرب لهداية الدنيا وانقاذ العالم من الشرك والضلال .

وخرج محمد بن عبد الله ، وقد تخطى العشرين عاما ، إلى الشام فى تجارة لخديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصى ، ابنة عم ورقة أمينا حفيظا عليها . وكانت خديجة سيدة جليلة ذات يسار وتجارة ، وكان مع محمد فى رحلته غلامها ميسرة ، فذهبا إلى الشام وباعا وابتاعا وربحا ثم عادا إلى مكة ، وأخبر « ميسرة » سيدته بما شاهد من مخايل الاصطفاء وإظلال الملائكة والغمام لمحمد ، واحاديث الأحبار عنه ، فذهبت خديجة إلى ورقة تذكر ذلك له ، فقال : « لئن كان هذا حقا يا خديجة إن محمدا لنبى هذه الأمة ، وقد عرفت أنه كائن لهذه الأمة نبى ينتظر ، هذا زمانه .

وصار ورقة حكيم العرب وشيخها ، وعالمها وقطبها ، وحبرها الخبير باحداث الدهر وتجارب الأيام . وازداد مكانة فى قومه ، وازداد قومه له اجلالا وتقديرا ، فكانوا يصدرون عن رأيه ، ويستهدون بمشورته ، ويتفاءلون بنصائحه وفراسته وصدق الهامه .. وكان فى الخامسة والسبعين من عمره ، ومحمد بن عبد الله صلوات الله عليه فى الخامسة والعشرين .

وكان ورقة يتفاءل بمستقبل حافل عظيم لمحمد ، ويتطلع إلى ما سوف يظهره عناية الله على يديه من هدى ونور ورحمة وخير للانسانية

واستشارته خديجة بنت خويلد ، ابنة عمه ، فى الزواج بمحمد ، فهنأها من اعماق قلبه بهذا الجد السعيد ، والزوج الكريم ، محمد بن عبد الله ، الأمين المؤتمن ، والصادق الصدوق .

وأخذ ورقة يبشر الناس بان محمداً سيكون نبي العرب ، والرسول المرتقب ، الذى يختاره الله من بين الخلق لإبلاغ رسالته إلى الناس كافة وجعل يتلهف أن يرى أيام بعثته . وأن يظهر نور الله ، وينزل ناموسه إلى الأرض ، وهو حى ليؤمن به ويصدقه ويؤازره وينصره . وأخذ يستبطىء الأمر ، ويقول : حتى متى أمر الله ! !

وكانت خديجة تقص عليه ماتشاهد من كرامات زوجها محمد بن عبد الله ، وورقة يزداد إيماناً بان محمداً هو النبي المدخر لهداية الناس والدنيا . ومن قوله فى ذلك :

لجحت وكنت فى الذكرى لجوجا ... لهم طالما بعث النشيجا[1]
ووصف من خديجة بعد وصف ... فقد طال انتظارى يا خديجا
فان محمدا سيسود يوما ... ويخصم من يكون له حجيجا
ويظهر فى البلاد ضياء نور ... يقيم به البرية أن تموجا

وصار ورقة يستزيد ابنة عمه خديجة من أخبار بعلها وفتاها ، ويسال عن محمد ليل نهار ، ويعلن فى الناس أن محمداً مدخر لأمر عظيم . ويقول :

(١) اللجاجة : التمادى فى الامر . النشيج : مثل بكاء الصبى يردده فى صدره

وأخبار صدق خبرت عن محمد ... يخبرها عنه إذا غاب ناصح
فتاك الذى وجهت ياخير حرة ... بغور وفى النجدين حيث الصحاصح(١)
إلى سوق بصرى فى الركاب التى غدت ... وهن مع الأحمال قعص دوالح(٢)
يخبرنا عن كل حبر بعلمه ... وللحق أبواب لهن مفاتح
بأن ابن عبد الله أحمد مرسل ... إلى كل من ضمت عليه الأباطح
وظنى به أن سوف يبعث صادقا ... كما أرسل العبدان : هود وصالح

وكان ورقة ينشد الشعر يتشوق فيه إلى انجاز وعد الله ، وكريم رحمته ، وعظيم رعايته للحياة والانسانية ، بإرسال رسول من العرب إلى الناس ليهديهم سواء السبيل . . وكان يمنى نفسه بان يرى بعثته ليؤمن به ويصدقه وينصره

وهكذا عاش ورقة كريما مبجلا ،وسيدا شريفا سريا ،وحكيما متدينا . متطلعا إلى التوحيد ، إلى أن بعث محمد بن عبد الله

- ٣ -

ولما بعث رسول الله ، وشاهد بحراء ما شاهد ، ونزل عليه جبريل يبلغه رسالة ربه .. وعاد محمد إلى بيته ، قالت له خديجة : ياأبا القاسم أين كنت فو الله لقد بعثت رسلى فى طلبك حتى بلغوا مكة ورجعوا إلى ، فحدثها بالذى رأى .

فقالت : أبشر ياابن عم ,واثبت فوالذى نفس خديجة بيده إنى لأرجو أن تكون نبي هذه الأمة ، ثم قامت فجمعت عليها ثيابها وانطلقت إلى

(١) جمع صحصح :ما استوى من الارض؟وارض صحاصح : ليس بها شيء ولا شجر ولا قرار للماء
(٢) قعص من قعصه اذاقتله قتلا سريعا . دوالح من دلح البعير اذا مر بحمله مثقلا

ابن عمها ورقة ، فأخبرته بما أخبرها به رسول الله أنه رأى وسمع : فقال ورقة : قدوس قدوس ، والذى نفس ورقة بيده إن كنت صدقتنى ياخديجة لقد جاءه الناموس الأكبر الذى كان يأتى موسى ، وإنه لنبى هذه الأمة ، فقولى له فليثبت . فرجعت خديجة إلى رسول الله ، فأخبرته بقول ورقة ، فلما قضى رسول الله معتكفا ما قضى وانصرف ، صنع كما كان يصنع ، بدأ بالكعبة فطاف بها ، فلقيه ورقة وهو يطوف بالكعبة فقال : يابن أخى : أخبرنى بما رأيت وسمعت ، فأخبره رسول الله . فقال ورقة : والذى نفسى بيده إنك لنبى هذه الأمة ، ولقد جاءك الناموس الأكبر الذى جاء موسى ، ولتكذبنه ولتؤذينه ولتخرجنه ولتقاتلنه، ولئن أنا أدركت ذلك اليوم لأنصرن الله نصرا يعلمه ، ثم أدنى رأسه منه فقبل يا فوخه ، وانصرف رسول الله إلى منزله .

وفى البخارى أن رسول الله صلى الله عليه لما رجع من حراء يرجف فؤاده ، فدخل على خديجة ، فقال : زملونى ،حتى ذهب عنه الروع ، فقال لخديجة وأخبرها الخبر : لقد خشيت على نفسى ، فقالت خديجة : كلا والله ما يخزيك الله أبدا ، إنك لتصل الرحم وتحمل الكل وتكسب المعدوم ، وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الحق؛ فانطلقت به خديجة حتى أتت ورقة ابن عم خديجة ، وكان امرأ قد تنصر فى الجاهلية ، وكان يكتب الكتاب العبرانى[1]، فيكتب من الأنجيل ماشاء الله أن يكتب ،وكان شيخا كبيرا قد عمى ، فقالت خديجة : يابن عم اسمع من ابن أخيك فقال له ورقة : يابن أخى ماذا ترى ؟ فأخبره رسول الله خبر ما رأى ،

(١) أى يعرف اللغة العبرية ويكتب بها

فقال له ورقة: هذا الناموس الذى نزل الله على موسى ، ياليتنى فيها جذعا(١) ، ليتنى حيا إذ يخرجك قومك، فقال له رسول الله : أو مخرجى هم؟ قال : نعم ، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودى ، وإن يدركنى يومك أنصرك نصرا مؤزرا ، ثم لم ينشب ورقة أن توفى ، وفتر الوحى

وهكذا شهد ورقة أن محمدا نبى هذه الأمة .. ومن شعره الذى قاله فى ذلك:

وإن يك حقا يا خديجة فاعلمى ... حديثك إياه فأحمد مرسل
وجبريل يأتيه وميكال فاعلمى ... من الله وحى يشرح الصدر منزل
فسبحان من تهوى الرياح بأمره ... ومن هو فى الأيام ماشاء يفعل
ومن عرشه فوق السموات كلها ... وأقضاؤه فى خلقه لا تتبدل

وله أيضا :

جاءت خديجة تدعونى لأخبرها ... ومالنا بخفى الغيب من خبر
جاءت لتسألنى عنه لأخبرها ... أمرا أراه سيأتى الناس من أخر
فخبرتنى بأمر قد سمعت به ... فيما مضى من قديم الدهر والعصر
بأن أحمد يأتيه فيخبره ... جبريل أنك مبعوث إلى البشر
فقلت : عل الذى ترجين ينجزه ... لك الإله فرجى الخير وانتظرى
وأرسليه إلينا كى نسائله ... عن أمره ما يرى فى النوم والسهر
فقال حين أتانا منطقا عجبا ... يقف منه أعالى الجلد والشعر
إنى رأيت أمين الله واجهنى ... فى صورة أكملت من أعظم الصور
ثم استمر فكاد الخوف يذعرنى ... مما يسلم ما حولى من الشجر
فقلت : ظنى وما أدرى أيصدقنى ... أن سوف يبعث يتلو منزل السور

وشهد ورقة دعوة الرسول ، وإيمان الناس برسالته وتعذيب قريش

---

(١) منصوب على تقدير أكون ، ويروى بالضم .. والجذع : الشاب الحدث

لهم ، يروى أنه مر ببلال وهو يعذب برمضاء مكة ، فيقول : أحد أحد ، فوقف عليه ، وقال أحد أحد يابلال ونهاهم عنه فلم ينتهوا ، فقال : والله لئن قتلتموه لأتخذن قبره حنانا[1] وقال :

لقد نصحت لأقوام وقلت لهم ... أنا النذير فلا يغرركم أحـــد
لا تعبدن إلها غير خالقكم ... فإن دعيتم فقولوا:دونه حدد[2]
سبحانه ذى العرش لاشيء يعادله ... رب البرية فرد واحد صمد
سبحانه ثم سبحانه نعوذبه ... وقبلنا سبح الجودى والجمد[3]
مسخر كل من تحت السماء له ... لاينبغى أن ينا وى ملكه أحد
لم تغن عن هرمز يوما خزائنه ... والخلد قد حاولت عاد فما خلدوا
ولا سليمان إذ دان الشعوب له ... والجن والأنس تجرى بينها البرد[4]
لا شيء مما ترى تبقى بشاشته ... يبقى الاله ويودى المال والولد
أين الملوك التى كانت لعزتها ... من كل أوب إليها وافد يفد
حوض هنالك مورود بلا كذب ... لا بد من وروده يوماً كما وردوا

ولقد كانت خـــديجة تأتى ورقة بما يخبرها به رسول الله أنه يأتيه ، فيقول ورقة : لئن كان مايقول حقا إنه ليأتيه الناموس الأكبر ، ناموس عيسى بن مريم ، ولئن نطق وأنا حى لأباين لله بلاء حسنا .

وكبرت سن ورقة ، وفقد بصره من الكبر . وتوفى بعد البعثة بقليل ، دون أن يترك له عقبا .

---

(١) أى موضع حنان ومظنة رحمة من الله أى مزارا

(٤) جمع بريد ، وهو الرسول .

(٢) الحـــدد : المنع (٣) الجودى : جبل بالجزيرة استوت عليه سفينـــة نوح . والجمد : جبل بنجد .

ولقد شهد له الرسول شهادة كريمة ، يروى أنه قال : لا تسبوا ورقة فإنى رأيته فى ثياب بيض . ويروى عن عروة أن رسول الله ﷺ قال لأخى ورقة أو لابن أخيه : شعرت أنى قد رأيت لورقة جنة أو جنتين . والشك من هشام .

وروى الترمذى قال رسول الله : رأيته فى المنام وعليه ثياب بيض ، وروى أنه سئل عن ورقة فقال : رأيته فى المنام وعليه ثياب بيض فقد أظن لو كان من أهل النار لم أر عليه البياض . فرحمه الله ورضى عنه .

أبو الأنبياء وبشارته بمحمد

كان إبراهيم عليه السلام رجلا ، وكان بطلا ، وكان صديقاً نبيا ، وكان أمة وحده ، وكان مثلا أعلى فى قوة العقيدة ، وعظمة اليقين وجلال التضحية وطول الجهاد فى سبيل الله والتوحيد والدين الحق ، دين الهدى والنور ، وشرعة السماء البارة بالأرض وبالإنسانية جميعها ، وليس هناك أروع من وصف الذكر الحكيم له : « إن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين ، شاكرا لأنعمه ، اجتباه وهداه إلى صراط مستقيم وآتيناه فى الدنيا حسنة ، وإنه فى الآخرة لمن الصالحين » ، ويؤكد الذكر الحكيم مكانته عند الله فيقول : « ولقد اصطفيناه فى الدنيا وإنه فى الآخرة لمن الصالحين ، إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين » ، ويصفه الله جل جلاله فى آية أخرى فيقول : « إنه من عبادنا المؤمنين » وفى آية أخرى يقول الله عز وجل : « واتخذ الله إبراهيم خليلا » .

وهذا أعظم ما يصل اليه بشر ، ويتطلع اليه إنسان ، ويسمو اليه بإيمانه وأعماله مؤمن كريم .. سلام على إبراهيم ، لقد وقف فى ظلمات

الحياة وضـلال البشرية ، وانحراف الناس عن كلمة التوحيد والحق ، يعيد للارض صلتها بالسماء ، ويبعث فى النفوس معانى السمو بالنفس والترفع عن عبادة الأوثان والتحرر من قيود الشرك والأهواء ، ويوقظ روح الإنسانية الوسنى التى تاهت فى مجاهل الحياة وبيداء الأوهام ، فنطق بكلمة الحق والناس غافلون ، ونادى بدعوة الخير وهم لاهون ، ورفع منارة التوحيد عالية بعد أن جاهد جهاد الأبطال .

كان إبراهيم من سلالة الأنبياء المطهرين ، من ذرية آدم ونوح ، وكان يرث هذا النور الأبدى الخالد ، نور السماء الذى أشرق على الأرض أحيانا ثم انطفأ ، ونشأ تعلو وجهه سمات الشخصية الفذة والبطل المرجى والنبى المرتقب .

وعاش فى الحياة ملكا كريما بأخلاقه وآدابه وشممه وإبائه وطموحه ، وحبه للخير وعمله له ما استطاع .

ولكنه كان فى شقاء يحيد بقومه وبالناس جميعاً ، يتلفت فلا يرى إلا ضلالا وشركا وآثاما ، وأهواء مجابة وأوثانا معبودة ، وانحرافا تاما عن دعوة الحق وتراث النبيين من قبل : آدم ونوح .

كان يحب أن يرى الإنسانية تسير بل تطير إلى غاياتها المنشودة فى الحياة الفاضلة الكريمة ، وفى العقيدة الكاملة المثلى : عقيدة التوحيد والايمان بالله ، ولكنه لم ير إلا الإثم والوثنية والشر والشرك ، وكلمة الشيطان المستجابة المحبوبة من دون كلمة الله ، فشقى بحياة الناس وبأهوائهم وضلالاتهم وجنح هو إلى التفكير الطويل فى الدين والقوة العظيمة المسيرة للحياة ، وفى مصير الانسانية وحاضر الذليل ، ومستقبلها المرموق .

رأى والده « آزر » عاكفا هو وقومه على عبادة الأصنام فلامه وضلله

«وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناما آلهة ، إنى أراك وقومك فى ضلال مبين » ، لأنه كان يؤمن إيمانا ثابتا أن لا إله إلاالله،وأنه لايستحق العبادة من دونه شيء .

ولاعجب فقد رباه الله على العقيدة الصحيحة ، ونشأه على الإيمان الحق ، وغرس فى نفسه كلمة التوحيد المطلق ، وفطره الفطرة الكاملة ، التى فطر الله الناس عليها .

وكان ابراهيم يفكر تفكيرا طويلا فى الدين بعقله ، وكان دائما يرشده إلى هذه الحقيقة الثابتة الخالدة . حقيقة الأيمان بالله وحده ، بل كان يرجع من تفكيره أكثر إيمانا ويقينا بالله .

ورأى الكواكب فى السماء ، والقمر يملأ بنوره الفضى الجميل الكون فى الليل البهيم، ورأى الشمس بازغة تمنح الحياة النور وكل مقومات الحياة، فقال لعقله : ولم لا تكون هذه المظاهر الكونية العظيمة هى آلهة الكون، وربة الحياة؟ لكنه رأى الكواكب تغيب ، والقمر يأفل ، والشمس تحتجب عن العيون وقت الغروب ، ومن ثم أرشده عقله ، إلى أنها لا يصح أن تكون آلهة معبودة . فنطق إبراهيم بهذه الكلمة الرائعة : إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفا وما أنامن المشركين

وآمن إبراهيم بنظرية إحياء الموتى إيمانا صادقا حقا ، ولكنه أراد أن يرى هذه الحقيقة بعينى رأسه ليطمئن قلبه . فدعا ربه «ربى أرنى كيف تحيي الموتى ؟ قال : أو لم تؤمن ؟ قال بلى ولكن ليطمئن قلبى ، قال : فخذ أربعة من الطير فصرهن اليك ، ثم اجعل عل كل جبل منهن جزءا ، ثم ادعهن يأتينك سعيا واعلم أن الله عزيز حكيم »

وبلغ إبراهيم مبلغ الرجولة الكاملة ، والانسانية العظيمة المصطفاة ، فأرسله الله جل جلاله رسولا إلى قومه ليهديهم إلى الله وإلى الحق وإلى طريق مستقيم .

« قال لابيه : يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئا ، يا أبت إنى قد جاءنى من العلم ما لم يأتك فاتبعنى أهدك صراطا سويا » ، ولكن والده لج فى ضلاله واستمر على غوايته ، وقال لابنه إبراهيم « لئن لم تنته لأرجمنك ، واهجرنى مليا » .

ثم دعا قومه طويلا إلى الله وإلى الحق وإلى شريعة الأنبياء ، وكلمة السماء ، ولكنهم لجوا وضلوا وغووا وأصروا واستكبروا استكبارا ؛

قال لهم : اعبدوا الله واتقوه ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون ، إنما تعبدون من دون الله أوثانا وتخلقون إفكا » .. وقال لهم « إننى براء مما تعبدون »

وجاد لهم فى أصنامهم طويلا حتى إذا يئس منها ومنهم ، قال لهم فى حرارة العقيدة وعظمة النفس المؤمنة بالله : « أفرأيتم ما كنتم تعبدون ، أنتم وآباؤكم الأقدمون ، فإنهم عدو لى إلا رب العالمين ، الذى خلقنى فهو يهدين ، والذى هو يطعمنى ويسقين ، وإذا مرضت فهو يشفين ، والذى يميتنى ثم يحيين ، والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين » .

وأرشدهم إلى إلههم الحق وأنه رب السموات والأرض الذى فطرهن.

حتى إذا يئس من أن يستجيب قومه لكلمة الحق ؛ ذهب إلى بيت الآلهة الذى نصبت فيه هذه التماثيل والاوثان فحطمها وكسرها ، « وجعلهم جذاذاً إلا كبيراً لهم لعلهم إليه يرجعون » .

وأصبح القوم ، وشاهدوا مصرع الآلهة ، فأيقنوا أن إبراهيم هو

الذى حطمها وفعل بها هذه الفعلة النكراء ، ومن غير إبراهيم يجرؤ على الآلهة هذه الاجتراء العظيم ؟ فاعتقلوه وحاكموه ، وقرروا أن يعدموه حرقا بالنار ، ولكن الله أوحى إلى النار أن لا تحرق هذا الجسم الطهور ، « قلنا يانار كونى برداً وسلاماً على إبراهيم ، وأرادوا به كيداً فجعلناهم الأخسرين » .

نجاه الله فخرج من أرض قومه مهاجراً « إلى الأرض التى باركنا فيها للعالمين » .

أقام بالشام يدعو الناس إلى الله ، ويهديهم إلى الحق والإيمان والعقيدة المثلى ، وطفق يبلغ الرسالة ويؤدى الأمانة فى قوة ويقين وجهاد فى سبيل الله ، ويبشر برسول يأتى من بعد اسمه أحمد » .

ووهبه الله إسحاق ، وذرية صالحة كريمة ، ومن قبل منحه إسماعيل ، الذى سعى به استجابة لداعى الله إلى الحجاز ، وأقام إسماعيل مع بعض القبائل العربية حول مكة ، وتفجرت له عين كريمة من الماء هى عين زمزم ، وأخذ قلب إبراهيم الكبير يرفرف بعطفه على ولده اسماعيل ؛ فابتهل إلى الله أن يجعل موضع إسماعيل كعبة للناس « ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ، ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم ، وارزقهم من الثمرات ؛ لعلهم يشكرون » .

وأخذ إبراهيم وإسماعيل يجددان بناء البيت الحرام ، ويطهرانه للطائفين والعاكفين والركع السجود ، « وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ، ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم ، ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك ، وأرنا مناسكنا ، وتب علينا إنك

أنت التواب الرحيم ، ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم ».. كما أخذ يؤذن فى الناس بالحج إلى هذا المكان الطاهر الكريم « وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق » .

واسماعيل وهو الابن البار ، والشاب المحبوب ، وفلذة كبد أبيه ، صمم إبراهيم أن يضحى به وهو صغير استجابة لكلمة رآها فى المنام .

قال له إبراهيم : « يابنى إنى أرى فى المنام أنى اذبحك فانظر ماذا ترى، قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدنى إن شاء من الصابرين » .

استجاب الابن والاب لداعى الله « فلما أسلما وتله للجبين ، وناديناه أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزى المحسنين ، إن هذا لهو البلاء المبين ، وفديناه بذبح عظيم » .

أى عقيدة بلغت من القوة والسمو واليقين هذا المبلغ العظيم ، الذى بلغته العقيدة فى نفس إبراهيم ؟ .

وهكذا عاش إبراهيم ما عاش مؤمناً قوى الإيمان ، مجاهداً فى سبيل إيمانه ، مشرداً عن وطنه ، داعياً إلى التوحيد المطلق ودين الانسانية المهذبة، وكلمة السماء الهادية للأرض ومن فيها .

وبعد فلقد وسع قلب إبراهيم الكبير كل معانى الخير والرحمة ، والبر والحنان والانسانية الكريمة ؛ كما وسع كلمة الحق والصدق والعقيدة والايمان .

أشفق على أبيه أن تمسه النار ،فدعاه وحذره فأبى واستكبر فأخذ يدعو الله له أن ينقذه من عذاب الجحيم ، قال له « سأستغفر لك ربى إنه كان بى حفيا»

ولكنه حنان الأبناء ووفاؤهم للآباء . لأستغفرن لك وما أملك لك من الله من شيء » ، ثم أخذ يضرع إلى ربه : « واغفر لأبي إنه كان من الضالين» «رب اغفر لي ولوالدي وللمؤمنين يوم يقوم الحساب » ، ولكن الله لا يرحم مشركا ، وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه إن إبراهيم لأواه حليم » .

ثم أسكن ابنه في الصحراء فأخذ يبتهل إلى الله أن يجعل مكان إقامته بلداً آمناً وأن يرزقه وأهله من الثمرات .

وأشفق على قومه فنصحهم نصح المشفق الأمين ... ثم أراد أن يطمئن على مستقبل الانسانية ، وعلى أن كلمة الحق والدين ستبقى ، وأن شعلة الايمان لن تنطفىء فدعا الله أن يجعل من ذريته أمة مسلمة ، وأن يبعث فيها رسولا منها يطهرها ويزكيها ويصلها بالله . وبشر بمحمد خاتم الأنبياء فتحققت بشارته .

وبعد فدين إبراهيم دين الحنفية البيضاء وشريعته هي الشريعة المطهرة التي دعا اليها الأنبياء بعده ، ولقد عاش إبراهيم عظيما ، ومات كريما وترك ذرية طيبة تعبد الله في الأرض ، وكان من نسله الكثير من الأنبياء والمرسلين حتى لقب « بأبي الأنبياء » ، ولقد تلقى ابراهيم عن ربه كلمات الدين والتوحيد فأتمهن ، وبلغها للناس تامات ووفى بعهد ربه ونشر كلمة الإيمان في الآفاق وذهب راضيا مرضيا ، « وتركنا عليه في الآخرين : سلام على إبراهيم ، كذلك نجزي المحسنين » .

ثم ورث محمد صلوات الله عليه عنه هذا الميراث الالهي العظيم ، وجاء بعده بأجيال ليحقق للإنسانية السعادة والأمن والسلام

مولد منقذ الانسانية محمد رسول الله

— ١ —

فى فجر يوم الاثنين لاثنتى عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول عام الفيل ، أو لتسع ليال مضت منه كما يذهب إليه الكثير من الباحثين (وذلك يوافق العشرين من شهر ابريل عام ٥٧١ م) .

فى هذه اللحظات الفذة فى تاريخ البشرية ، ولد محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصى ، ولد الطفل الذى هتفت بذكره الأرجاء ، وسجل مواقفه الرائعة التاريخ ، وأنصتت لحديثه الدنيا، واهتزت لأنباء جهاده فى بلاد العرب وماحولها الأمراء والملوك والأكاسرة والقياصرة ، وآمنت بمبادئه وكبرت لشريعته الحياة والناس أجمعون .

ولقد ألهم الله أمه آمنة أن مصير العالم سيكون بعد قليل فى يدى طفلها الوليد هذا ، وأن اسمه سيحتل الصفحات الأولى فى سجل الإنسانية ، وأن عصوراً جديدة توشك أن تبدأ ويكون بطلها الأول محمد بن عبد الله فأرسلت إلى جده عبد المطلب أنه قد ولدلك غلام ، فأتاه فنظر إليه وحدثته بما فى قلبها وما تزدحم به مشاعرها من شتى البشريات ومختلف الذكريات ، فأخذ عبد المطلب طفله ودخل به الكعبة ، وقام يدعو لله ويشكر له ما أعطاه ، ثم خرج به إلى أمه فدفعه إليها ، وقال لها : لقد سميته محمداً ليحمد فى الأرض والسماء ... وفى اليوم السابع لمولده ختنه جده كما كان العرب يفعلون .

والتمس عبد المطلب لطفله مرضعاً من نساء البادية ، وكان من عادة العرب أن تلتمس المراضع لأولادها فى البادية ، فاسترضع له امرأة من

بنى سعد بن بكر ، وهى حليمة ابنة أبى ذؤيب ، وكان زوج حليمة هو الحارث بن عبد العزى وكان يكنى بأبى كبشة ، وكان إخوة محمد من الرضاعة : عبد الله بن الحارث وأنيسة بنت الحارث وخذامة بنت الحارث

وأقام محمد مسترضعاً فيهم قريباً من أربع سنين، وكانت حليمة تحدث أنه ما حملها على أخذ هذا الطفل اليتيم لتقوم برضاعه إلا أنها لم تجد غيره ، وأنها قالت لبعلها وهى فى مكة تبحث عن طفل تذهب به : « والله إنى لأكره أن أرجع من بين صواحبى ، ولم آخذ رضيعاً ، والله لأذهبن إلى ذلك اليتيم فلآخذنه » ، فقال لها زوجها : « لاعليك أن تفعلى ، عسى الله أن يجعل لنا فيه بركة » ، وكانت حليمة ترى الخير والنماء والبركة منذ مقدم هذا الطفل إلى حيها ، وكان محمد يشب شبابا حسنا ، وكان رضاعه عامين فلما نفذا وفدت به على أمه بمكة ترجو أن ترجع به ليقيم معها فى البادية زمناً آخر ، فلما مضت أشهر معدودة من عودته مع حليمة ذهب ليلعب مع أخيه خلف البيوت ، وسرعان ماقدم أخوه إلى أمه حليمة يشتد ، وهو يقول لها ولأبيه : « ذاك أخى القرشى قد أخذه رجلان عليهما ثياب بيض ، فأضجعاه ، فشقا بطنه فهما يسوطانه » ، فخرجت حليمة وبعلها نحوه ، فوجداه قائما منتقع الوجه ، فالتزمته والتزمه أبوه ، فقالا له : « مالك يابنى ؟ » ، قال : « جاءنى رجلان عليهما ثياب بيض، فأضجعانى وشقا بطنى ، فالتمسا شيئا لا أدرى ما هو : فخافت حليمة وزوجها على محمد

ولما عادت به إلى مكة ، قصت على أمه قصته ، فقالت آمنة لحليمة : إن لابنى لشأنا ، ولقد رأيت حين حملت به نوراً خرج منى فأضاء لى قصور بصرى من أرض الشام ، ثم حملت به فوالله مارأيت من حمل حاملة قط

كان أخف ولا أيسر منه، ووقع حين ولدته وإنه لواضع يديه بالأرض رافع رأسه إلى السماء ، دعيه عنك وانطلق راشدة » .

— ٢ —

وأقام الغلام مع أمه فى كلاءة الله وحفظه ، ينبته الله نباتا حسنا لما يريد به من كرامته . فلما بلغ ست سنين توفيت أمه آمنة بالأبواء بين مكة والمدينة ، وكانت قد قدمت به على أخواله من بنى عدى ابن النجار تزيره إياهم ، فماتت وهى راجعة به إلى مكة ، واستمر فى كفالة جده عبدالمطلب يرعاه ويحبه ، ويجلسه معه على فراشه فى ظل الكعبة وبنو عبد المطلب يجلسون حول الفراش لا يستطيع أحد منهم الجلوس عليه مع عبدالمطلب وطفله محمد ، وكان عبد المطلب يقول : دعوا ابنى فوالله إن له لشأنا .

ولما بلغ الغلام ثمانى سنين مات عبدالمطلب بن هاشم وورث مفاخره ابنه العباس وصار محمد بعد عبد المطلب فى كفالة عمه أبى طالب .

وكان أبو طالب سيدا من أجل سادات قريش وبنى هاشم، وكان الناس يتنبأون أمامه بمستقبل جليل لهذا الغلام الصغير، وأنه سيكون له شأن وأى شأن . ولما سافر بمحمد إلى الشام فى تجارته ، وقابله بحيرا الراهب قال بحيرا لأبى طالب : ارجع بابن أخيك إلى بلده واحذر عليه اليهود فانه كائن لابن أخيك هذا شأن عظيم .

وحفظ الله محمدا وعصمه من أقذار الجاهلية ، وصار أفضل قومه مروءة ، وأحسنهم خلقا ، وأكرمهم حسبا ، وأحسنهم جوارا ، وأعظمهم حلما . وأصدقهم حديثا ، وأبعدهم عن الفحش والدنس ، وأكثرهم أمانة ، حتى سماه قومه « الأمين » .

وخاض مع قومه حرب الفجار وهو فى الخامسة عشرة من عمره . واشترك فى حلف الفضول على نصرة المظلوم ، وتزوج خديجة بنت خويلد الأسدية وهو فى الخامسة والعشرين من سنى حياته الميمونة ، وهدمت قريش الكعبة لتجدد بناءها واختلفوا فيمن يكون له شرف وضع الحجر الأسود فى مكانه فكان محمد الحكم بينهم ، وارتضى حكمه الناس جميعا ، وكان إذ ذاك فى الخامسة والثلاثين .

وكان يعبد الله على الحنيفية البيضاء دين ابراهيم وإسماعيل ، ويتعبد فى غار حراء الليالى ذوات العدد . فلما بلغ الأربعين اختاره الله لرسالته العظمى ، واصطفاه ليحمل أمانة الله ووحيه إلى الناس كافة . وليكون خاتم المرسلين وخير النبيين . ونزل عليه جبريل بالوحى وهو فى حراء يوم الاثنين لسبعة عشرة ليلة خلت من رمضان (٦ أغسطس ٦١٠ م) وعمره إذ ذاك أربعون سنة وستة أشهر وثمانية أيام .. قال له جبريل : اقرأ ، قال : ما أنا بقــارىء ، قال : اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم ، الذى علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم » ، وسمع الصوت مجلجلا فى السماء : « يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل » .

وبلغ محمد قومه رسالة ربه ، فآمن من آمن ، وجحد من جحد ، وظل يدعو إلى الله سراً وهو فى قومه ، ثلاث سنين ، أجابه فيها عدد قليل من الرجال والنساء والأطفال والمستضعفين ، ثم جهر بالدعوة ، وصمد لإيذاء قريش عشرة أعوام أخرى ، ثم هاجر من مكة إلى المدينة مبشراً بدين الله ، وداعياً إلى شريعة الإسلام والحق والخير والمساواة .

— ٣ —

وانتصر محمد فى المدينة فى معارك كثيرة : انتصر فى حربه مع المنافقين واليهود والذين يعملون على وأد الإسلام دعوة الحرية والطهر والسلام ؛ وانتصر فى حربه مع الشرك والوثنية ففتح مكة وحطم الأصنام والأوثان وجعل كلمة الله والتوحيد هى العليا وكلمة الذين كفروا هى السفلى ؛ وانتصر فى الحروب التى فرضتها عليه القبائل العربية ، فرق الحصار تلو الحصار عليه وعلى جيشه الظافر ؛ وانتصر فى الميدان السياسى انتصاراً باهراً ، بجمع العرب كلها فى وحدة واحدة وتحت ظلال سياسة إسلامية كريمة واضحة الأهداف والنزعات الإنسانية العالية ؛ وانتصر فى ميادين الإصلاح والاجتماع ، فألف بين القلوب ، وداوى المزمن من الأمراض ، وأطفأ نزغات القلوب واستل ما طويت عليه من حقد وخصومة وإحن .

أقام اشتراكية بارعة تجمع بين الغنى والفقير برباط المحبة والتعاون والإخاء ويشارك الفقراء فيها الأغنياء ، والأغنياء الفقراء ، مشاركة فعالة ملهمة حافزة على العمل لخير المجموع الانسانى وسعادته . وأقام المجتمع الاسلامى على أصول متينة قوية لا يعتريها الضعف والوهن ، أصول تجمع بين النظام والحرية والشورى والإيثار والتضحية وحب الجماعة وتقديس حقوق الفرد ، وبين العدالة والانصاف والحرص على كرامة الناس وطمأنينتهم ورفاهيتهم وتقدير كل ذى كفاية وموهبة وكل عامل يعمل الواجب ويشعر بالمسئولية ويقدس مصالح الناس وحقوقهم . وحارب محمد الفقر والجهل ، ودعا إلى أنبل الأخـــلاق وأسمى الفضائل وأكرم الأعمال ، وقضى على الفساد فى مختلف ألوانه ، وطهر الحياة من الأدران والآثام والفوضى والاستغلال ، ونشر دين الله ، وبشر بكتاب الله

ورسالته ، ووجه العرب لدعوة الأمم إلى هـذه الشريعة المطهرة ، وتلك العقيـدة الكريمة ، فلم تمض أعوام قلائل بعـد وفاته ، حتى فتحوا الشام ومصر والعراق وبلاد الفرس، ثم أخذوا يسيحون فيما وراء هذه الأقطار داعين إلى كلمـة الله ، محطمين للأغلال والوثنيـة والشرك والاستعباد ، ناشرين العدالة بين الأمم كافة ، مضحين بكل عزيز لديهم فى سبيل إنقاذ البشرية وهـداية الانسانية ؟ كل ذلك بدافع الاخـلاص لله ولرسوله الكريم ولـكتابه الحكيم .

فما أعظم هذا الرسول العربى الأمى الذى بدل سير التاريخ ، وحول مجرى الحياة ، وقضى على عصور الوحشية والجاهلية المظلمة ، وحارب كل استغلال جشع ، وإقطاعية مفترسة ، وهمجية متنمرة ، ووثنية مضللة.

صلى الله عليه وعلى آله وصحبه ، ما أضاء النهار وأظلم الليل ؛ وهدى به أمته إلى خير الأعمال والعقائد ، وإلى سعادة الأولى والآخرة ، إنه أكرم مأمول ، وأجل مسئول ، وما توفيقنا إلا بالله ...

هذا النور مازال يهدى الإنسانية

تلك الانسانية الحائرة المضللة ترنو ببصرها إلى السماء ، تنشد النور والهدى والحق والسلام ؛ وهذه الحياة الموحشة الكئيبة تنسم روائح الحرية والعدالة والأخاء ، بعد أن عافت رؤية الدماء والأشلاء واستبداد الأقوياء بالضعفاء ، وملت سماع أنغام العبودية والرق والاستعباد والسيطرة على الناس والاستهانة بحريات الأفراد والجماعات والشعوب، وهذه الأرواح والقلوب والمشاعر الظامئة إلى نبع الروحية والأيمان والأمان تحوم فى أجواء السماء ، باحثة عن الصوت السماوى الخالد الذى دوى فى أسماع

البشرية حينا بعد حين ، وجيلا بعد جيل ، ليبلغها رسالة الكمال الانسانى الأعلى ، وليرشدها إلى الحقيقـــة الـكبرى التى قامت عليها الأرض والسموات والـكون .

واتجهت الآمال والأبصار كلها إلى جزيرة العرب ، إلى قلبها النابض بالحياة : مكة ، وإلى ذؤابة العرب كلها فى قريش ، وإلى ميراث النبوة الخالد من آل عبد المطلب بن هاشم ، وإلى بيت عبد الله بن عبد المطلب وزوجه الطاهرة آمنة بنت وهب . واستقر الالهام الصـادق على أن رسولا جديدا يوشك أن يظهر فى الـكون ليحدث أعظم ثورة إنسانية أرادها الله وعرفها التاريخ وباركتها السماء ، وليقود الناس من جديد إلى الحرية الكاملة والمسـاواة التامة والمدنية الباهرة والحضارة الزاهرة والسلام المنشود .

وأخذت الأحبار والرهبان والـكهان تهتف من أعماق قلوبها فى صمت عميق وعجب عجيب : لابد من ميلاد النور الأعظم ، الذى سيضىء الآفاق ويحرر العالم كله من إسار الظلام والظلم والعبودية ، لابد من ذلك فالأمل قريب والبشرى توشك أن تتحقق ، والنشيد الخالد الذى طالما ظمئنا إلى لحنه الرائع قد بدأت أنغامه الموقعة وكأنها صيحة البعث والحرية ، لابد من أن تتحقق نبوءة موسى وعيسى بمولد « روح الفهم والمشورة ، وروح الحكمة والقوة ، وروح الخوف والمحبة ، وروح التبصر والاعتدال ، والعدل والتقوى والرحمة ، فما أسعد الزمن الذى سيأتى فيه إلى العالم [1] » كله

(١) من إنجيل برنابا إصحاح ٤٤

ومات عبد الله شابا ، وترك النور متألقا فى هـذا الجنين الطاهر المطهر ، المودع فى مجمع الأصـلاب الطاهرة ، وسلالة أشرف من فى الوجود من أهل الدنيا والآخرة . . ومسحت آمنة دموعها ، وأقامت على الايمان والصبر والعزاء الكريم ، ولـكنها كانت تسير وتقف وتنام وتستيقظ وتصبح وتمسى وتعيش فى كل لحظة لتسمع هتافا أبديا خالدا تردده الأجيال من أعماق الزمن وأغوار الأنسانية : بشراك يا آمنة فإنك تحملين النور الأعظم الذى سيضىء على الآفاق وسيملأ الدنيا ذكرا وبشرا وخيرا وبرا وأملا وسعادة وحيويةوحياة ، بشراك يا آمنة بميلاد خاتم النبيين وآخر المرسلين ، بشراك بما بشر به يسوع بابتهاج قلب : « إنه محمد رسول الله ، ومتى جاء إلى العالم فسيكون ذريعة الأعمال الصالحة بين البشر ، بالرحمة الغزيرة التى يأتى بها ، فهو غمامة بيضاء ملأى برحمة الله ، « وهى رحمة ينثرها الله رذاذا على المؤمنين كالغيث [١] » .

ثم جاء فجر الميلاد النبوى الكريم [٢] ، فرأت آمنة نوراً أضاءت له قصور بصرى بالشام ، واهتز إيوان كسرى معلنا قرب زوال العبودية من على ظهر الأرض ، وكبرت الكعبة إيذانا بميلاد نبى السلام والأسلام والتوحيد ، ورأى هرقل أن ملك الختان قد ظهر فأيقن أن دولة الرومان ستصير أثراً بعد عين ، وأخذت الملائكة تفد على مكة ، تحى الميلاد الكريم والطفل العظيم : روح الله ، والأنسانية ، وقائد الناس إلى السمو

---

(١) إنجيل برنابا إصحاح ١٦٣

(٢) كان ذلك فى ليلة الاثنين اليوم التاسع أو الثانى عشر من ربيع الأول عام الفيل الموافق ٢٠ إبريل عام ٥٧١ م

والخير والاخاء والحرية ، « قدوس القديسين الآتى بالبر الأبدى » وهو القرآن المحفوظ إلى يوم القيامة » ، و « روح الحق الذى يرشد إلى جميع الحق لأنه لا يتكلم من نفسه ، بل كل ما يسمع يتكلم به » .

ثم نما الطفل وكبر ، فرأى من آيات ربه ما رأى ، وأصبح شابا ، وأصبح حكيما يومى إليه بالبنان ، ورجلا تهتز لحديثه المشاعر وتصغى إليه الناس وتهتف به الحياة ، وتردد ذكره الدنيا . .

ثم نزل عليه الوحى من ربه فبلغ الرسالة وأدى الأمانة ، وجدد معالم الوجود وغير مجرى الحياة والحضارة ، وحارب الوثنية والشرك ، كما حارب العبودية والرق والطغيان ، والاستغلال والباطل والزور والبهتان ، وقضى على الرأسمالية والاقطاعية التى كانت تسعى فى الأرض لتفسد فيها وتهلك الحرث والنسل ، وحرر الرقيق والعامل والمرأة والخادم ، وحمى حقوق الفقراء والضعفاء ، وأقر حقوق الانسان ورعاها ، وأقام الحياة على أصول تجمع بين الحق والواجب والخير والرحمة والعدالة والمساواة والاخاء والحرية والكرامة والشرف والروحية والمادية المهذبة ، ومحا الجهل وحارب الفقر وقضى على الظلم والجور والظلام ، وهدى الناس كافة إلى دين الله ، وبعث الأمن والسلام والسعادة والرفاهية فى الأرض ، وأيقظ القلوب الغافية التى تحجرت فى الصحراء فأصبحت تبكى لدموع اليتيم ، وتهتز لمرأى المسكين والمحروم وابن السبيل ، وتسعى فى الأرض تطلب المجد والذكر والعظمة ، وآثرت حياة البطولة والتضحية والشرف على كل شىء ، وضربت أروع الأمثال للناس فى مشارق الأرض ومغاربها ، ونشرت هدى الله ونور الاسلام فى كل مكان وطئته أقدامها .

انقلاب كان معجزة المعجزات فى تاريخ الحياة ، وثورة كانت ظاهرة فذة فى نواميس الاجتماع ، ورسالة ليس لها نظير فى الدنيا كلها ، وآيات بينات كلها هدى ونور أضاء الآفاق وغمر الأكوان وملأ العالم بهجة ومرحا ونشوة وشعورا عميقاً بالسعادة ، هدى هذا النور الدنيا أجيالا طوالا ، ومع ذلك كله فما يزال هذا النور يهدى الانسانية ، ولن يزال كذلك أبد الآباد حتى تقوم الساعة باذن الله ؟

أصول ومبادئ عامة

الاتجاهات الجديدة فى الفكر الاسلامى

الفكر الاسلامى القديم قدم للانسانية أجل الخدمات واعظمها طول عصور التاريخ ، فهو الذى حافظ على التراث الانسانى القديم فى الآداب والعلوم والفنون ، ونقله إلى اللغة العربية الحية الذائعة ، وأضاف إليه الكثير من نتائج البحث والدراسة والتجربة ، وهو الذى قدم للعالم الافكار الجديدة المثمرة فى نواحى الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية ، وارتقى بالشعوب المتأخرة ، وحارب الاستعباد ، وقضى على الهمجية والوحشية وعهود الرق والاقطاع والوثنية والبدائية الأولى .

ولقد كان للكندى والفارابى ثم ابن سينا والغزالى وابن رشد وابن زهر وابن طفيل وسواهم من أعلام الفكر الاسلامى أجل الآثار فى تنبيه الفكر العالمى ، وفى يقظة الانسان الفكرية والأدبية والاجتماعية فى كل مكان .. ومن قديم احتفى شارلمان بالآثار المهداة إليه من المشرق ، وأعجب قادة الحروب الصليبية بما وصل إليه الشرق من تقدم وحضارة ، وتعلم شبان الغرب فى جامعات صقلية والاندلس العربية فاحبوا العربية وآدابها وعلومها ، وقدروا العرب وعقليتهم الناضجة الواعية .

ومن ثم بدأت نهضة أوربا ، وتحرر الفكر البشرى من قيود الرجعية القديمة .. ولكن الشرق كان قد تعب من الكفاح والبحث والدراسة ، فاخذت الفكر الشرقى سنة من الخمول والجمود والركود الشديد .. إلى أن أيقظه اخيراً ضجيج الحضارة الاوربية فى القرن التاسع عشر والقرن العشرين ، وبهره ما وصل إليه الغرب من مدنية لم تشاهدها عين الانسان من قبل ، وذكر ماضيه القديم الذى كان قد نسيه ، وشاهد صخب المدافع

والطائرات التى اجتاحت بلاده فى حروب استعمارية صاخبة لا عهد له بمثلها .

استيقظ الفكر الاسلامى الحديث على صوت جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده والكواكبى وسواهم من الدعاة إلى الحرية والتجديد ، وعلى نداء تلاميذ هذه الطبقة من امثال مصطفى كامل وسعد زغلول وعبد العزيز جاويش ولطفى السيد وعبد الحميد بدوى وغيرهم .. ونقلت إليه من الاستانة ومن عواصم أوربا صوراً رائعة لجهاد العلماء الفكرى فى كل ميدان .. فاخذ يتحرك حركة الحياة والبعث واليقظة القومية الواعية ، فى كل قطر وكل عاصمة .

وبدأ المفكرون فى الشرق العربى يدعون إلى إنشاء الجامعات ، فبدأ مشروع الجامعة المصرية فى القاهرة من عام ١٩٠٨ وسار بخطوات وئيدة حتى عام ١٩٢٥ ، ثم انشئت جامعة الاسكندرية وجامعة ابرهيم وجامعة أسيوط .. وظل الأزهر — الجامعة القديمة التليدة — يؤدى رسالته فى التهذيب والتثقيف .

وفى العراق دعا الداعون إلى الجامعة العراقية ، وكذلك قامت فى سوريا الجامعة السورية .

ولكن الفكر العربى الحديث بدأ يمل حياة التقليد ، فذاعت الدعوة إلى التجديد فى كل ميدان وكل جانب : فى الآداب والعلوم والاجتماع والاقتصاد والسياسة وسواها .. وبدأ يثور على الرجعية السياسية ، فبدأت الحركات الديمقراطية السياسية تظهر فى سوريا ومصر ولبنان والعراق ظهوراً واضحا .

وبدأت مشكلة أخرى فى الظهور ، وهى هل يسير الفكر العربى الحديث فى ظلال الاتجاهات الفكرية السائدة اليوم فى أوربا وأمريكا ، أو يعيش

متوثبا فى ظلال الاتجاهات القديمة ، أو يؤمن بالقديم والحديث معا ويتأثرهما معا، أو يفهم القديم الشرقى والحديث الغربى ويعمل بشخصيته الكاملة على الاستنباط والابتكار ؟

من غير شك وجد لكل رأى من هذه الآراء دعاة وانصار متعصبون ، ولكن المستقبل لدعاة الرأى الأخير الذى يقوم على إحياء شخصية العربى الفكرية إحياء كاملا جديدا متوثبا .

ولكن ما موقفنا اليوم من الحضارات الحديثة ؟ مسألة أخرى اتجه إليها تفكير المفكرين العرب ، وبحثوها ، وخرجوا منها بعدة آراء متناقضة ، هل نعيش فى حدود الاقليمية الضيقة ، أو نؤمن بالعروبة كعقيدة ، أو نذهب إلى الجانب الانسانى عامة من غير قيود وحدود ؟ وكان لكل جانب من هذه الجوانب أنصار ودعاة ، وأعتقد أن الفكر العربى الحر لا بد أن يؤمن بالرأى الأخير إيمانا جازما فى القريب العاجل .

وتجد مشكلات فكرية كثيرة متعددة بين الحين والحين .. ولكن من المسلم به أن الاتجاه الحديث للفكر الإسلامى يميل إلى الحرية الشخصية والابتكار الذاتى والإيمان بالمبادىء الانسانية العامة ، التى هى من أصول الاسلام .. واعتقد أن عصر السطحية والقشور قد انتهى إلى غير رجعة فى حياتنا الفكرية ، وبدأ عهد جديد يبشر به المفكرون عامة، سمته الاخلاص للعلم . والتبتل فى محراب الحق والبحث .

والأدب والشعر هما الأناشيد العذبة الرائعة التى رتلها المفكرون من أعلام الأدباء فى مصر والبلاد العربية ليبشروا بحياة فكرية جديدة ، وليهدموا بمعاولهم الحرة روح الجمود والرجعية التى كانوا من ضحاياها ،

ومن هؤلاء جميل صدقى الزهاوى وعبد الرحمن شكرى وأحمد زكى أبو شادى... وسواهم .

إرادة الشعب من إرادة الله

كان الحاكمون فى العصور القديمة يضفون على أنفسهم صفات الألوهية ويعتقدون أن دمهم الملكى الموروث نفحة من السماء ، وأنهم فوق كل مسئولية وإرادة ، وكانت الشعوب لا حول لها ولا قوة ، وكانت عقيدة العامة أن الحاكم ظل الله فى أرضه ، وأن إرادته من إرادة الله ، وكان الاستبداد والإضطهاد وقتل مقومات الشعوب ووأد الحريات عملا مشروعا ، وشيئا مباحا . مادام ذلك كله بأمر الحاكم ومشيئته .

وجاء محمد برسالته الكريمة يبشر بها بين الناس كافة ، ويهدم بها هذه العقائد الفاسدة ، والأوهام الضالة ، فأعلن حرية الشعوب ، وأذاع حقوق الإنسان ، وأبطل الرق فى شتى صوره وحارب الظلم والإضطهاد والاعتداء والحيف على حقوق الناس وكرامتهم وحريتهم ، ونادى بأن للمحكومين ما للحاكمين . وأن إرادة الشعب من إرادة الله ، وأن الأمة مصدر السلطات ، وأن الحاكم مسئول عن أعماله ، وأنه مثل كل إنسان يجب أن يخضع للقانون والدين ، بل ضاعف من مسئوليته أمام الله ، وحمله كل ظلم وفساد وجور وخطأ واضطهاد يقع على الناس ، وألزمه أن يسير على الجادة ، وأن يحكم باسم الشعب لخير الشعب ، وأن يعود إلى الحق إذا تبين الخطأ فى عمله ، وأن

يحترم حقوق رعيته ويحافظ على حرماتها وكرامتها وحرياتها وأموالها وأعراضها ، وأن يحافظ على الامانة التى استودعه الله إياها ، وسيسأله الله عما صنع فيها ، وألا يبرم أمرا دون أولى الرأى والمشورة والصدق والخبرة والمعرفة الصحيحة بالأمور ، وفى ذلك يقول محمد صلوات الله عليه : كلكم راع ومسئول عن رعيته . . الخ » . ويقول أبوبكر خليفة رسول الله : « أيها الناس إنى وليت عليكم ولست بخيركم فإن رأيتمونى على حق فأعينونى ، وإن رأيتمونى على باطل فقومونى » .

نادى محمد بالمساواة والاخاء والحرية ، وشرع شرائع الديمقراطية الصحيحة . ورفع منزلة الشعب لجعله هو المهيمن على الحكام ، وأوجب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ولم يجعل على مخلوق طاعة فى معصية الله ، وحرم على الرؤساء أعمال النهب والسلب وقتل الناس والإستبداد بهم ، وألزم الرؤساء والمرءوسين بإحترام القانون السماوى الذى ينظم العلاقة بين الحاكم والمحكوم وبين المحكومين بعضهم مع بعض ، وبين كل إنسان ونفسه

شريعة واضحة ، ونظام محكم ، ومذهب واضح فى الحكم ، فرضه الإسلام ودعا اليه وحث عليه ، وألزم به .

وفى العصور المتأخرة تنكب الناس الطريق ، وحادوا عن الدين ، وانصرفوا عن مبادىء الإسلام ، وعاد الحكام سيرتهم الأولى ، فأصبح الحكم استبداديا بعد أن كان شوريا ، وصار الحاكم هو المهيمن على كل شىء دون الشعب ، وأصبحت إرادة الشعب لاتساوى شيئا بجانب إرادة الحاكمين ، وأباح الملوك والأمراء والمسئولون عن الشعوب لأنفسهم قتل

الحرمات ووأد الحريات وسفك الدماء ونهب الأموال والعبث بكل شيء واطراح أوامر الدين ، والتفريط فى الأمانة المقدسة الملقاة على كواهلهم، والنظر إلى كل شيء للرعية على أنه ملك خاص للحاكمين يتصرفون فيه كما يريدون رغما عن ارادة مالكيه ، واعتبار أموال الدولة مالا خاصا للحاكم يبعثره كما يشاء ، وينفقه على أهوائه وملذاته بغير حساب فأقاموا صرحا شامخا للاقطاع أخذ الأغنياء فى ظله كل شيء وحرم الفقراء من كل شيء .

لذلك كانت ثورة مصر انتصاراً رائعاً لفكرة الحرية ، وتحقيقا لأهداف الإسلام ومبادئه العالية ، وتأييداً لسلطان الشعب وإرادته ، وتعبيرا صادقا عن شعور المواطنين وعواطفهم وآمالهم، وسنداً قوياً لحق الشعب فى الحرية والعدالة والكرامة الإنسانية .

لقد قالت الثورة للناس : إنه ليس من حق أى حاكم أن يفرض إرادته على الشعب ، ودعت كل مواطن إلى الإيمان بمبادىء الثورة وأهدافها التى تتلخص فى حق الشعب فى أن تحترم إرادته ، وحق الفقير فى الحياة الكريمة وحق المريض فى العلاج والدواء وحق الجائع فى الطعام والغذاء وحق العامل فى العمل ، وحق الجاهل فى العلم ، وحق الفلاح فى أن يملك الأرض وألا يستبد به مالكوها . وحق كل إنسان فى أن يرقى ويتبوأ أرقى المناصب ، وفى إتاحة الفرص له إتاحة قائمة على مبدأ تكافؤ الفرص للناس جميعا .

لقد قالت الثورة ماقاله ديننا الخالد من أنه ليس هناك سيد ومسود ولا عبد وحر ، بل المواطنون كافة أحرار يعيشون فى وطن حر كريم . لغايات شريفة عالية مثلى .

حرية وكرامـــة

ان الاسلام يأبى ان ينصب الحاكم نفسه طاغية ، وان يخلع على نفسه صفات التقديس ، وان يزعم انه فوق المسئوليات والقوانين .. والاسلام دين العدالة والحرية والمساواة ، فهو يحرم الظلم والطغيان واصطناع الفوارق بين الناس ، ومن ثم كره الإسلام الحاكم الظالم ، والوالى المستبد ، وحذر الرؤساء من الحكم بين الناس بالاهواء والشهوات والمحسوبية .

والحاكم فى رأى الإسلام له رسالة عالية . فهو حاكم دستورى ، وحكمه يجب ان يكون مبنياً على الشورى وتبادل الآراء والإيمان بالحق فى كل شىء ، فالحكم شورى أساسه مصلحة الجماعة والدولة والوطن . . ولا تجوز طاعة الحاكم اذا جار أو ظلم ، فطاعته مقيدة بقيود كريمة فاضلة .. ومن ثم يجب أن يكون الحاكم من أمثل المسلمين خلقاً ودينا وعفة وأمانة ونزاهة وإيثاراً للمصلحة العامة ، وأن تكون ولايته للحكم بعد اختيار صحيح حر من الشعب فهو حكم فيه خصائص الحكم الجمهورى ومزاياه النافعة .. ومن ثم كان الحكم الملكى الموروث أبعد شىء عن روح الدين واهدافه العالية ومراميه الكريمة ، ولقد اختير أبو بكر خليفة لرسول الله باختيار الصحابة له بعد وفاة الرسول الأكرم ، واختير عمر باختيار أبى بكر له كما اختير عثمان من جماعة رشحهم عمر قبل وفاته لتولى منصب الخلافة العظمى لظروف تتعلق بالمصلحة العامة للأمـة الاسلامية إذ ذاك ، على ان جمهور المسلمين رشحوه لهذا المنصب الخطير ..فلم يرشح أحد للخلافة إثر عهد الرسول وفى عهود خلفائه الراشدين، لأنه ابن أمير أو وال أو خليفة ، ولكن رشح لأنه أصلح الأمة ليعتلى فيها منصب الإمامة الكبرى، ويكون خليفة لرسول الله صلوات الله عليه .

انا الحكم الملكى الموروث لايعرفه الاسلام ، ولايؤمن به لانه حكم يقوم غالبا على الطغيان والظلم والاستبداد والمحسوبية ، وعلى الفروق المصطنعة بين الناس التى هدمها الاسلام ورسوله الكريم ، وكثيرا مايؤول الحكم الموروث إلى تسخير الدولة كلها لمصالح فرد شاءت له الأقدار أن يكون ابن ملك وأمير . وهذا الحكم الموروث يخصص أسرة من الأسر بسيادة الناس ، وهذا التخصيص ليس له دعامة من العقل أو المنطق ولا من الدين نفسه ، لا سيما وأن الاسلام دين الديموقراطية والمساواة والاخاء .

إننا نجاهر بأن الحكم الوراثى يمشى دائماً فى ركاب الاستعمار ، وكثيراً ما فرض المستعمرون على الشعوب أسراً غريبة عنها ، ووضع فى يد هذه الأسر مقاليد السلطان والولاية على الناس دون كفاية أو موهبة .. ونجاهر بأن الملكية نظام ليس له سند من الدين ، وأن الحكم الجمهورى هو أقرب شىء إلى مبادىء الاسلام وأصوله وغاياته الشريفة وأهدافه المثلى .

ذكريات تهز مشاعر الانسانية

من بين الذكريات الخالدة على الزمن ، الباقية على مر الأجيال ، التى تهز مشاعر الانسانية هزاً عنيفاً متواصلا ، ذكرى هذه الحرب المقدسة التى أعلنها محمد صلوات الله عليه على الفقر ، عدو البشرية اللدود ، وخصمها الجبار . الذى حارب الانسان فى حياته وسعادته وأمنه دون تردد أو إشفاق .

والفقر كثيراً ما يكون سببه سوء توزيع الثروة بين الناس ، أو الجهل باستنباط الثروة واستغلالها ، أو جدب الأرض وقلة خيراتها .

ولقد نظر محمد ﷺ إلى مشكلة الفقر باهتمام شديد ، وسعى بنجاح تام إلى القضاء على هذه المشكلة بعقل المشرع وحكمة المصلح وإلهام الرسول مع صعوبة التغلب على الفقر فى بيئة كبيئة الصحراء ، وفى مجتمع لا يعرف إلا العصبية والفروق الظالمة بين طبقات الأغنياء والفقراء .

كان الناس ينظرون إلى المال على أنه هو الوسيلة لحياة الرفاهية والترف، ولاستعباد الفقراء ، وتسخير الضعفاء ، فحارب محمد ﷺ هذه الفكرة الخاطئة ، وأعلن أن المال إنما هو سبب لعمل الخير والبر والرحمة والمعروف ومواساة المنكوب وإغاثة الملهوف وإطعام الجائع وكسوة العارى وإسعاد الناس ، ووديعة الله فى أيدى الأغنياء ، ومال الله استخلفهم عليه ، وجعل من سنة الانسان المهذب فى الحياة الايثار لا الأثرة ، والاعطاء لا الأخذ ، والقناعة والرضا والشكر لا الجشع والطمع والسخط والجحود .

وكان الأغنياء لا يعرفون فى المال حقوق الله والفقراء والمساكين فطالبهم محمد ﷺ بما طالبهم به القرآن الكريم فى قول الله تعالى : فآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ذلك خير للذين يريدون وجه الله ، وأولئك هم المفلحون ، ، ونهاهم عن البخل والامساك والشح والتقتير ، فقال صلوات الله عليه : « إياكم والشح فإنه أهلك من كان قبلكم ، حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم ، ، وقال الله تعالى : ومن يوق شح نفسه «أولئك هم المفلحون » ، ومدح المؤمنين الذين فى أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم، وفرض حق الضيف وابن السبيل، وجعل ﷺ البر واجبا ، والإحسان فريضة ، والصدقة شريعة اجتماعية ، والزكاة أمراً محتوما لمصلحة المجتمع كله . ونظم الوحدة الاجتماعية بين الناس، وجعل

أساسها الاسرة ، وفرض على الرجل حقوقا يؤديها من ماله لأسرته وأقاربه وأهله ، وطالبه بأن يرعى أبناءه حق الرعاية ، ويوفر لهم بعمله وجده وسائل الحياة الكريمة . وحث على القناعة والاقتصاد ، فقال صلوات الله عليه : « طوبى لمن قنع بالإسلام وكان عيشه كفافا وقنع به » وقال : « ما عال من اقتصد » .

وشرع الله لنبيه الكريم شرائع الزكاة والصدقات ، فدعا إليها الرسول ﷺ وحض عليها ونادى بها ، وسن كذلك تشريعات العمل والإجارة والمزارعة والوصية والهبة والوقف والرهن والوديعة والقرض وعقود الشركات والمضاربة وسواها ، لكى تتداول الأيدى المال ، ويعمل فيه الفقراء والأغنياء قصداً للربح والكسب الحلال ، ومن ثم حرم الإسلام ورسوله الكريم الربا والاحتكار والاستغلال وأكل أموال الناس بالباطل ، وقرر محمد ﷺ حرمة المال فقال : « كل المسلم على المسلم حرام : دمه وماله وعرضه » ، ودعا إلى اكتساب الأموال من طرقها المشروعة فقال : « من لم يبال من أين اكتسب المال لم يبال الله من أين أدخله النار » . وعمل على حفظ كرامة الفقراء ففضل صدقة السر ، وحض على ترك المن والأذى وكره السؤال وحرمه عن غير حاجة ، وجعل اليد العليا خيرا من اليد السفلى . . وحبس محمد ﷺ الأموال ـ التى تؤخذ من الفىء ، والخراج ، والجزية ، والغنائم والعشر والركاز وسواها ـ على مصالح الفقراء والتمكين لهم فى الحياة والمعيشة ، وحرر رقيق الأرض من العبودية ، وطالب باحترام حقوق الرقيق الذى أسر فى حرب مشروعة ، وبالعمل على تحريره ، كما حرر العامل والخادم والمرأة من القيود والأغلال .

ودعا إلى توزيع الثروة توزيعا عادلا بإخائه بين الأنصار والمهاجرين

وبما فرض من حقوق مشروعة للفقراء فى أموال الأغنياء ، وبدعوته إلى العمل وحضه عليه حتى يأخذ الفقير حظه الكامل فى الحياة مع مرور الأيام، وبتقسيمه العادل للميراث بين أولى الأرحام، وبغير ذلك من أسباب التمكين للفقير والمسكين والمحروم ، ونهى عن كنز المال دون أداء حقوقه وكره الاستكثار منه والتكالب على جمعه ، حتى قال رسول الله ﷺ لبلال : « الق الله فقيرا ولا تلقه غنيا » .

وحث على الجود والبذل والسخاء ، وكان ﷺ كما وصفه على : أجود الناس كفا ، وكما وصف فى حديث البخارى « فرسول الله أجود بالخير من الريح المرسلة » ، وتقول عائشة رضى الله عنها : ما شبع رسول الله ثلاثة أيام متوالية حتى فارق الدنيا ولو شئنا لشبعنا ، ولكنا كنا نؤثر على أنفسنا » . ودعا الناس إلى التعاون على دفع الضر عن الفقراء فقال : « أيما أهل عرصة أصبح فيهم امرؤ جائعاً فقد برئت منهم ذمة الله تبارك وتعالى » ، ونهى عن المحاباة فى كل شىء حتى فى اختيار الموظف ، فقال صلوات الله عليه : « من ولى من أمر المسلمين شيئا فأمر عليهم أحداً بمحاباة فعليه لعنة الله ، لا يقبل الله منه صرفا ولا عدلا حتى يدخله النار» كما نهى عن الخيانة فى الأموال العامة فقال : « من استعملناه على عمل ورزقناه فما أخذ بعد ذلك فهو غلول ، أى خيانة » .

ولقد حبب محمد ﷺ الناس فى الكسب الحلال المشروع ، ودعاهم إلى استنباط المجهول من وسائل الثروات ، وقال لهم : أنتم أعلم بشئون دنياكم . وجعل بيت المال فى خدمة الناس ، والفقير من بينهم خاصة ، ولم يكن لرسول الله بيت مال يضع فيه الأموال وإنما كان يضعها فى بيته وبيوت أصحابه ، وكان الزبير بن العوام وجهيم بن الصلت يكتبان له أموال

الصدقات ، ومعيقب بن أبى فاطمة وكعب بن عمر يكتبان المغانم ، وكان حذيفة بن اليمان يكتب لرسول الله ﷺ خرص تمر الحجاز . وكان يتخير ولاته وعماله ويقتصد فى رزقهم ؛ فاستعمل عتاب بن أسيد الأموى والياً على مكة وجعل رزقه كل يوم درهما ، وصالح صلوات الله عليه أهل فدك على نصف ثمارهم وصرفها على الفقراء، وكان بعمله الشريف ودعوته الكريمة يقوى بذور الرحمة والخير والتعاون والمودة والإخاء بين الناس حتى يستطيع المسلمون التغلب على آثار الجدب الذى كان غالباً على جزيرة العرب .

وقد دعا ﷺ إلى اصطناع الأيادى عند الفقراء ، يقول : « أكثروا من معرفة الفقراء ، واتخذوا عندهم الايادى ، فإن لهم دولة ، قالوا : يا رسول الله ، وما دولتهم ؟ قال : إذا كان يوم القيامة قيل لهم : انظروا من أطعمكم كسرة أو سقاكم شربة أو كساكم ثوباً ، فخذوا بيده ثم امضوا به إلى الجنة » وجعل الرسول الأكرم فى كل معروف وكل عمل صدقة فقال : « كل معروف صدقة ، وكل ما أنفق الرجل على نفسه وأهله كتب له به صدقة ، وما وقى به الرجل عرضه فهو له صدقة ، والدال على الخير كفاعله ، والله يحب إغاثة اللهفان » ، ورفع من منزلة الفقراء ولم يجعل المال أساساً للحكم على الأشخاص .

ولقد قرر محمد صلوات الله عليه حقوق الانسان كاملة غير منقوصة ، وحارب الرق والاستعباد والاستغلال والفوارق الاجتماعية الظالمة بين الناس ، ورفع من الفقراء والمستضعفين ذوى الكفايات والمواهب حتى بلغوا أعلى المنازل فى الدولة الاسلامية ، مما قلب الاوضاع فى توزيع الثروات بين الناس وانصاف الفقراء ، وفتح باب الامل الواسع على

مصراعيه أمامهم يدخلونه بقوة وعزم وكرامة وتفاؤل بالحياة .

وهكذا كان محمد صلوات الله عليه الإنسانية فى أروع صورها ، والمثل الاعلى فى أمجد مظاهره ، والقائد المظفر الذى خاض معركة السلام وانتصر فيها ، والنور الابدى الخالد الذى هدى الحياة وأخرجها من الخوف والقلق والفوضى ، الى الامن والهدوء والاستقرار . وكانت حياته كلها كفاحا مجيدا فى سبيل الله والحق والمعروف وتقرير حريات الفقراء وكراماتهم ، وكانت جهاداً صادقا وجهته الخير وإسعاد الناس ، ومن أجل ذلك توج هذا الجهاد بالنصر ، وهزت ذكرياته مشاعر الناس والجماعات والشعوب فى كل مكان وجيل ، ولاتزال هذه الذكريات حديث الدنيا ، ونشيد الحياة ، وفرقان البشرية الظامئة إلى نبع هذا الوحى المقدس والناموس السماوى الحكيم

لقد استطاع رسول الله ﷺ أن يجعل الفقراء والاغنياء إخواناً متحابين متآخين متعاونين . وأن يقيم فى المجتمع الاسلامى اشتراكية عادلة تؤمن بالمبادىء الروحية والمثل العليا وتجعلها أساساً من أسس الاقتصاد التعاونى الجماعى فى الدولة الاسلامية الناشئة ، واستطاع بما بذره من بذور الخير فى الارض أن يقضى على الفرقة والخصومة والجريمة والثورة والاضطراب والقلق بين الطبقات . . وكانت ثورة محمد الكبرى من أهدافها تحرير الإنسان من الفقر والعوز والحاجة والخوف ، وكفالة حريته وحقه فى الحياة الهانئة الكريمة وهدم كل الصروح التى أقيمت ظلماً وبهتاناً بأيدى الإقطاعية والإقطاعيين الجائرين

ولا تزال هذه المبادىء الكريمة ينطق بها كتاب الله وسنة رسوله ، ويقوم عليها تراثنا الروحى الخالد الذى يعد مفخرة من مفاخر البشرية فى نهضتها وتوثبها إلى الكرامة والحرية .

الاسلام والشيوعية

تمهيد

لا يمكن لباحث منصف أن يوازن بين مبادىء الاسلام والشيوعية، بين شريعة إلهية ونظم وضعية ، بين إصلاح خالص وثورة متطرفة ، بين دين روحه السلام والاخاء والحرية والتعاون الانسانى لخير البشرية والحضارة ، ومذهب يؤمن بالطغيان وصراع الطبقات والالحاد والمادية، ويثير الاضطراب فى الحياة ، ويعزل معتنقيه عن الشعوب المحبة للحرية والسلم والديمقراطية .

ومع ذلك فسنحاول البحث والموازنة ، وشرح موقف الاسلام من هذه المبادىء الوافدة ، وبيان رأيه فى جميع المشكلات الاجتماعية والاقتصادية ، ونفصل منهجه فى الاصلاح ، وما يدعو إليه من اشتراكية عادلة ، وديمقراطية حقة ، ومساواة لا حيف فيها ، وإيمان بحقوق الانسان وحماية لها .

ولا شك أن مبادىء الشيوعية معروفة ، ومصادرها كثيرة متعددة، وأن محاربة النشاط الشيوعى فى العالم الحر لا يعنى الجهل بهذه المبادىء أو التزوير عليها .. ومن البدهى أننا هنا حين نتحدث عن الاسلام ننظر إلى مبادئه نفسها ، بصرف النظر عن مدى تطبيقها اليوم فى العالم الاسلامى .

وعلى هدى هذا المنهج نسير الآن فى البحث والموازنة .

الحضارة بين المادية والروحية

— ١ —

للشيوعية رأيها فى أسس الحياة والوجود والحضارة ، الذى يتجمع فى فلسفة مادية عجيبة ، لا تؤمن بالمثل ولا الروحيات والمعنويات . .

فهى ترى أن المادة والطبيعة والوجود حقائق موضوعية خارج نطاق الفكر ، مستقلة عنه ، والمادة أولا ، ثم يتلوها العقل . . ومن ثم فالحياة المادية للمجتمع والوجود المادى له ، لها السيادة على الحياة الروحية ، التى هى عندهم انعكاس الوجود . . ويعلق زعيم من زعماء الشيوعية على ذلك بقوله : إن على حزب طبقة العمال ألا يقيم أعماله على مبادىء العقل البشرى المجردة ، ولكن يقيمها على الأحوال المقررة للحياة المادية للمجتمع باعتبارها القوى الفاصلة للارتقاء الاجتماعى [١] ، ويقول انجلز : إن العالم المادى الذى ندركه بحواسنا والذى نحن جزء منه ، هو الحقيقة الوحيدة ، وليست المادة من انتاج العقل بل إن العقل ما هو إلا أسمى إنتاج للمادة [٢] » .

وهى تذهب إلى أن العالم بطبيعته مادى وأن الظواهر المتضاعفة للعالم تشتمل على أشكال مختلفة من المادة فى تحرك ، وارتباط الظواهر واعتماد بعضها على بعض هو قانون ارتقاء المادة ، وليس من حاجة إلى الروح الشاملة [٣] ، « فهى تؤمن بنظرية النشوء والارتقاء التى قال بها دارون ومن ثم تصر على إنكار وجود الله [٤] . . ويرى كارل ماركس

---

(١) ٣١ الدستور السوفيتى لفؤاد محمد شبل

(٢) ٣٣ نقد النظرية الماركسية لأحمد جمال الدين طبعة ١٩٤٨

(٣) ٣٠ الدستور السوفيتى (٤) ٥٣ الشيوعية فى الميزان

أن امتداد هذا إلى دراسة الحياة الاجتماعية وتطبيقها على المجتمع يؤتينا نتائج على جانب عظيم من الأهمية لأنه يفسر تطور المجتمع، ويرجع حوادثه إلى أسباب مادية بحيث لا يترك شيئا منها للمصادفة أو للارادة الإلهية أو للأسباب العليا الخارجة عن الطبيعة [١].

ومن ثم ترجع الشيوعية كل شيء حتى الدين والأخلاق والفكر والفلسفة والثقافة والقانون والسياسة إلى انعكاسات للأحوال الاقتصادية والمصالح الطبقية وتمتد جذورها إلى الظروف المادية للحياة [٢] وتاريخ ارتقاء المجتمع هو عندهم قبل كل شيء تاريخ ارتقاء الانتاج [٣] وتهتم بتفسير الأحداث التاريخية تفسيرا ماديا [٤] ينكر الدين [٥]

والفلسفة الشيوعية إلحادية بطبيعتها، معادية لكل ما يمت بصلة إلى الدين وكان ماركس زعيمها الروحى وشيخ الماديين لا يؤمن بالمثل ولا يدين إلا بالمحسوسات، ويقول: لا إله والحياة مادة [٦]، ويقول: رسالة الطبقة العاملة هى القضاء على الدين وعلى الداعين إليه [٧]، ويقول (هوبز) إن الأشياء المادية وحدها هى المحسوسة لنا، وأنا لا أستطيع أن أعلم شيئاً عن وجود الله، إن وجودى الخاص بى هو وحده الأمر المؤكد أما ما عداه فخيال لا أصدقه» [٦]، ويقول إنجلز: [٦] لا محل مطلقا لوجود خالق»، ويقول زعيم لهم: الحزب الشيوعى لا يمكن أن

---

(١) ٣٦ و ٣٧ نقد النظرية الماركسية (٢) ٦٧ إنجلز

(٣) ٧٩ المذاهب السياسية المعاصرة لعلى ادم، و١٧ إنجلز

(٤) ٣٢ الدستور السوفييتى (٥) ٥٢ الشيوعية فى الميزان

(٦) ٥٢ المرجع (٧) ٥٣ المرجع

يكون محايدا تجاه الدين ، إن الحزب يقف إلى جانب العلم والدين ينافيه [١] ، ويصرون على أن « الدين هو مخدر الشعوب [٢] .

وللمذهب المادى دعاة فى القديم والحديث ، ويناقضه المذهب المثالى والارادى والحيوى ، ومن أنصارها هيجل وديكارت وشوبنهور ونيتشه وبرجسون وسواهم . . وينقده كثير من الباحثين

وهو على أى حال ينكر العواطف البشرية والمثل العليا والقيم الأخلاقية والجوانب الانسانية والمعنويات الكريمة من فنون وآداب وديانات سواها ، مما هو دعامة الحضارة ، والذين يعترفون بها من الشيوعيين يمسخونها ويردونها إلى عوامل مادية .

— ٦ —

إن هذا المذهب المادى الذى ينتهى إلى إنكار الله ومحاربة الدين يناقض أسس الاسلام ومبادئه أبعد مناقضة . وينكره الأسلام ويحاربه والذين يؤمنون بمثل هذه المبادىء الهدامة هم فى رأى الاسلام مرتدون يحاربون ويقاتلون حتى يفيئوا إلى دين الله ، لأنهم يعملون على مسخ الفطره الإنسانية ومحاربة فكرة التقدم والحضارة ، ويهدمون الأسس التى بنتها البشرية على مر الأجيال منارا رفيعا للفكر والمدنية .

وفلاسفة الفكر الحديث يصرون على الاعتراف بالله والأيمان بالدين، يقول شوبنهور : إن فكرة الاله الذى ليس له نهاية ، وقدسية الروح ، والعلاقة بين الله وعباده ، كلها أفكار صيغت فى الضمير البشرى الخفى

---

(١) راجع ١٤٢ الدستور
(٢) راجع ١٣٥ المرجع

الذى ليس نهاية ، وهى تلك الأفكار التى لا يمكن لى ولا للحياة بغيرها البقاء.
ويقول رينان : من الممكن أن يضمحل كل شىء نحبه إلا الدين ، فسيبقى أبد الآبدين حجة ناطقة على بطلان المذهب المادى . وكان تولستوى المبشر الروحى بالشيوعية مؤمنا بالدين ، وكان يقول إن الدين وحده هو الذى يجعل الحياة ممكنة ، ويقول : إننى لا أعيش إذا فقدت العقيدة فى وجود الله ، ولو أنى كنت أتعلق بأمل غامض فى وجود الله لقتلت من زمن بعيد ، عش باحثا عن الله وإذن فلن تعيش بدونه ، وإذن يقوى اعتقادك فى الكمال الخلقى وفى التقاليد التى تحمل معنى الحياة .. إن البشر لايزالون فى فجر عصر العلم وكلما ازداد ضياء العلم سطوعا جلا لنا شيئا فشيئا صفة خالق مبدع ، وإن التواضع والأيمان القائم على العلم يد نوان بنا رويدا رويدا إلى معرفة الله [١] . ويؤكد علماء الذرة والفلك والحياة والرياضة وجود الله لأن لديهم أدلة كثيرة تثبت وجود كائن أعظم ينظم هذا الوجود ويرعاه بعنايته ورحمته وعلمه الذى لاحد له [٢] .

— ٣ —

والإسلام يدعو إلى الدين والأيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله ، والثقة بالمثل العليا والإعتزاز بالفضائل الانسانية وبالقيم الروحية .. وأساس الحياة عنده هى الروح والمادة تبع لها والروح هى التى ناجت الله فى الأزل وعاهدته على الأيمان بالدين كما يقرره القرآن الكريم [٣] ثم خلقت المادة ، وحلت الروح فى الجسم ، وبدأت الحياة تنمو ، وبعد

(١) راجع المختار عدد فبراير ١٩٤٧ من مقالة لرئيس اكاديمية العلوم فى نيويورك عن كتاب الأنسان ليس وحيدا (٢) راجع المصرى عدد ٢٣ — ٨ — ١٩٥١
(٣) راجع آية ١٧٢ الأعراف

هذه الحياة الدنيا يفنى الجسم ، وتنطلق الأرواح ، وتبقى مخلدة ،حتى يأذن الله بالبعث وإحياء الأجسام من جديد .. فالاسلام لاينكر المادة إطلاقا وإنما يثبتها ويجعلها مسخرة لخدمة الروح .

وكل هــذه الأفكار الإسـلامية تهدم الأساس الأول الذى بنيت عليه الشيوعية .

وجميع الحضارات القديمة والحديثة على السواء لم تقم على أسس مادية محضة ، إنما كان للعوامل الروحية أثرها البعيد فى قيامها ونموها ، والاسلام يدعو إلى بناء الحياة عـلى الروح : « وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ، ولاتنس نصيبك من الدنيا (١) » . . ويدعو إلى التحرر من أسر المـادة والعيش فى رحاب التأمل والحرية والمـلأ الأعـلى الفسيح ، ليتم وجود الانسان وكماله وحريته فى الحياة . . وذلك كله هو الأساس الأول للحضارة فى رأى الإسلام .

الحرية الدينية فى ظل الاسلام والشيوعية

— ١ —

والحرية الدينية هى أعظم حق من حقوق الانسان ، وقد أيدتها المذاهب الفكرية الحديثة ، ونص عليها ميثاق الأمم المتحدة .

والاسلام يدافع عن الحرية الدينية إلى أبعد مدى ، وينتصر لها ، ويأذن للمؤمنين الذين يضطهدون فى دينهم بالدفاع عنه بالسيوف ، وهو لا يبيح لأنصاره أن يتحكموا فى الحريات الدينية ، ويأمرهم أن يحترموا

(١) راجع آية ٧٧ القصص

الأديان : « لا إكراه فى الدين[١] » ، « لكل أمة جعلنا منسكاهم ناسكوه »[٢] وأن يبروا أهلها ويقسطوا إليهم : « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين[٣] » ، ووصايا رسول الله وخلفائه فى احترام الحريات الدينية مشهورة .

ولكن الشيوعية الحديثة تتنكر لهذه الحريات تنكرا شديدا .. وأعمال دعاتها وزعمائها فى بلادهم شاهد صدق على ما نقول .. ففى روسيا نجد أن الثورة الشيوعية فيها قد بدأت بحملة قاسية على رجال الدين ، فقتل عدد كبير منهم ، وحرم عليهم الظهور فى المجتمعات العامة ، وأغلقت بيوت العبادة ، وصودرت أوقافها ، وحرم الشيوعيون تدريس الدين ، وألغوا القسم به ، وألفوا الجمعيات للدعاية اللادينية ، وأصدروا مجلة أسبوعية اسمها « بلادين » . وفى عام ١٩٢٥ عقد مؤتمر بموسكو لوضع الخطط الخاصة بالقضاء على النزعة الدينية وبث روح الالحاد فى المدارس والجيش ، وأخذ « اتحاد الالحاد » فى النشاط حتى بلغ عدد فروعه فى عام ١٩٣٥ سبعين ألفا تضم الملايين .. وفى عام ١٩٢٩ صدر قانون يحظر الدعاية الدينية ويعتبرها عملا غير مشروع ، وبذلك عطلت مادة الدستور التى تنص على أن الدعاية الدينية مكفوله كالدعاية اللادينية .. وفى مايو ١٩٣٢ صدر قانون يهدف إلى القضاء على الهيئات الدينية خلال خمسه أعوام جاء فيه : فى أول مايو ١٩٣٧ لن يبقى فى كافة البلاد أى مكان للعبادة ويجب القضاء على فكرة الآله بحسبانها من بقايا القرون الوسطى[١]

---

(١) من آية ٢٥٦ البقرة (٢) ٦٧ الحج (٣) ٨ الممتحنة

(٤) ١٣٩ الدستور السوفييتى

ونصت قوانين عام ١٩٣٩ على حظر الاجتماعات الدينية الخاصة وعدم السماح للهيئات الدينية بالاحتفاظ بأى نوع من الكتب إلا ما يلزم فى المراسيم الدينية ، وحظر بناء أمكنة جديدة لممارسة الشعائر الدينية ... وإذا كانت روسيا قد أطلقت الحريات الدينية خلال الحرب ، فإنما كان ذلك ذراللرماد ودفعا الشعب إلى تحمل مرارة الكفاح وكسبا لعطف شعوب العالم لتساعد روسيا فى محنتها ، ولا يعنى هذا إيمان الشيوعيين بالدين ، فالطبقة الحاكمة هناك لن تقبل فى صفوفها إنسانا يؤمن بدين من الأديان [1] ، ومنزلة الدين فى روسيا خلال الحرب وبعدها لاتصل إلى عشر ماكانت عليه قبل الثورة الشيوعية [2] ، والتعليم فيها ينشر الألحاد ، والجماعات كلها تنفر من الدين ، وتأثير رجال الدين على الشباب قليل ، وهم يخضعون لتوجيهات الدولة خضوعا مطلقا

— ٢ —

وللشيوعية موقف خاص من الاسلام يمثله قول مولوتوف : لن تنتشر الشيوعية فى الشرق إلا إذا أبعدنا أهله عن تلك الحجارة التى يعبدونها فى الحجاز وفلسطين

ولقد عادى زعماؤها فكرة الجامعة الاسلامية لقوميات المسلمين هناك ، و لم يات عام ١٩٣٣ حتى أرغمتهم الحكومة على اتخاذ الحروف اللاتينية بدل العربية ، وبذلك قطعت صلة القوميات بالعالم الاسلامى ، وفى عام ١٩٣٧ أمرتهم باتخاذ الحروف الروسية ، مع أن روسيا أباحت للأرمن والجورجيين — وهم أقل من المسلمين فى بلادها — الاحتفاظ

---

(١) ١٤٢ المرجع

(٢) راجع كتاب روسيا السوفيتية لمؤلفه دالن

بحروفهم الهجائية الخاصة ، ولم ترغمهم على اتخاذ الحروف اللاتينية أو الروسية [١] .

وبهذا أصبح المورد الثقافى للمسلمين هو اللغة الروسية وآدابها وثقافاتها عوضا عن اللغة العربية والثقافة الاسلامية.

وهناك قيد آخر على الحرية الثقافية للمسلمين ، إذ لا تجيز الشيوعية أن تكون لأية قومية أو أقلية عنصرية فى بلادها ـ ومن بينهم المسلمون ـ علاقة روحية أو ثقافية بقومية أخرى تماثلها فى العقيدة أو الثقافة خارج نطاق بلادها [٢] . . وبهذا حيل بينهم وبين الاتصال روحيا وثقافيا بالعالم الاسلامى الحر ، وحرم عليهم الحج إلى بيت الله .

وقد اضطهدت الشيوعية المسلمين فى تركستان وبخارى وسمرقند وطشقند وفرغانة وخوارزم ، ونفت الكثير منهم إلى مجاهل سيبريا .. وظهر شعورها حيال المسلمين فى تأييدها المطلق للصهيونية ، وفى خذلانها للقضايا العربية فى هيئة الأمم .

إن الحرية الدينية فى ظلال الشيوعية لا وجود لها . وهذا هو ما يأباه الاسلام ، وتنكره مبادئه السمحة.

السلام الاجتماعى بين الاسلام والشيوعية

— ١ —

وفكرة السلام الإجتماعى مبسوطة فى القرآن الكريم بسطاً واسعاً وقد دعا اليها الإسلام ورسوله ، وتناول أطرافا منها التشريع الإسلامى

---

(١) ١٨٩ الدستور السوفييتى
(٢) ١٩٠ المرجع

وحرص على تطبيقها الخلفاء والولاة المسلمون ، ويمثل بعض مظاهرها قول الرسول : لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه ، والقول المأثور : عامل الناس بما تحب أن يعاملوك به

وليست فكرة السلام الإجتماعى أمراً مندوباً يدعو اليه الاسلام ، ولكنها فرض واجب وعمل حتم ، وهى جزء من العقيدة الإسلامية ، وأساسها أن المجتمع مهما كبر أسرة واحدة ، وأن على كل إنسان فيه أن يؤدى الواجب عليه للآخرين بنفس الشعور الذى يشعر به نحو أسرته ، وأن يعمل على نشر الأمن والسلام والمحبة والتعاون بين الناس ، وأن يشعر روحه تلك المعانى ويعتقد أنه لا يتم إيمانه بدونها : وأن عليه أن يضحى من أجل غيره ، ويؤمن بالأيثار ، ويبذل المال والروح فى سبيل أخيه الإنسان . ولذلك حرم الإسلام الرذائل الاجتماعية ، ونهى عن الاعتداء على أموال الناس وأعراضهم ، «كل المسلم على المسلم حرام : دمه وماله وعرضه » ، وأوجب الزكاة وحث على الصدقة والإحسان وتفريج كربة المهموم ومساعدة المحتاج . وأوجب العدل بين الناس ، وحارب الأهواء والشهوات والمحسوبية ، وحتم التكافل الاجتماعى بين الناس ، وجعـــل أساس العلاقة بين الإنسان والإنسان وبين الجماعة والجماعة هو السلام ، وأوعد المخالفين أشد الوعيد .

أما الشيوعية فتؤمن بمبدأ اجتماعى عجيب ، هو «صراع الطبقات»[1] ، « يقول ماركس وإنجلز : إن تاريخ كافة الجماعات الحاضرة هو تاريخ الصراع بين الطبقات . . ويقول ماركس زعيم الشيوعية الروحى : لن تستطيع الطبقة العاملة التحرك ولا النهوض بنفسها ما لم تنسف جميع

---

(١) ٧٧ الدستور السوفيتى

طبقات المجتمع المتراكة فوقها ، ويقول : إن صراع الطبقات يقود بالضرورة إلى ديكتاتورية الطبقـــة العاملة ... ويدعو ماركس الى الثورة والانقلاب الشامل كضرورة للاصلاح ، ويؤثر عن لينين : من غير نظرية ثورية لن تكون حركة ثورية ، ويقول ستالين من رسالته فى المادية الجدلية : تحرير الطبقة العاملة لا يمكن تحقيقه إلا بالثورة فقط

هذه النظرية نقدها علماء الاجتماع نقد عادلا [١] ، وهى ولا شك تبذر بذور الحقد والبغض والكراهية بين الناس، وتعمل على نشر الثورات والحروب وتقضى على التعاون والسلام فى المجتمع . . مما ظهر أثره فى الثورة الشيوعية فى روسيا واضحاً ملموساً .

وهى نظرية لايقرها عقل أو دين ، ويحاربها الاسلام حربا شعواء ، لأنها تفسد الأمن والسلام ، وتقضى على الأخاء الانسانى ، وتجعل بعض الناس أعداء لبعض ، وتولد البغضاء والشقاق فى المجتمع .

وفى عصور الجاهلية الأولى لم تدع جماعة أو أمـــة إلى « صراع الطبقات » . . ويسير الأصلاح العام فى الدول المتحضرة بالوسائل السلمية دون سواها ، ولقد أوجب الاسلام أن يعيش الفقراء والأغنياء بجوار بعض أخوة متحابين متعاونين فى الحياة ، وكذلك سائر الطبقات، « مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالحمى والسهر »

---

(١) راجع ٧٤— ٨٢ نقد النظرية الماركسية

السلم العالمى فى الاسلام والشيوعية

السلام العالمى دعوة إلى التعاون بين الأمم والشعوب، وحل مشكلاتها بالوسائل السلمية ، وتحريم الحروب التى تقوم للاستعمار والاستغلال ، بل تحريمها لغرض نشر الدين أيضا : « لكل أمة جعلنا منسكا هم ناسكوه فلا ينازعنك فى الأمر وادع إلى ربك [١] » .

والاسلام بنظمه وروحه وأهدافه يعمل على نشر هذا السـلام ويدعو إليه ، ويجعله هدفا من أهـداف الانسان ، « وإن جنحوا للسلم فاجنح لها [٢] » . ويؤيد هذا المبدأ بأن الناس يجمعهم أصل واحد ، وأن التعارف والتآلف والتعاون يجب أن يسودهم ، « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا [٣] » . ولذلك ألغى الاسلام العصبيات وفوارق الألوان والأجناس داعيا إلى الوحدة الانسانية ، وإلى أن يعيشوا كما بدأوا أمة واحدة : « وماكان الناس إلا أمة واحدة فاختلفوا [٤] » ، « وما تفرقوا إلا من بعد ماجاءهم العلم بغيا بينهم [٥] »، ولم يشرع الأسلام الحرب إلا للدفاع عن النفس أو العقيدة .

أما الشيوعية فتؤمن بالحرب وتدعو إليها ، وتقضى على السلم العالمى: بإنشائها وتشجيعها للشيوعية الدولية (الكومنترن) التى تحدد أهدافها فى نشر الشيوعية فى العالم ، وتحويل العمال فيـه إلى شيوعيين ، وإثارة الاضطرابات والقلاقل السياسية والاجتماعية والاقتصادية فى الدول

---

(١) ٦٧ الحج (٢) ٦١ الأنفال (٣) ١٢ الحجرات (٤) ١٩ يونس
(٥) ١٤ الشورى

تمهيدا لثورة الطبقة العاملة وسيادة الشيوعية ، وإذا كانت هذه الشيوعية الدولية قد ألغيت عام ١٩٤٣ تقربا للديمقراطيات ، فقد حل محلها مكتب الاستعلامات الشيوعى « الكومنيفورم » ، « وموسكو وإن تظاهرت بحل الدولية الشيوعية لا تزال توجه الحركات الشيوعية فى جميع أنحاء العالم (١) » ، ولا يترك ستالين فى كتابه « مشاكل اللينينية » أثرا للشك فى اعتقاده الذى لا يتزعزع فى أن من حق روسيا بل من واجبها المقدس أن تستخدم القوة فى إشعال نار الثورة فى البلاد الأجنبية إذا ما لاحت الفرصة لأشعالها ، وجاء فى مقدمة الكتاب : إن دراسة تاريخ الحزب لتقوى الاعتقاد فى النصر النهائى للهدف الجليل الذى عمل له لينين وستالين وهو انتصار الشيوعية فى العالم كله (٢)

وهذه الأفكار كلها تهدم صرح السلام العالمى ، وتناقض مايؤمن به الاسلام ويدعو إليه ، والاسلام يحرم أن توجد علاقات دولية قائمة على غير المحبة والتعاون الانسانى ، ويحارب بذر الشقاق بين الأمم ، ويعادى اللصوصية المستترة ، والجاسوسية المتخفية ، والتمرد على النظام العام فى الجماعات والشعوب .

فأين هذا السمو فى الفلسفات القديمة والحديثة على السواء؟ لقد كان أرسطو وأفلاطون يقرران أن العلاقة بين الدول هى علاقة العداء والمنافسة ، ويقرر أرسطو أن غير اليونانيين أعداء خوارج على القانون،

---

(١) ٦٤٢ آثرت الحرية لكرافتشنكو

(٢) ٦٤٨ المرجع

وإخضاعهم واجب سياسى ، فأين هذا من سماحة الاسلام وجلال مبادئه وأهدافه .

السر فى قيام الاسلام والشيوعية

أما السر فى قيام الشيوعية وظهورها فهو هذا الخداع الغريب الماكر الذى تتراءى فيه للفقراء والمحرومين والطبقات المظلومة فى مظهر المنقذ المختار لنشر الغنى والسعادة بين الناس ، وما تؤمن به الشيوعية من صراع الطبقات ، وعملها فى بيئة كانت المرتع الخصب لها، والظروف الدولية التى كانت تحيط بالعالم عقب الحرب الكبرى ، وطغيان زعماء الشيوعية طغيانا لم يعرف له نظير ، مما ظهر فى المجازر البشرية القاسية وعدد الضحايا الهائل لها فى روسيا ، وسجون الاعتقال ، والتشريد والنفى إلى مجاهل سيبريا ، والبطش بخصومها فى الرأى ، والتنكيل بمعارضيها فى الفكرة ، والقضاء على الطبقات المعارضة لها فى بلادها، وأخيراً بهذه الشيوعية الدولية التى يؤيدها الذهب والدعاية والنفوذ .

وهذه كلها وسائل لايؤمن بها دين ، ولا يقبلها ضمير ، ولا يوافق عليها عقل . وما أضل عقول الجماهير الجاهلة التى تفهم أن الشيوعية تدعو بنفسها لنفسها لأنها حلم الساعة .

أما الاسلام فعلى العكس من ذلك، وأمره فى قيامه وفى ذيوعه فى العالم ، على العكس من ذلك .

لم يكن الاسلام ثورة ولم يدع إليها ، ولم يبن خطه على حرب

العصابات وصراع الطبقات ، ولم يخدع محمد المحرومين ، ولم يدع إلى مبادىء جوفاء يعجز عن تنفيذها ، ولم يؤيده ذهب ولا فضة ولا نفوذ أوسلطان ولا جاسوسية أو لصوصية . إنما كان الاسلام رسالة إلهية للأصلاح، وهى رسالة الحرية والأخاء والمساواة والعدالة الدينية ، والعلم إلى العالم كافة والبشرية بجميع طبقاتها .. ولم يكن السر فى قيامه وانتشاره إلا لما حواه من مبادىء الحق والقوة والخير والجمال [١]

لقد جمع الاسلام اليه الأمة العربية من أدناها إلى أقصاها فى أقل من ثلاثين سنة ، وتناول من بقية الأمم مابين المحيط الغربى وجدار الصين فى أقل من قرن واحد ، وكان قيامه فى الجزيرة العربية أثرا للدعوة اليه واقتناع العرب به ، إذ لم يفرض عليهم بقوة السلاح ولا بتأييد من عصبية أو سلطان .

ولم تكن حروب محمد وخلفائه إلا دفاع عن حرية العقيدة التى كان الشرك يريد القضاء عليها ، وعلى نور الله الذى انبثق من الصحراء على يدى محمد . وكانت مبادىء الاسلام نفسها، وروح العدالة المطلقة والأخاء والمساواة التى سادت المسلمين الأولين بإيحاء قوى من دينهم، هى السبب الأكبر فى انتشاره..لقد دعا الاسلام بنفسه لنفسه ، ولم يؤمر محمد بشىء إلا بالدعاية لرسالته « وادع إلى ربك إنك لعلى هدى مستقيم [٢] » ، ويحق الله الحق بكلمته ، ويأبى الله إلا أن يتم نوره ، ولو كره الكافرون .

---

(١) راجع كتاب السر فى انتشار الاسلام ـ محمد عرفة ـ ط ١٩٣١ ، وراجع ٢١٧ رسالة التوحيد لمحمد عبده ـ ط ١٣٦١

(٢) ٦٧ الحج

الديمقراطية بين الإسلام والشيوعية

— ١ —

تصريف شئون الدولة على أساس نظام نيابى صحيح ، أو حكومة الشعب للشعب ، أو تكافؤ الفرص ، هو الديمقراطية ، التى لا يتحقق لها وجود إلا بالمساواة التامة بين الناس ، والإعتراف الكامل بحقوق الإنسان ورعايتها ، والأيمان بالحرية الفردية ، وبأن الدولة وجدت من أجل الفرد ، وبضرورة إنماء شخصية الإنسان فى الحياة

والديمقراطية لا وجود لها فى المجتمع الشيوعى ، فالحريات مصادرة ، والمساواة معدومة ، حتى فى الاقتصاد وأجور العمال ، واستبداد الدولة الجائر بالفرد لاحد له ، والحكومة تسير على النظام الفردى الاستبدادى [١] ولست تجد هناك « مجتمعا عماليا » حتى ولا ديمقراطية اقتصادية [٢]

أما فى الاسلام فالأمر على النقيض : حرية ومساواة وعدل بين الناس والحكومة شورية دستورية أساسها مشيئة الشعوب ، والحاكم مسئول عن أعماله ، وحقوق الانسان فى الحياة والحرية والأمن والتعليم والتأمين الاجتماعى وسوى ذلك مصونة ... إن الاسلام يؤمن بمبدأ حكم القانون ، وبحكم الشعب للشعب ، وبأن الحكومة وجدت لخدمة الفرد والعمل على رفاهيته ، وبالحرية الاقتصادية ، وروحه التسامح وحرية الرأى للافراد والجماعات ، ومحاربة شتى ألوان التمييز بين الناس . . وذلك هو أساس الديمقراطية الحقة .

---

(١) ٤٢٣ الدستور السوفييتى (٢) ٤٨٠ آذرت الحرية

— ٢ —

والحرية ـ وهى دعامة الديمقراطية والحياة الانسانية المتحضرة ـ ليس لها قيمة كبيرة عند الشيوعيين ، لأنها فى رأيهم تلهى الجماعات عن الالتفات إلى الظلم الاقتصادى [١] ، فالشيوعية تحاول تحقيق المساواة المزعومة بالغاء حرية الانسان ، فهى لكى تطعم الفرد تسلبه حريته

حرية الفكر معدومة ، فالناس يفكرون على النمط الذى يعجب الحزب الشيوعى ، وليس هناك مجال لتفكير مستقل . وحرية الصحافة والنشر مقيدة ، ولا يباح دخول صحيفة أو كتاب أجنبى معاد فى فكرته للشيوعية [٢] . . والحرية السياسية مفقودة ، إذ ليس هناك إلا حزب واحد وحاكم واحد وانتخابات صورية لاتنافس فيها . . والحرية الدينية معطلة . .

والحرية الاقتصادية لا وجود لها ، فالمصانع والمزارع وأدوات الانتاج ومرافق الثروة ملك للدولة ، والفرد أجير عندها نظير إطعامه ، لا رأسمالية ولكن هناك الرأسمالى الأكبر الذى لا يقاوم وهو الدولة ، مما ينعدم معه التنافس الاقتصادى الذى هو أساس الحرية الاقتصادية . .

والحرية الشخصية محجور عليها ، لأن الحزب الشيوعى يهيمن على حريات الناس ، وسلطان البوليس السرى لاحد له ، وللقاضى أن يحكم بإعدام من يرى أنه خطر على الأمن العام ولو لم تقم الأدلة على ذلك ، والعامل فى المصنع لا يملك أية حرية وعليه أن يعمل ، لأن « من لا يعمل لا يأكل » ، وفى عام ١٩٣٠ صدر قانون ربط العمال بمصانعهم ، ومنعهم من مغادرة

(١) ١١٩ المذاهب السياسية المعاصرة (٢) ٩٤ الشيوعية فى الميزان

مكان عملهم إلا بإذن خاص ، وبعد ذلك بعامين صدر قانون بطرد العمال الذين يتأخرون عن العمل ولو يوما واحدا دون سبب كاف [١]. وجاء في قانون ١٩٣٩ للعمل أنه إذا تأخر العامل عن عمله أكثر من عشرين دقيقة فانه يقدم إلى النيابة المحلية ويحاكم ، فاذا أدين حكم عليه بالسجن أو السخرة [٢] ، ونص على عقوبة الذين يتسترون على مجرمى التأخير ، ويجب على الفرد الحصول على إذن خاص لقضاء إجازة ولو يوما واحدا بعيدا عن بيته ، والرحلة خارج البلاد ممنوعة ولا يصرح بها إلا للمبعوثين فى مهمات رسمية ، وفرض عام ١٩٣٢ نظام البطاقات الشخصية التى تتضمن شتى المعلومات عن كافة الشئون التى يهم البوليس السياسى معرفتها عن الفرد ، والستار الحديدى مطبق حول البلاد التى تدين بالشيوعية ، والشعب فى عزلة تامة . وقد قام الشيوعيون فى روسيا بحركات تطهير عامة كثيرة لابادة خصومهم فى الرأى ، وذهبوا بزعماء ومفكرين وكتاب إلى مجاهل سبيريا وسجون الأورال ومعتقلاتها ، ولكى تعرف كيف يعامل الشيوعيون معارضيهم فى الرأى ، اقرأ ما يقول دافيدج نيقو ليفكسى فى كتابه « لاشىء سوى سلاسلهم » : إن فى روسيا اليوم ١٤ مليونا من العبيد فرضت عليهم السخرة ، ويعيشون فى حظائر تحيط بها حواجز تعلوها الأسلاك الشائكة ، ويحرسها رماة يرابطون فى أبراج مزودة بالأنوار الكشافة القوية وأسراب من الكلاب لمطاردة الفارين من الأرقاء وهم يؤدون أشق الأعمال وأخشنها وأفدحها ، وهؤلاء من الذين يعارضون الشيوعية أو ينقدونها أو يشتبه فى أمرهم ، ومن رجال الدين الذين يعرقلون

---

(١) ١٥٧ الدستور (٢) ٤٨٠ آثرت الحرية

دعوة الالحاد . . [1] وما أصدق مايقول أندريه جيد : إن الشيوعية لاتؤمن بشيء اسمه الحق

فأين هذا من حماية الاسلام للحريات ، وإطلاقه لها وتحريمه الحجر عليها : لحرية الفكر والرأى ، وحرية التصرف والعمل،والحرية الشخصية والحريات العامة ، وحرية الاجتماع والخطابة ، والحرية الثقافية والسياسية والدينية ، كل هذه الحريات قد قررها ودعا اليها وحماها الاسلام وكتابه الكريم .وأبطل الاسلام الحكم الاستبدادى ، وأن الحاكم أو الدولة ظل الله فى الأرض ، وليس للحاكم فيهأ كثر مما للمحكوم ، يقول عمر لعامل له : متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا ؟ ويقول : من رأى منكم فيه اعوجاجا فليقومه ، إن رأيتمونى على باطل فقومونى، ويقول الرسول: الأمام راع ومسئول عن رعيته .

ولقد حرر الاسلام الانسان من الجهل والجمود والفاقة ، وحرر المرأة من جور الرجل، وسواها به فى الحقوق والواجبات،ودعا إلى تحرير الأرقاء ورفعهم إلى منزلة السادة ، وحرر الطبقات من طغيان المستبدين، وحرر الروح الانسانى من الشهوات والترف والمادة .. إنه بحق دين الحرية والكرامة الانسانية فى الحياة

— ٣ —

والمساواة ركن من أركان الديمقراطية ، والشيوعية تزعم أنها تؤمن بالمساواة وتطبقها ، وتتخذ من ذلك وسيلة لدعايتها الجوفاء ، وتسرف

---

(١) ٩٨ الشيوعية فى الميزان

فتدعى أنها تحقق للانسان المساواة الاقتصادية ، ولعل كلام ستالين فى خصومه عام ١٩٣٤ خير رد على ذلك ، قال : إن هؤلاء القوم يحسبون أن الشيوعية تستلزم المساواة فى مطالب العيش لكل فرد فى المجتمع ، ألا ما أسخفه من رأى يخرج عن فكر مشتت ، وإن المساواة التى نادوا بها هى التى أضرت بصناعتنا أكبر الأضرار... وبينما كانت الشيوعية تعمل لإلغاء الطبقات والمساواة فى الأجور ، إذا نحن نرى اليوم فى روسيا عدة طبقات متفاوتة الدخل ، وهى طبقة المفكرين وعددها نحو ١٣ ٪ من السكان ولها نحو ٣٢ ٪ من دخل الدولة ، وطبقة الصناع وعددها ٢٤ ٪ ولها من الدخل القومى ٣٢ ٪ ، وطبقة الزراع وعددها ٥٤ ٪ ولها ٣٣ ٪ من الدخل ، وطبقة المسخرين الذين لم يرضوا عن الشيوعية وعددها ٩ ٪ ولها فى الدخل ٣ ٪ . . أما المساواة الاجتماعية فتتلاشى هناك رويداً رويداً ، فقد فرضت التحية العسكرية وأعيدت الرتب فى الجيش وأعيد لقب وزير ومجلس وزراء ، وزادت ألقاب ستالين .. وسيطرة طبقة واحدة هى طبقة العمال على سائر طبقات المجتمع تفنيد لآرائهم النظرية فى المساواة .

أما المساواة فى الاسلام فحدث عنها ولا حرج ، مساواة كاملة بين الناس جميعا ، بين المرأة والرجل ، والصغير والكبير ، والمحكوم والحاكم ، بين جميع الطبقات والجماعات ، بين الأغنياء والفقراء ، مساواة يحميها الاسلام وكتابه ورسوله وخلفاؤه ، ولا تعرف أى لون من ألوان التمييز بين الناس ، حتى لقد كان الخليفة عمر يمشى وعبده معه راكب ، وولى رسول بلالا الحبشى على المدينة وفيها سادات الأنصار والمهاجرين ، وأسند إلى مهران الفارسى ولاية اليمن ، وقال : ليس لعربى على عجمى ولا لعجمى على

عربى ولا لأحمر على أبيض ولا لأبيض على أحمر فضل إلا بالتقوى . أذن الخليفة عمر لصهيب وبلال وسواهما من عامـــة الموالى بالدخول عليه قبل سادة قريش ، والغى الاسلام الفوارق والامتيازات ، ووزع الحقوق والواجبات على الأفراد على السواء ، وصار الحاكم والمحكوم جميعا على قدم المساواة فى المسئوليات والالتزامات ، ويؤيد مبدأ المساواة فى الاسلام عدالة اجتماعية قوية أيدها ودعا اليها ، وتقوم على الأخوة والتكافل العام ، وأساسها التحرر الوجدانى ، وتتخذ من الضمير البشرى والتشريع القانونى وسائل لتحقيقها واذاعتها بين الناس . فاين هذا من الفلسفات الحديثة التى تتنكر لمبدأ المساواة ؟

— ٤ —

والشيوعية — التى تنزل خصومها فى الرأى منزلة العبيد ، وتحبذ الثورة وصراع الطبقات ، وتعمل على إثارة القلق والاضطراب فى الجماعات والشعوب — لا تعرف معنى الاخاء ، فاين هذا من الاسلام الذى أكد الأخوة الانسانية ، والغى نظام الطبقات والعنصرية الكاذبة والعصبيات الحمقاء ، وجعل المؤمنين إخوة فى الدين والناس جميعاً اخوة فى الانسانية ، حتى الخدم جعلهم الرسول إخوان المخدومين فقال : « اخوانكم خولكم » .. كل هذا فى عصر كان يرى — كما يرى أرسطو وأفلاطون من قبل — حرمان الموالى والصناع من الحقوق المدنية لانحطاط ما يمارسون من مهن ، وكما رأى أرسطو من أن الله اوجد البرابرة ليعيشوا أرقاء ؛ وسلب ثروتهم من الأعمال الشريفة

كل هذا دليل على أن الاسلام أثبت قدما فى الديمقراطية ، وأصلح مذهبا

وأعدل رأيا فيها ، وأقوم سبيلا إلى الاصلاح العام ، وأنه مامن دين أو مذهب يبلغ فى ذلك الباب مابلغه الاسلام

حقوق الانسان فى الاسلام والشيوعية

حقوق الانسان عند الشيوعيين مستمدة من الجماعة ، وإرادته جزء من ارادتها ، وليس للفرد كيان مستقل عنها

تقرر الشيوعية للانسان حق العمل ، ولكنها تحجر على العامل وتربطه بمصنعه ، وتمنعه من تغيير العمل والمصنع ، وقوام نظام الأجور فى بلادها الأجر بالقطعة ، الذى تنفر منه نقابات العمال فى العالم .. والاسلام الذى شرع المضاربة والشركة والمساقاة والمزارعة والاجارة وسواها من أبواب العمل ، وحمى العامل ورعاه ، وحافظ على حريته وأجره ، وحث الناس على العمل إنما يهدف إلى القضاء على البطالة والفقر بين الناس

وتقرر الشيوعية حق الراحـــة الأسبوعية للمواطنين . ونحن نعلم أن يوم الجمعة عيد أسبوعى للراحة والاستجمام فى الاسلام الذى يحترم أيام الراحة كذلك عند غير المسلمين

وتقرر حق الضمان الاقتصادى بالحصول على تأمين مادى : عند الشيخوخة أو المرض ، أو العجز عن العمل . وقد سبق المسلمون إلى تطبيقه فى بلادهم منذ عهد بعيد فكان عمر يصرف للفقراء مسلمين وغير مسلمين حاجتهم من بيت المال ـ وكان يعتبر الأطفال عاجزين عن العمل ويفرض لكل مولود مائة درهم ، فاذا ترعرع بلغ به مائتى درهم ، فاذا بلغ زاده ، ويجعل أجرة رضاع الطفل ونفقته من بيت المال ، وكان يقسم

مافى بيت المال على الناس بحسب بلائهم فى الاسلام، حتى استغنى الناس وأبوا أخذ الصدقات، ولم يوجد فقراء فى عهد عمر بن عبد العزيز يأخذون الزكوات فاشتريت بها رقاب واعتقت، ورأى ابن الخطاب فى طريقه إلى دمشق قوما مجذومين من النصارى فامر أن يجرى عليهم القوت من بيت المال. على أن نظام الضمان الاجتماعى لم يبلغ فى روسيا مابلغه فى شمال أوربا وامريكا

وتقرر الشيوعية للانسان حق التعليم، وقد سبقها الاسلام إلى ذلك منذ أجيال ويؤثر عن رسول الله: «طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة».. وكان التعليم مجانيا فى شتى مراحله فى بلاد الاسلام، مع صرف الغذاء والكساء للطلاب.

وتقرر حق المرأة فى التساوى مع الرجل وهو حق سبق به الاسلام

إن الاسلام ليحمى حق الانسان فى الحياة والحرية والعدالة والانصاف والمساواة والأمن وحقه فى التعليم وحقه فى الحكم الدستورى، وفى كل جانب عادل من جوانب الحياة

الاشتراكية فى الاسلام والشيوعية

-١-

يستخدم لينين الاشتراكية والشيوعية بمعنى واحد، أما ماركس فيطلق على نظام الانتاج الموزع — مع توزيع حصيلته وفقاً لنوع وكمية العمل المنجز — المرحلة الأولى للشيوعية، ولم يسمه بالاشتراكية، وأطلق على النظام نفسه الذى توزع حصيلته وفقاً لحاجات الأفراد المرحلة العليا للشيوعية.

والاشتراكية — اقتصادياً — تنادى بالملكية المشتركة لأدوات الانتاج مع اعترافها بدور النقود والأجور، شعارها : « من كل وفقاً لمقدرته وإلى كل وفقا للعمل المنجز ».

أما الشيوعية نظرياً فبدؤها « من كل وفقاً لمقدرته وإلى كل وفقاً لحاجته ».

فالشيوعية تقول بحصول الفرد على نصيب فى الانتاج طبقاً لحاجته، والاشتراكية تجعل ما يخصه جزاء على الخدمات التى يؤديها [1]. وينكر الاشتراكيون « صراع الطبقات » وفكرة الثورة كوسيلة لتحقيق مبادئهم [2]، من حيث يؤمن بها الشيوعيون وبمبدأ إلغاء الملكية الفردية وتأميم جميع المؤسسات ووضع أموال الأمة فى يد الحكومة، والقضاء على التجارة الداخلية، وقيام نظام السلع مقابل بطاقة يقدمها الفرد للحصول على حاجات معيشته، وتطبق نظام الأجور الذى وضعه لينين، وتحتكر الدولة وحدها التجارة الخارجية، وتهيمن على النظامين النقدى والمصرفى، وتطبق الملكية المشتركة بمنح الفلاحين الأرض على سبيل الإعارة المؤبدة يستغلونها على أساس تعاونى، والعمل وحده له حق الحصول على دخل. ولما فشلت الشيوعية فى توزيع الأجور وفقاً للحاجة أخذت توزعها وفقاً للانتاج.. وهذه المبادىء مغالى فيها مغالاة شديدة مما يجعلها جوراً اقتصادياً لا حد له وخنقاً للحريات قاتلا.

— ٢ —

إن الاشتراكية أنجح من الشيوعية فى علاج الفقر والبطالة، وهى

(١) ١٩٦ النظام الاشتراكى — راشد البراوى — ١٩٥١
(٢) ١٩٨ المرجع

تؤمن بالديمقراطية وحرية الفرد ، مما يتلاقى مع مبادىء الاسلام الكريم الذى هو دين اشتراكى حقا ، بل هو المثل الأعلى للاشتراكية السليمة .

الاشتراكية فى الاسلام هى العدل والتعاطف والتكافل الاجتماعى ، وهى الإيثار والتضحية لخير الجماعة ، وهى من الناحية المعنوية تدعم الحرية الفردية ، وتؤمن بالضمير الإنسانى ، ومن الجانب الاقتصادى تهدف إلى مقاومة الاستغلال فى شتى صوره ، ومن الناحية السياسية تدعو إلى الديمقراطية والشورى وحرية الرأى والمساواة ، ومن الناحية الاجتماعية تقاوم الفقر وتجعل الغنى وظيفة اجتماعية تناط بها حقوق يجب أن تؤدى ويجب على الدولة أن تراقب أداءها ، ومن حيث الوسائل تنكر الثورة وصراع الطبقات وتحرص على الأمن والسلام بين الناس ، ولا تجعل الملكية والمال وسيلة للتمييز بين الناس ، وتحمى حقوق العامل والفقير والرقيق والخادم والمرأة ، وتعمل للاصلاح العام والتعاون المثمر ، وتقرر التأمين الاجتماعى للفقراء والعاجزين ، وتفرض الزكاة ضريبة لمحاربة الفقر ، وتحرم الربا والاستغلال والاحتكار فى شتى صوره والترف والاسراف ، وتحد من غلواء الرأسمالية ، وتكره التفاوت المادى بين الناس ، حتى لقد آخى الرسول بين الأنصار والمهاجرين ، ووزع فى بنى النضير على المهاجرين الفقراء ، وتوصى بالاحسان والصدقة ، وتفرض نفقة الأقارب المحتاجين على ذويهم الأثرياء القادرين على الكسب ، وتشرع نظام الوقف والوصية والقرض والهبة والوديعة والإعارة ، وتقرر فريضة الميراث ، وتنهى عن الكسب الحرام ، وتجعل الزوج مسئولا عن زوجته والاب عن أولاده ، وتحض على العمل وعلى إجاده ، وتحترم العامل وحقوقه وتسوى بينه وبين صاحب العمل ، وتحافظ على الملكية الخاصة وتقيم

بجانبها ملكية عامة كما فى أرض الوقف والاراضى الخراجية ، وتوصى بالفقراء وبالتكافل الاجتماعى ، يقول الرسول : أيما أهل عرصة أصبح فيهم امرؤ جائعا فقد برئت منهم ذمة الله تبارك وتعالى ، وقال ابن حزم: فرض على الاغنياء فى كل بلد أن يقوموا بفقرائها ، ويجبرهم السلطان على ذلك، إن لم تقم الزكوات بهم ولافىء سائر أموال المسلمين ، فيقام لهم بما يأكلون من القوت الذى لابد منه ، ومن اللباس فى الشتاء والصيف بمثل ذلك ، وبمسكن يكنهم » .

وتسلم اشتراكية الاسلام بمبدأ الضرائب التصاعدية ، مما يظهر لك فى نسب ضريبة الجزية ، وترعى صاحب الاسرة ، فقد جعل الرسول للأعزب سهما من الغنيمة وللمتزوج سهمين[١]، ومنع على ابن أبى طالب الحجز على الضروريات وفاء للضريبة [٢] ، وتسلم برقابة الدولة على الملكية بتقريرها مبدأ « من أين لك هذا؟ » الذى طبقه العمران ، وأبى عمر أن يقسم أرض العراق حتى تبقى ملكا عاما للمسلمين .

هذه هى الاشتراكية بأوسع معانيها وأصدق مدلولها .

الملكية فى الاسلام والشيوعية

— ١ —

الاشتراكية لا تدعو إلى إلغاء الملكية الفردية ، وإن كانت ترى تأميم المرافق المتصلة بالخدمات العامة [٣] .

---

(١) ١٧ الادرة الاسلامية ـ كرد على ـ ١٩٣٤ القاهرة
(٢) راجع ٣٨ المرجع
(٣) ٢٠٠ النظام الاشتراكى

أما الشيوعية فلا تقر الملكية الفردية ، وكان ماركس يرى أنها أساس النزاع بين الطبقات ، وقد قام الشيوعيون بإلغاء الملكيات الخاصة ، وتأميم مصادر الثروة فى روسيا ، ونفذوا ذلك بالقوة والعسف . وجميع موارد الانتاج والثروة فى يد الحكومة تنتج وتوزع، فهى صاحبة المصانع والمزارع والمتاجر والمناجم ومنازل المدن ، ويمنع القانون الشيوعى امتلاك سيارة للاستغلال التجارى ، وفى المادة الخامسة من الدستور السوفيتى : الملكية الاشتراكية إما أن تأخذ شكل تملك الدولة فتكون الثروة للشعب عامة ، أو شكل الملكية التعاونية أو الجماعية . . . ومحاربة الشيوعية للملكية الفردية استتبع محاربتها للارث وتحريمها له .

إن مبدأ إلغاء الملكية الفردية إلغاء تاما ينافى الفطرة الانسانية ، وغريزة التملك فى الانسان، ويدعو إلى الخمول والكسل ، ويخالف تعاليم جميع الأديان وقد طبق ذلك فى المجتمع الشيوعى فى روسيا بقوة السلاح ، ثم أخذت الحكومة فى التراجع فأباحت للمواطنين الامتلاك الشخصى للدخل الناتج عن عملهم ومدخراتهم ولأثاث البيوت والأمتعة والأدوات المخصصة للاستعمال الشخصى وحقهم فى وراثة الملكية الشخصية ، وأجازت للفلاح فى المزرعة المشتركة أن يملك حديقة حول منزله .

— ٢ —

أما الاسلام فقد شرع وحمى الملكية الفردية ، وأجاز لمن أحيا أرضاً مواتاً بإذن الامام ولو ذميا أن يملكها إذا كانت بعيدة عن العامر على أن يعمرها خلال ثلاث سنين ، وإلا أخذت منه ودفعت لغيره .

ولا شك أن فى حماية حرية الملكية أمام الانسان تحريرا له من قيود

الوصاية الاجتماعية ، واعترافا بشخصيته وكرامته الانسانية ، وإثارة لمواهبه الخاصة ، ودفعا له على تحمل مسئوليات الحياة .

لقد بعث محمد صلوات الله عليه إلى الناس كافة ، ومعه رسالة تضيء ظلمات الحياة ، وشريعة تقضي على الأغلال والعبودية ، وبين يديه دستور خالد يهدى إلى النور والحق والحرية والمساواة والعدالة والاخاء .

ولقد حرر الاسلام وكتابه الحكيم ورسوله الكريم المستضعفين فى الأرض ، ومحا الاستعباد السياسى والاجتماعى ، وقرر مسئولية الحاكم وأنه خادم الشعب ، وان لاطاعة له على أحد إذا خرج عن طاعة الله ، وان أول واجب عليه حماية دماء المسلمين واعراضهم وأموالهم ، وألغى الألقاب ونظام الطبقات الجائر ، وهدم الفروق الواسعة الظالمة بين الناس ، فكلهم لآدم وآدم من تراب ، ولا فضل لعربى على أعجمى إلا بالتقوى والعمل الصالح . وحرم الترف والفساد والاستغلال والاحتكار وأكل أموال الناس بالباطل ، وجعل لكل فقير حقا فى بيت المال ، فان لم يكن فى بيت مال المسلمين ما يسد حاجات الفقراء ، فحقوقهم يجب ان تؤخذ من أموال الأغنياء ، التى كره الله كنزها ، وأنذر من يكنزها لانفاقها فى غير مرضاة الله بعذاب شديد : « والذين يكنزون الذهب والفضة ، ولا ينفقونها فى سبيل الله ، فبشرهم بعذاب اليم ، يوم يحمى عليها فى نار جهنم ، فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم ، هذا ما كنزتم لانفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون » وفرض الاسلام الخراج والجزية وزكاة الأموال لينفق منها على المساكين والفقراء ، ودعا إلى الورع والزهد فى مال الناس ، وإلى ترك الاسراف فى التملك لأنه مدعاة للترف والهلاك والخروج

عن حدود الفضيلة والعفة والدين ، واعلن وحمى مبدأ تكافؤ الفرص أمام الناس جميعا .

كل هذه المبادىء الكريمة تنبئنا برأى الاسلام فى الملكية :

فهو لا يعترف بملكية اقتطعها الحاكم من مال الأمة ومنحها لمن يشاء دون حساب ، ولا يعترف بملكية آلت إلى صاحبها نهبا واستغلالا للنفوذ ، أو سرقة خفية من املاك الدولة ، أو تحت ضغط الحاجة الملحة المصنوعة ، ولا يعترف بملكية ملكها صاحبها بمال جمعه بشتى الوسائل غير المشروعة ، دون ان يؤدى منه حقوق الله والفقراء وزكاة المال .

وكل ملكية لا يعترف بها الاسلام يجب مصادرتها وضمها إلى بيت المال ومن باب أولى يجوز ردها إلى الدولة عن طريق الشراء ، ليعاد توزيعها على الفقراء توزيعا عادلا . والفقراء هنا ليسوا عددا قليلا حتى لايحسب لهم حساب ، وإنما هم الاغلبية العظمى من الشعب ، ان لم يكونوا الشعب كله ، ممن لا يجدون الغذاء والكساء وثمن الدواء .

ولقد اباح الاسلام مصادرة الأموال التى جمعها أصحابها من دماء الناس ظلما وبهتانا ، وهذا عمر بن الخطاب قد صادر أموالا كثيرة من ولاته على الأقاليم : كعمرو بن العاص وأبى هريرة والنعمان بن عدى وعامله على اليمن وعلى مكة والكوفة والشام . ولقد كان خلفاء المسلمين وولاتهم وعمالهم يتعففون عن مال الدولة لايمسونه ولا يقربونه فضلا عن ان يتملكوا أرض المسلمين ، وكان رسول الله يحاسب ولاته حسابا عسيرا ، يسألهم من أين لكم هذا ؟ وولى مرة رجلا على أموال الزكاة ، فلما رجع حاسبه فقال الرجل : هذا لكم وهذا أهدى إلى ، فقال الرسول الكريم : مابال

الرجل نستعمله على العمل بما ولانا الله فيقول : هذا لكم وهذا أهدى إلى ، أفلا قعد فى بيت ابيه وأمه فنظر أيهدى اليه أم لا ؟

وهذا عمر بن عبد العزيز لما ولى خلافة المسلمين نزل عن أملاكه التى انتقلت اليه من أبيه بالارث الشرعى ، ومزق كتب الاقطاعات بالضياع والنواحى ؛ وأبطل قطائع أهله وهم أولاد الخلفاء من بنى أمية وضمها إلى بيت المال ، ومزق مامعهم من وثائق بملكيتها . وكان أبوه عبد العزيز والى مصر للخليفة عبد الملك بن مروان ، فأهداه الخليفة أرض حلوان إقطاعا ، فلما ولى ابنه عمر بن عبد العزيز الخلافة قدم مصرى عليه يطالبه برد أرضه التى اخذها أبوه منه ظلما فى حلوان ، فقال عمر : تعال نحتكم إلى قاض من قضاة المسلمين ليحكم بيننا بما أنزل الله فان لى فيها شركاء اخوة وأخوات ، لا يرضون أن اقضى فيها بغير قضاء قاض وقام معه إلى القاضى فقعد الخليفة بين يديه ، وتكلم بحجته وتكلم المصرى ، فقضى القاضى للمصرى على الخليفة ، فقال عمر بن عبد العزيز قد انفق عليها الف الف درهم ، فقال القاضى : لقد أكلتم من غلتها بقدر هذا ، فاطمأنت نفس عمر وقال : وهل القضاء إلا هذا ؟ الله لو قضيت لى ما وليت لى عملا .

وهناك كثير من الملكيات قد امتلكت من الفلاحين الفقراء المدينين بطريق المزايدة ، وهو ملك فيه إثم وشبهة ، ولقد كان على ابن أبى طالب وهو خليفة المسلمين ينهى عماله ان يبيعوا حاجيات الفلاح وأدوات زراعته وما يعيش عليه هو وأولاده من ثروة لسداد ما عليه من دين أو خراج .

هذا حديث الملكيات التى يجب ان تصادر فى رأى الاسلام ، أما

الملكيات الكبيرة الاخرى التي قد تتجوز فيقول قائلنا: إنها ملكت بطرق مشروعة لادخل فيها للاستغلال ولا المجاملة الأقوياء فإن ردها إلى الدولة لتوزعها على الشعب وان لم يكن واجبا لكنه جائز بحكم الدين، فان الله تعالى قد كره ان تكون الأموال ومصادر الثروة فى ايدى طبقة خاصة من الشعب، وهم الأغنياء وحدهم دون الفقراء . أفلا ترى إلى قوله تعالى : « ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كى لا يكون دولة بين الأغنياء منكم »، فنظام الثراء الفاحش والفقر الشديد لا يقره الاسلام شريعة المدنية المهذبة والانسانية الرفيعة . . إن الاسلام لا يبيح إثراء أفراد بافقار أمة ، ولا إسراف طائفة فى التملك باشقاء مجتمع بأسره ، بل إنه يجيز الحجر على الاقوياء حتى لا يسرفوا فى تملك الأرض ، فهذا عمر بن الخطاب يحجر على أعلام قريش من المهاجرين ، حتى لا يخرجوا إلى البلاد المفتوحة يتملكون أرضها دون الناس ، وكان يقول : « إلا وان قريشا يريدون ان يتخذوا مال الله معونات دون عباده، ألا فأما وابن الخطاب حى فلا » .. وهذا معناه الواضح تحديد الملكية

ويؤثر عن جابر بن عبد الله حديث ينص بصراحة تامة على ان مالك الأرض إما أن يزرعها بنفسه . وإما ان يتنازل عنها ولو بالهبة لغيره من الناس ، قال جابر : كان لرجال منا فضل أرض ، فقالوا نؤاجرها بالثلث أو الربع أو النصف، فقال الرسول ﷺ : « من كانت له أرض فليزرعها أو يمنحها أخاه ولا يؤاجرها اياه » ، أى ليزرعها بنفسه أو ليتنازل عنها ولو بالهبة لأخيه المسلم، ولا يعطيها اياه مؤاجرة ،لأن ذلك مظهر للتعاون بين المسلمين .

إن الاسلام يقر مبدأ تحديد الملكية ، ليعيش المجتمع كافة بنعمة الله

-إخوانا . وليتعاون الفقراء والأغنياء على خير الأمة وسعادتها ومجدها ، ولتتقارب الطبقات ، وتزول الفروق الواسعة بين الناس ، ويمحى من بيننا الفقر والجوع والعرى ، وليشعر الفلاح والعامل الزراعى بأنهما كغيرهما من الناس ، لهما الكرامة والحرية والحياة الطيبة الرغيدة ، وأن الحكومة التى تقوم على شؤون الشعب تحرص على توزيع العدالة الاجتماعية بين المواطنين كافة دون تمييز أو استثناء . وما أصدق ما يقول الرسول الكريم « أيما أهل عرصة - أى محلة - أصبح فيهم امرؤ جائعا ، فقد برئت منهم ذمة الله تبارك وتعالى » ...

ولقد روى أبو داوود عن عمرو بن حريث قال : خط لى رسول الله ﷺ داراً بالمدينة بقوس ، وقال (أزيدك) . وروى أحمد بن داود عن ابن عمر رضى الله عنه قال : أقطع النبى صلى الله عليه وسلم الزبير حضر فرسه . وأجرى الفرس حتى قام ، ثم رمى بسوطه ، فقال (اقطعوه حيث بلغ الصوت) .. وفى رواية أبى داود عن قيلة بنت مخرمة قالت : قدمنا على رسول الله ﷺ وتقدم صاحبى — تعنى حريث بن حسان — وافد بكر ابن وائل فبايعه على الإسلام عليه وعلى قومه ، ثم قال يارسول الله اكتب بيننا وبين تميم بالدهناء أن لا يجاوزها إلينا منهم أحد إلا مسافر أو مجاوز . فقال اكتب له يا غلام بالدهناء ، فلما رأيته قد أمر له بها ، شخص بى وهى وطنى ودارى ، فقلت : يارسول الله ، إنه لم يسألك السوية من الأرض إذ سألك ، إنما هذه الدهناء عندك مقيد الجمل ، ومرعى الغنم ، ونساء بنى تميم وأبناؤها وراء ذلك ، فقال : أمسك يا غلام صدقت المسكينة والمسلم أخو المسلم يسعهما الماء والشجر ويتعاونان على الفتان - يعنى الشيطان ، وأخرجه أيضاً الترمذى مختصراً . وأخرج البيهقى والطبرانى بإسناد قوى

أن النبي ﷺ لما قدم المدينة أقطع الدور ، وأقطع ابن مسعود فيمن أقطع ، وروى أحمد وأبو داود والترمذى عن سعيد بن زيد قال : قال رسول الله ﷺ من أحيا أرضاً ميتة فهى له ، وليس لعرق ظالم حق . قال ربيعة : العرق الظالم يكون ظاهراً وباطناً فالباطن ما احتفره الرجل من الآبار ، أو استخرجه من المعادن . والظاهر مابناه أو غرسه . وقال غيره، العرق الظالم من غرس أو زرع أو بنى وحفر فى أرض غيره بغير حق ولا شبهة ، وروى الإمام أحمد عن الأشعث بن قيس أن رجلا من كندة ورجلا من حضرموت اختصما إلى النبي ﷺ فى أرض باليمن فقال الحضرمى يارسول الله أرضى اغتصبها هذا وأبوه . فقال الكندى يارسول الله أرضى ورثتها من أبى . فقال الحضرمى يارسول الله استحلفه أنه ما يعلم أنها أرضى وأرض والدى ، اغتصبها أبوه ، فتهيأ الكندى لليمين، فقال له رسول الله ﷺ :إنه لا يقتطع عبد أو رجل بيمينه مالا إلا لقى الله يوم يلقاه وهو أجذم . فقال الكندى هى أرضه وأرض والده

وتقول لجنة الفتوى بالأزهر : « إن من مبادىء الدين الاسلامى احترام الملكية ، وإن لكل امرىء أن يتخذ من الوسائل والسبل المشروعة ، لاكتساب المال ، وتنمية ما يحبه ويستطيبه ، ويتملك بهذه السبل ما يشاء .. هذا وقد ذهب جمهور الصحابة وغيرهم من الفقهاء المجتهدين إلى أنه لايجب فى مال الأغنياء إلا ماأوجبه الله من الزكاة والخراج والنفقات الواجبة بسبب الزوجة أو القرابة أو ما يكون لعوارض مؤقتة وأسباب خاصة كإغاثة ملهوف وإطعام جائع مضطر ، وكالكفارات، وما يتخذ من العدة للدفاع عن الأوطان وحفظ النظام إذا كان ما فى

بيت مال المسلمين لايكفى لهذا ، وكسائر المصالح العامة المشروعة .. هذا هو الواجب غير أن الإسلام يدعو كل قادر من المسلمين أن يتطوع بما شاء من ماله ، يصرفه فى وجوه البر والخير » ... وذهب أبو ذر إلى أنه يجب على كل شخص أن يدفع ما فضل عن حاجته من أى مال مجموع عنده فى سبيل الله أى فى البر والخير ، وأنه يحرم ادخار ما زاد عن حاجته ونفقة عياله . .

ويقول المغفور له الشيخ الشناوى شيخ الأزهر الأسبق[1]: القرآن الكريم قد احترم الملكية الفردية وصانها ونظم انتقالها إلى الأبناء والمستحقين ، وفصل القول فى قواعد المواريث وتحديد الانصبة فيما تركه الوالدان والأقربون ، قل منه أو كثر . وفى بيان الوصية التى للمالك فى ماله لمن شاء .. مما يدل الدلالة الواضحة على حق الملكية لكل مالك وانتقال هذا الحق من بعده إلى ورثته من أبنائه وأقربائه .. ولقد حمى الإسلام حرية التملك ودعا إلى احترامها ، فلكل فرد أن يقتنى من المال ما تمكنه من اقتنائه السبل المشروعة ، وليس عليه وراء ذلك إلا أن يؤدى الزكاة وله أن يتصرف فى هذه الأموال بما يراه وتبقى بعده تركته لورثته ، وحكم الاسلام فيمن يتأخر عن دفع الزكاة أو يرفضها معلوم وهو أخذه بتأدية هذه الفريضة بالتبليغ والدعوة إليها ، وإلا صودرت أموالهم بمقدار هذا النصيب المفروض »

ويقول الشيخ عبد المجيد سليم شيخ الازهر السابق[2] : « الاسلام لا يتعرض للملكيات ولا يحد منها ، بل يفرض على هذه الملكيات

---

(١) من حديث لهمع صحفى امريكى — مجلة الازهر المجلد العشرون ١٣٦٨
(٢) راجع المصرى ٢٧ — ٥ — ١٩٥١

للدولة من الحقوق المالية ما يراه كفيلا بقيام بيت المال لرعاية مصالح الدولة وحقوق للشعب ،

الاسرة فى ظل الاسلام والشيوعية

— ١ —

للمرأة فى النظام الشيوعى حقوق « مساوية لحقوق الرجل فى كافة ميادين الحياة العامة والاقتصادية والثقافية والاجتماعية والسياسية » ، لها ما له من حقوق وعليها ما عليه من التزامات ، فهى مجبرة على العمل لتأكل ، لأن « من لا يعمل لا يأكل » ، وهى على قدم المساواة معه فى المنزل وخارجه ، ولها مطلق الحرية فى سلوكها الشخصى دون رقابة الزوج ، وتعمل فى المزارع والمصانع ، وهى نائبة وموظفة .

والزواج سهل ميسور ، يكفى أن يقيدا اسميهما فى سجلات الزواج المدنية . . وهما يعملان فى الصباح ، وتسلم الأم أولادها إلى ملاجىء الطفولة ، وعند عودتها للمنزل مساء تأخذهم معها ، ويشترك الزوجان فى شئون المنزل . ولها إجازتها من العمل قبل الوضع وبعده . ولكل منهما حرية الانفصال عن الآخر متى شاء .

وكل فتى راشد أو فتاة مسئول عن نفسه ، لا يعتمد فى معاشه على أحد ، يقبض أجره ويتصرف فيه ، وله أن يحمل اسم أمه أو أبيه أو يستقل باسمه .

— ٢ —

هذا هو منطق الشيوعية ، أما الاسلام فآراؤه فى الأسرة مثل أعلى فى الاصلاح .

فقد كفل للمرأة جميع الحقوق المدنية والمالية والاجتماعية ، وأطلق لها حرية الرأى والتعبير والحرية فى التعلم والتعليم وخدمة المجتمع، وقرر حريتها الشخصية وكيانها المعنوى،وساواها بالرجل فى الحقوق والواجبات والاسلام يجيز اشتراكها فى الشئون العامة ، وأن تشير وتستشار فيها ، وإن كان لا يخصصها لذلك وحده حفظا للأنوثة وواجباتها .. وقد حرم الاسلام ألوانا كثيرة من رق المرأة كالزنا والبغاء ، وجعل صلتها بالرجل قائمة برباط مقدس هو الزواج الذى لايتم إلا برضاها ، وجعلها راعية فى بيت زوجها ومسئولة عن رعيتها ، وأوجب معاشرتها بالمعروف ، وجعل مهمتها الاساسية هى رعاية المنزل وتربيــة الابناء والتعاون مع الرجل فى الحياة .. ونفقة المرأة على أبيها أوولى أمرها قبل الزواج وعلى زوجها بعده غنيــة كانت أوفقيرة ، فان لم يكن لها عائل فنفقتها من بيت المال .. ولها مهرها ، وحقها فى الميراث للأنثى نصف الذكر .. وقيد إباحة تعدد الزوجات والطلاق بقيود شديدة لأهداف اجتماعية سامية .

وآراء الإسلام فى المرأة والأسرة تنافى ما تذهب اليه الشيوعية ، فهو لايبيح خروج المرأة للعمل لأن مملكتها البيت ، وهى ليست مسئولة عن معاشها فى نظر الإسلام ، وهو يجعل الزوج رقيبا على سلوكها ، ويعهد اليها لاالى دور الحضانة بتربية الاطفال ، ويخلق من الاسرة وحدة اجتماعية سليمة قوية .. وآراؤه فى ذلك تتفق والعقل والدين والفطرة الانسانيــة وأصول الاجتماع .

خاتمة البحث

وبعد ، فللأسلام منهجه الخالد فى التشريع والاصلاح وقيادة الجماعات والأمم والانسانية . وهو منهج يخالف كل ما تتناوله الشيوعية من شئون وتنتظمه من مبادىء وتهدف اليه من غايات ، مما يرشد الى أن الاسلام لايوافقها فى أفكارها ووسائلها وغاياتها ، وأنه مثل أعلى فى العقيدة والنظام والتجديد

« إن الاسلام واق من الشيوعية بما حوى من مبادىء خطيرة فى تشريعاته [١] » .

و « لو عرفت الدين الاسلامى وكيف كفل للمسلمين التساند الاجتماعى وأن واجبا محتوما على كل واحد منهم أن يأخذ بيد أخيه المسلم وأن يقف حاجزا بينه وبين الحاجة . . لما توانيت لحظة فى الأذعان معنا فى أن الاسلام هو الصخرة التى ترتطم بها أمواج الشيوعية ثم تنحسر عنها واهنة مخذولة ، ولما ترددت لحظة فى أن سبيل الشيوعية الى المسلمين مليئة بالأشواك [٢] » .

خلاصة البحث

ما هو رأى الاسلام فى مشكلات الاجتماع والحياة والسلام العالمى ، وفى مناهج الشيوعية ومبادئها التى تسعى لنشرها بكل وسيلة ؟

---

(١) من حديث للشيخ سليم شيخ الأزهر السابق — عدد ٢٧ — ٥ — ١٩٥١ جريدة المصرى

(٢) من حديث للشيخ الشناوى شيخ الأزهر الاسبق — مع صحفى أمريكى

إن فلسفة الشيوعية فلسفة مادية إلحادية ، تؤمن بالمادة وحدها ، وتنكر ماوراء المادة من روحيات ومثل وقيم أخلاقية عليا ، وتبنى كل شىء على نظرية دارون فى النشوء والارتقاء ، دون حاجة إلى الروح الشاملة ، ومن ثم تصر على إنكار وجود الله ، وترجع كل شىء حتى الدين والأخلاق وحوادث التاريخ وتطور المجتمعات إلى الظروف المادية للحياة ، وكان ماركس زعيم الشيوعية الروحى يقول : لا إله والحياة مادة ، ويدعو إلى القضاء على الدين وعلى الداعين اليه ، وكان إنجلز يقول : لامحل مطلقا لوجود خالق ،

وهذا الأمعان فى إنكار الله ومحاربة الدين يناقض الاسلام وأصوله ، ويحاربه الاسلام بكل مايستطيع ، والذين يؤمنون بمثل هذه المبادىء هم فى رأيه مرتدون يحاربون ويقاتلون حتى يفيئوا إلى أمر الله ، لأن الاسلام يؤمن بالروحية ، ويجعلها أهم شىء فى حياة الانسان ، والمادة تبع لها . والحرية الدينية هى أهم حق من حقوق الانسان ، والاسلام يدافع عن الحرية الدينية ، وينتصر لها ، ويأمر المؤمنين باحترام الأديان ، ولايبيح لهم أن يتحكموا فى الحريات الدينية ، ويقرر أن لا إكراه فى الدين ، و « لكل أمة جعلنا منسكا هم ناسكوه » ، ويدعو إلى أن يبر المؤمنون أهل الأديان ويقسطوا اليهم

ولكن الشيوعية تتنكر لهذه الحرية ، وتشن حملة قاسية على الأديان ورجال الدين ، وتفصل الدولة والمدرسة عن الدين ، وقد ألغى الشيوعيون القسم به ، وألفوا الجمعيات للدعاية اللادينية ، ووضعوا برامج واسعة للقضاء على النزعة الدينية وفكرة الأله وبث روح الألحاد فى بلادهم ، وفى خلال الحرب الأخيرة بدأوا يخففون من قسوتهم فى معاملة الأديان كسبا

لعطف الديمقراطيات ، ولكن بعد أن فات الاوان ، وأصبح كل شيوعى داعية إلى الالحاد وحربا على الدين

وتعادى الشيوعية فكرة الجامعة الاسلامية اقوميات المسلمين فى بلادها وقد أرغمتهم على اتخاذ الحروف الروسية بدل العربية ، وعلى أن يقطعوا علاقتهم الروحية والثقافية بالعالم الاسلامى وبمصادر الثقافة الاسلامية واضطهدت المسلمين فى بلادها اضطهادا شديدا ، ويصرح مولوتوف بانه « لن تنتشر الشيوعية فى الشرق إلا إذا أبعد أهله عن تلك الحجارة التى يعبدونها فى الحجاز وفلسطين »

إن الحرية الدينية فى ظلال الشيوعية لا وجود لها ، وهذ ما يأباه الاسلام وتنكره مبادئه .

وفكرة السلام الاجتماعى جزء من العقيدة الاسلامية ، وأساسها أن المجتمع مهما كبر أسرة واحدة . والناس إخوة فى الله والانسانية ، وعلى كل فرد أن يعمل على نشر الأمن والسلام والمحبة والتعاون بين الناس، وأن يؤمن بالايثار وبالبذل وبالتكافل الاجتماعى .

أما الشيوعية فتؤمن بالثورة وبصراع الطبقات ،لأن تحرير الطبقات العاملة فى رأيها لا يمكن تحقيقه إلا بالثورة فقط . وهى بذلك تقضى على السلام والمحبة بين الناس ، وتبذر الحقد والكراهية فى المجتمع . . وذلك ما ينكره الاسلام ويعاديه .

والاسلام يدعو إلى السلام العالمى وإلى أن تقوم العلاقات بين الأمم والشعوب على التعاون والاخاء والتعارف ، والغى العصبيات وفوارق الألوان والأجناس .

أما الشيوعية فتؤمن بالحرب ، وتناوىء السلم العالمى ، وتشجع الشيوعية الدولية والكومنفورم على نشر القلاقل والاضطرابات الاقتصادية والاجتماعية فى العالم كله بواسطة الأحزاب الشيوعية الموجهة

والاسلام كان ظهوره وذيوعه فى العالم فى وقت قصير ، بسبب ماجاء به من مبادىء عالية هى الحرية والآخاء والمساواة والعدالة ، وهى الأصلاح والمدنية والعرفان ، والأنسانية المهذبة .

بعكس الشيوعية التى قامت بخداعها للطبقات المحرومة ، وبالثورة والتمرد وصراع الطبقات ، وباضطهاد الحريات وتشريد خصومها فى الرأى ، وبالدعاية ، والمال ، وبتكوين الشيوعية الدولية ، وبغير ذلك من الوسائل التى لايقرها الاسلام . دين الأمن والسلام والحرية والمدنية المهذبة والتعاون البشرى فى جميع مرافق الحياة .

والديمقراطية لاوجود لها فى المجتمعات الشيوعية ، فالحريات مصادرة والمساواة معدومة حتى فى الاقتصاد وأجور العمال ، واستبداد الدولة الجائر بالفرد لا حد له ، والحكومة تسير على النظام الفردى الاستبدادى

أما فى الاسلام فالأمر على النقيض : حرية وعدالة ومساواة وإخاء وحكومة شورية دستورية تقوم بمشيئة الشعب ، والحاكم فيها مسئول عن أعماله ، والحكم أساسه سيادة القانون وحكم الشعب للشعب وأن الحكومة وجدت لخدمة الفرد ورفاهيته .

وذلك كله هو دعامة الديمقراطية الحقة ... شتان بين جور الشيوعية على الحريات وحماية الاسلام لها ، وبين تطبيق الاسلام لمبدأ المساواة التامة بين الناس فى كل شىء وحيف الشيوعية على المساواة حتى فى

الاقتصاد وأجور العمال ـ مع أن مبادئها تنص على أنه لا فرق بين إنسان وإنسان . . وبين الأخاء الانسانى الذى جاء الاسلام به وعمل لأجله ، وتفريق الشيوعية بين الناس وعملها الدائم للقضاء على فكرة الأخوة الانسانية بما تذيعه من مبادىء الثورة وصراع الطبقات ، وما تعمل به من إنزال خصومها فى الرأى منزلة العبيد .

أفلا يدل ذلك على إن الاسلام أعرق قدما وأصح مذهبا فى الديمقراطية؟

وحقوق الانسان فى الشيوعية مستمدة من الجماعة وإرادته جزء من إرادتها ، للانسان فى الشيوعية حق العمل ولكنه مقيد الحرية مسلوب الارادة ، يعمل كما تعمل الآلة الصماء ، ولكن الاسلام يرعى حق العمل ويطلق للعامل الحرية ، ويحافظ على حقوقه قبل صاحب المال .

وحق الراحة الأسبوعية الذى تقرره الشيوعية وكذلك حق المرأة فى التساوى مع الرجل جاء به من قبل الاسلام الكريم

وحق الضمان الاجتماعى لا فضل للشيوعية فيه فقد سبق عمر بن الخطاب فطبقه تطبيقا تاما عادلا بين المسلمين وتطبقه الاشتراكيات الحديثة بنجاح، وحق التعليم الذى تؤكده الشيوعية قد سبق به الاسلام وقال: طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة . . وكان التعليم فى الاسلام كله مجانيا ، مع صرف الغذاء والمكافآت للطلاب وتوفير المسكن لهم

إن الاسلام يحمى حق الانسان فى الحياة والحرية والامن والعدالة والانصاف والمساواة وحقه فى التعليم وحقه فى الحكم الدستورى وفى كل جانب عادل من جوانب الحياة

والمظهر الاشتراكى فى الشيوعية مغالى فيه مغالاة شديدة ، فهى تنادى بإلغاء الملكية الفردية ، وتأميم جميع المرافق ، والقضاء على التجار

الخارجية والداخلية وقيام نظام السلع ، وتهيمن الحكومة على النظامين النقدى والمصرفى ، وتطبق الملكية المشتركة على المزارع ، والعمل وحده له حق الحصول على دخل ومن لايعمل لايأكل .. ولما فشلت الشيوعية فى توزيع الاجور وفقا للحاجة أخذت توزعها وفقا للانتاج .. وهذه المغالاة أدت إلى قضاء الشيوعية على الحريات وعلى روح الاشتراكية ، فهى لكى تطعم الفرد تسلبه حريته .

والاشتراكيات الحديثة أنجح من الشيوعية فى علاج الفقر والبطالة . والاسلام مثل أعلى فى الاشتراكية بما يدعو إليه من الايثار والبذل والتكافل الاجتماعى ومقاومة الاستغلال والاحتكار والفقر وحماية الملكية وتشجيعها وحماية العامل وحقه وتقرير التأمين الاجتماعى وفرض الزكاة وتحريم الترف والاسراف والربا والحد من غلواء الرأسمالية وتشريع نظام الوقف والوصية والهبة والقرض والوديعة والإعارة والميراث والشركة والمزارعة والمساقاة والاجارة إلى غير ذلك من مظاهر الاشتراكية العادلة، والشيوعية تحارب الملكية الفردية التى حماها وحافظ عليها الإسلام ونظم انتقالها من الآباء إلى الأبناء ، وجعل الملكية من أسباب تنظيم المجتمع وبعث الخير فيه، ففرض عليها للدولة من الحقوق المالية ما رآه كفيلا بقيام بيت المال على مصالح المسلمين

والشيوعية تخرج المرأة من البيت للعمل وكسب القوت ، وتدع حضانة الأطفال وتربيتهم لدور الحضانة ، وتجعل الابن مسئولا عن نفسه ومعاشه ، وله أن يحمل اسم أمه أو أبيه أو يستقل باسمه .

أما الإسلام فقد أحاط المرأة بشتى ضروب الرعاية ، فجعل نفقتها على أبيها أو زوجها وفرض لها المهر وجعل لها نصيبها فى الميراث واطلق

لها حريتها المالية والاجتماعية والثقافية ، وجعلها ربة البيت ، وأباح لها أن تزاول شتى ألوان النشاط الاجتماعى الذى لا يتعارض مع مهمتها المقدسة ، وجعل الأبوين مسئولين عن الأبناء وتربيتهم ، وفرض على الرجل العدل مع الزوجة ، وقيد تعدد الزوجات والطلاق بقيود شديدة

وبعد فالاسلام « واق من الشيوعية بما حوى من مبادىء خطيرة فى تشريعاته » ، وهو « الصخرة التى ترتطم بها أمواج الشيوعية ثم تنحسر عنها واهية مخذولة » ...

الأزهرى وواجبه الدينى والروحى

يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون .

ضلت الإنسانية وذلت البشرية ، إن لم تهتد بنور الإسلام المشرق ، وترو بسحابه المغدق، وتستظل بظله الوارف الأمين .

وساء مثل الأمم والشعوب إن لم تؤمن بهذه الشريعة الباقية الخالدة ، وذلك الكتاب السماوى الحكيم ، الذى جاء به محمد صلى الله عليه وسلم نوراً وهدى للناس وروحاً وذكرى للعالم وللمؤمنين .

وشاهت وجوه أولئك الوارثين لمجد الاسلام الخالد وتراثه التليد، إن لم يضربوا أروع المثل فى سبيل الله ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره الكافرون ،كما ضرب أسلافهم الأرواع المشاييب أكرم الأمثال، وقاموا بأروع التضحيات والجهاد ، لتكون كلمة الله هى العليا .

لقد وقعت المعجزة منذ أربعة عشر قرناً ، على يد هادى الإنسانية وناشر السلام ، وعلم الدنيا والآخرة ، محمد صلى الله عليه وسلم ، وعلى يد أصحابه الأبطال الميامين ، فعلت كلمة الحق ، ونشرت راية الفضيلة ، ورفع لواء الحضارة والمدنية والثقافة ، وظهرت على دول العالم القديم الأمة الاسلامية المؤمنة ، فكان لها الفوز الأكبر ، والنصر المؤزر ، والكلمة العليا ، والشرف العظيم .

فلم لا يقوم الأزهر بعمل تلك المعجزة من جديد ؟ فيقودها ثورة صارمة فى وجه الباطل ، وهداية حكيمة تملأ مشارق الأرض ومغاربها

نوراً ؛ حتى يطمئن العقل الحائر ، ويسعد العالم الشقى ، وتنعم الانسانية المعذبة ، وتسود كلمة الحق والخير والفضيلة ، وتعود الحياة سيرتها الأولى .

ولم لا يستصغر المشقات فى جانب روح الأبد ، وراحة الضمير ... لا يأس فى الدعوة ، فإنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون . ولا ونى فى الهداية ، فإنه لا ينى فى ميدان الجهاد إلا من لبس إيمانه بظلم. ولا عمل إلا لله ورسوله ، فإن أجدر عمل بالظفر والسداد ما كانت غايته الله ورسوله . فإما أن يحيى للدعوة مجاهدا لإظهار كلمة الله، وإما أن يموت فى ميدانها شهيداً .

أين الأزهرى الذى يدعو الناس بخلقه وأدبه وطريقته ، إلى ما يدعوهم إليه بقوله وبيانه وحجته ؟.. وهل تكون العظة ذات أثر إلا إذا صدرت من مؤمن عامل بها ، وممن يأمر بالمعروف ولا ينسى نفسه ؟ فما أحلم الداعى إلى مكرمة لم يندب نفسه لها وإن كان بليغاً منطقياً .

على الأزهرى أن يدعو الناس بالحكمة والموعظة الحسنة ، والحجة البالغة ، والآية المبصرة ... يأخذ الناس على حسب عقولهم ، ويكلمهم بما يؤثر فى نفوسهم ، ويعرض عليهم نواحى الجمال فى العقيدة الاسلامية ، ويبين لهم ما فيها من دعوة إلى الحق والخير والجمال والعدالة ، ومن إعزاز للنفس الانسانية وسمو بها ، وتكريم لقدر الانسان فى الحياة ، وما فيها من ألوان الاصلاح فى السياسة والاجتماع والاقتصاد والعلم والعمران ، ومن سماحة فى المبادىء وسهولة فى التشريع ، ويسر فى الشعائر ، وما فيها من ديمقراطية عالية ، وروحية سامية ، وإخاء كريم وعدالة ومساواة وإيثار ، ضربت بها الأمثال بين الناس .

وعليه أن يضرب لهم الأمثال بالأسلاف الأولين ، وما كان لهم من المواقف الرائعة ، والمشاهد الماجدة ، والصفحات الناصعة في كل ميدان... وأن يفصل لهم المدى الذى بلغته الحضارة الاسلامية والفكر الاسلامى وما كان لهما من آثار بعيدة فى النهضة الحديثة . وأن يعاضد رجال الفكر والثقافة والصحافة ، ويتخذهم أصدقاء يساعدونه على أداء رسالته الدينية ونشرها بين الناس . وأن ينشىء الجمعيات الدينية التى تسهم بنشاط فى نواحى المجتمع ومرافق الأمة .

وعلى الأزهري أن يهضم الثقافة الاسلامية القديمة ، ويحيلها غذاء عقلياً جديداً بأسلوب يتفق وروح العصر والزمن .

إن الأزهرى داعيه للدين والخير ... فعليه أن ينهض بالعبء ويحمل الرسالة ، ويؤدى الأمانة . . . وأن يرشد الناس من جديد إلى كل ما فى الدين من حق وخير وجمال .

والتصوف والسمو الروحى فى الإسلام جدير بتأمله ودراسته وإذاعته بين الناس ، ليفهموا رسالة الروحية الحقة ، والسلام الأبدى ، والطمأنينة النفسية العميقة ، التى هى « الطب الروحى » و « العلاج النفسى » الصحيح ، الذى سبق بالكشف عنه فلاسفة الاسلام ومتصوفوه منذ أجيال مديدة فى تاريخ الحياة .

إن رسالة الأزهرى هى رسالة الدين نفسه ، وهى رسالة عامة شاملة ، هدفها الحقيقة والاصلاح والتعاون والنظام والعمل والاتحاد وغايتها إسعاد الناس والحياة .. ولمثل هذا فليعمل العاملون ....

حديث نبوى شريف

عن ابن عمر رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول :

كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته ، الإمام راع ومسئول عن رعيته ، والرجل راع فى أهله ومسئول عن رعيته ، والمرأة راعية فى بيت زوجها ومسئولة عن رعيتها ، والخادم راع فى مال سيده ومسئول عن رعيته ، وكلكم راع ومسئول عن رعيته ،

« رواه البخارى ومسلم »

أدعية نبوية شريفة

سبحانك اللهم وبحمدك ، أستغفرك لذنبي ، وأسألك رحمتك ، اللهم زدني علما ، ولا تزغ قلبي بعد إذ هديتني ، وهب لي من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب ، اللهم لك الحمد ، أنت قيوم السموات والأرض ومن فيهن ولك الحمد أنت نور السموات والأرض ومن فيهن . تم نورك فهديت ولك الحمد ، عظم حلمك فعفوت فلك الحمد ، ربنا وجهك أكرم الوجوه ، وجاهك أعظم الجاه ، وعطيتك أفضل العطية وأهنؤها ، تطاع ربنا فتشكر وتعصى ربنا فتغفر ، وتجيب المضطر وتكشف الضر ، وتشفي السقيم ، وتغفر الذنب ، وتقبل التوبة ، ولا يجزى بآلائك أحد ، ولا يبلغ مدحتك قول قائل .. اللهم نق قلبي من الخطايا كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس ، اللهم باعد بيني وبين خطيئتي كما باعدت بين المشرق والمغرب ، اللهم إني أسألك خير المسألة وخير الدعاء ، وخير النجاح وخير العمل ، وخير الثواب ، وخير الحياة وخير الممات ، وثبتني وثقل موازيني ، وحقق إيماني وارفع درجتي ، وتقبل صلاتي واغفر خطيئتي . وأسألك الدرجات العلى من الجنة آمين . اللهم إني أسألك فواتح الخير ، وخواتمه وجوامعه ، وأوله وآخره وظاهره وباطنه ، وأسألك الدرجات العلى من الجنة آمين . اللهم إني أسألك أن ترفع ذكرى ، وتصلح أمرى وتطهر قلبي ، وتحفظ فرجي وتنور لي قبري ، وأسألك الدرجات العلى من الجنة آمين . اللهم إني أسألك خلاصا من النار سالما ، وأدخلني الجنة آمنا ، اللهم إني أسألك أن تبارك لي في نفسي وفي سمعي وفي بصري ، وفي روحي وفي خلقي ، وفي خليقتي ، وفي أهلي ، وفي محياي ومماتي ، وفي عملي .. اللهم وتقبل حسناتي ، وأسألك الدرجات العلى .. اللهم إني أسألك نفسا مطمئنة ، تؤمن بلقائك ، وترضى بقضائك ، وتقنع بعطائك . .

خاتمة الكتاب

الحرية والسلام ورعاية حقوق الانسان ، ثلاثتها هى عماد النهضة ، ووسيلة التقدم ، وصمام الأمان فى الجماعات والشعوب .

فالحرية هى الغذاء الروحى ، والتراث الانسانى ، للانسان فى الأرض .. وبدونها تصبح الحياة جحيما لايطاق : وشرا لايحتمل ،وبلاء لاتتحمله مقدرات الأمم .

والسلام هو وليد المحبة والتعاون والاخاء والعدالة والحق والايثار والخير .. وهو خلاصة فلسفة الأديان ودعوة قادة الفكر البشرى ودعاة الاصلاح.. وبدونه يهدم الانسان بيده مايبنيه أخوه الانسان ،ولا تتقدم الحياة خطوة واحدة الى الأمام ، ويعود ابن حضارة القرن العشرين إلى حياة الغابات ، ووحشية الجاهلية الأولى .

ورعاية حقوق الانسان هى الوسيلة الفعالة لاحترام الكرامة الانسانية ، ومحاربة المبادىء الهدامة . ولقد أقرت الأمم المتحدة حقوق الانسان منذ أعوام ، بعد أن حددها وعرفها كبار الفلاسفة والمشرعين ، ووضعت فى ميثاق دولى اعتمدته الدول الكبيرة والصغيرة على السواء ..

ونحن هنا فى مصر ، نطالب بالحرية ،حرية بلادنا المقدسة ، ووادينا العزيز،ووطننا الخالد... ونعيش داخل حدودنا فى سلام شامل وحب للجميع ..

واليوم يقف ساسة العالم الغربى وقواده ومفكروه باكين أومتباكين على السلام ،داعين إلى محاربة من يقوض صروحه ، منذرين بالويل الشديد كل من يحاول تعكير صفوه ، يتبادلون التهم ، ويقسمون العالم الى معسكرين كبيرين : المعسكر الشرقى والمعسكر الغربى.

والسلام الذى يبكى عليه هؤلاء ، ويدعون الى توطيد دعائمه ، لم يهدده شىء اخطر من الاستعمار ، الاستعمار الجاثم فوق صدور الملايين من البشر يذيقهم العذاب والآلام والشقاء ، ويهددهم بالتشريد والفناء ...

الاستعمار هو الذى يحطم السلام ويهدد مستقبل العالم والشعوب .. وهو أينما كان وحيثما وجد العدو اللدود للانسانية . والحروب الكبيرة فى تاريخ العالم انما قامت بسبب الاستعمار، وتنافس الدول الكبرى على استعمار الشعوب الضعيفة .

إننا نمقت الاستعمار ، ونزدرى أساليبه فى مقاومة التقدم ، وفى القضاء على مقومات الناس والشعوب .. والاستعمار تحاربه كل قوى الخير فى الحياة لأنه شر محض ، وتحاربه كذلك الأديان السماوية ، ويقف منه الاسلام موقف العداء الشديد ، فهو لا يقر تحكم أمة فى أمة . ولا استغلال شعب لشعب ، بالبغى والعدوان والظلم . وعصر الاستعمار يجب أن ينتهى ، فلقد قاسى العالم من الاستعمار الآلام ، وعليه الآن أن يهب للدفاع عن حريته وحياته .. ونحن ننذر الشعوب المستعمرة بالحرب التى لا هوادة فيها ، إذا لم تغير من عقليتها العتيقة البالية . فالاستعمار هو عدو السلام والانسانية .

إننا سنبذل دماءنا وأرواحنا فى سبيل الحرية ، ومع ذلك فنحن ننشد أن يتمتع كل مصرى بحقه الكامل فى الحياة ، فى الغذاء والكساء والتعليم والعلاج والتأمين الاجتماعى والخدمات العامة ، وغيرها من الحقوق التى يكفلها له الاسلام والنهضة الحديثة .

إننا ندعو إلى الحرية والاصلاح ، ونؤمن بهما ، لأنهما السبيل إلى

النهضة والتقدم والحياة الكريمة ، ولأن ديننا الخالد جاء للدعوة إليهما ..
ونريد أن تشيع روح الحق والعدل والحكمة والتعاون والآخاء والمساواة والديمقراطية فى جوانب بلادنا العزيزة ، حتى يشعر كل مواطن بأن حكومته منه وإليه وله ، وأنها إنما قامت لخدمته وتهيئة أسباب التقدم له ، وأنه مطالب أن يعمل من أجل المجموعة الانسانية العامة ، ومن أجل وطنه وبلاده ، ومن أجل أهله وقومه وعشيرته .

إن فى ديننا كل أسباب العزة والقوة والاصلاح . وكل طرق الخير والمعرفة ، وفى معرفته ودراسته تهذيب لعقولنا ونفوسنا وأفكارنا ، وكبح لجماح الشهوات ، ودفع للعمل من أجل الجماعة والمجتمع .

ونحن فيما سجلناه ودوناه فى هذا الكتاب ، إنما ننشد أن يفهم الناس حقائق هذا الدين وأصوله ومراميه وأهدافه ، وأن يعملوا من جديد على إحياء مجدهم الغابر ، وتراثهم الخالد ، وعلى خلق يقظة قومية عامة فى شتى أرجاء العالم العربى والاسلامى .. وما ذلك على الله بعزيز .

ولعلى أكون قد وفقت فيما قصدت إليه ، ومن الله نستمد التوفيق والسداد والهداية ، وما توفيقى إلا بالله ؟

المؤلف



اطلبوا من

مكتبة الحاج على يوسف

بالأزهر الشريف

قصة

المولد النبوى الشريف

للشيخ الفقيه العالم العلامة

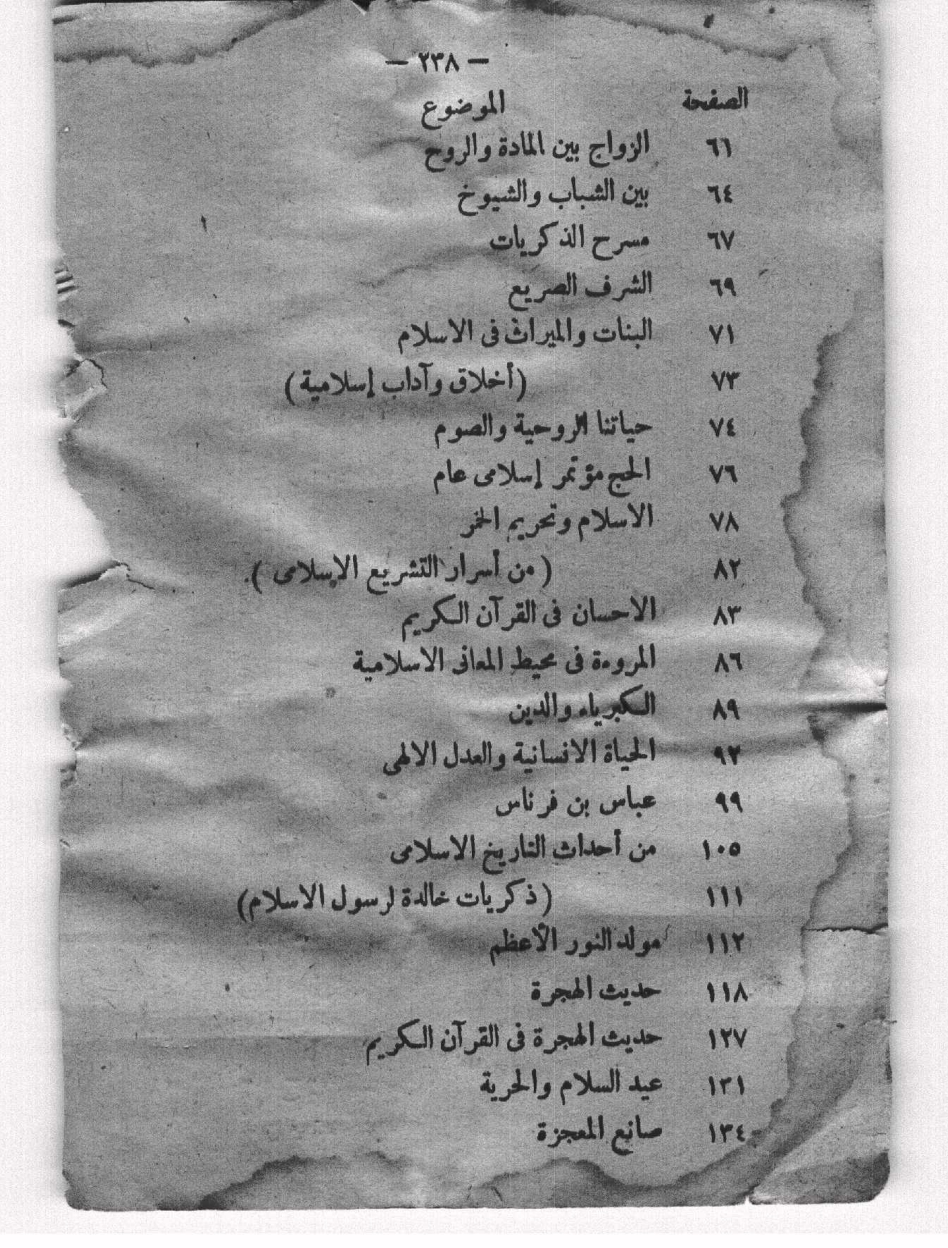
نافع الجوهرى الخفاجى

قام بتصحيحه ومراجعته وكتابة مقدمته وخاتمته

محمد عبد المنعم خفاجى

الأستاذ بكلية اللغة العربية بالأزهر الشريف

فهرست الكتاب



الصفحة	الموضوع

